# خـواطـر دلالـيَّـة

## مـع نـصـوص قـرآنـيَّة ولـغـويَّة

حسن، عادل محمد ابراهيم
خواطر دلالية مع نصوص قرآنية ولغوية
ط 1 ، القاهرة : دار الآفاق العربية 2018
239 ص ، 24 سم

1- القرآن، بديع.
2- القرآن، بلاغة.
3- القرآن، الفاظ.

أ. العنوان 225.6

تدمك: 6 – 426 – 344 – 977 – 978
رقم الإيداع : 5378 / 2018
الطبعة الأولى
1439 هـ / 2018 م



نشر – توزيع – طباعة
55 شارع محمود طلعت من ش الطيران
مدينة نصر – القاهرة
تليفون : 22617339 -00202 تليفاكس : 00202-22610164

Emails: dar.alafk@yahoo.Com
selim.selim10@yahoo.com
daralafak2017@gmail.com
dar.alafk@Gmail.com



الطبعة الأولى

١٤٣٩/٢٠١٨

# خواطر دلالية

# مع

# نصوص قرآنية ولغوية

إعداد

أ.د عادل محمد إبراهيم حسن

أستاذ أصول اللغة

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بكفر الشيخ جامعة الأزهر

والوكيل الأسبق لكلية الدراسات الإسلامية والعربية بدسوق



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

# المدخل

الحمد لله ربِّ العالمين، أكرمنا بقرآنه الكريم، وفضَّلنا بلسان العربيَّة القويم، والصَّلاة والسَّلام علىٰ النَّبيِّ الرءوف الرَّحيم، خاتم النَّبيين والمرسلين محمد بن عبد الله وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

**أما بعد:**

فإنَّ الدَّلالة باب عظيم من أبواب اللغة تقف دائمًا علىٰ عتباته مهما حاولت التفتيش والتنقيب عن أسراره ومعرفة حقيقة إعجازه، فالبحر يبدو في الظاهر هادئًا ولكنَّ الحقيقة أنَّ السِّباحة فيه تحيطها كثير من المخاطر؛ وذلك لأنَّ الموج يضطرب فيه بين حين وآخر، فكان لزامًا علىٰ كل باحث ألا يكتفي بالصُّورة وما يتبادر إلىٰ الذهن في فهمها وبيان خفيِّها ولكن كان عليه سبر أغوارها ومحاولة اللحاق بالرَّكب والدُّخول إلىٰ عالمها حتىٰ لا يحيد عن الطريق المستقيم والنَّهج القويم؛ وذلك في ضوء مجموعة من القواعد والأركان التي تحفظ العقل من الزلل في الفهم والانحراف عن الصَّواب، فالأمر عسير خاصة في بادئ الأمر قبل البحث واستنفاد الطاقة في الفهم والإدراك ولكن مع مرور الوقت والاجتهاد في التَّحصيل تجد الحديد يلين، وما كان بالأمس خيالاً قد يصبح اليوم حقيقة وواقعًا.

وهذه خواطر واجتهادات التمستها أثناء قراءة القرآن الكريم وبعض التفاسير، وكذلك أثناء البحث عن بعض الشخصيات في مجال اللغة، فكَّرت كثيرًا قبل أن أحوِّلها من مجرد خاطرة تظل راكدة في الذِّهن إلىٰ صورة مقروءة، ولكن عندما تختمر الأفكار دون أن تدرىٰ تحوَّل إلىٰ كلمات وعبارات، وهذا ما حدث معي في أربع أفكار تجمعها أسرار الدلالة، ولكن لكل فكرة عالمها الذي تسكن فيه،

فالعنوان العام هو: (خواطر دلاليَّة مع نصوص قرآنية ولغويَّة)، وأما العناوين التفصيلية فهي:

**1- دوائر البيان في دلالة تذييل آيات القرآن بـ (كفىٰ بالله).**

**2- قلوب المعرضين عن القرآن في القرآن «دلالات وحكم وأسرار».**

**3- أوصاف الماء في القرآن الكريم بين الدلالة المعجمية والسياقية.**

**4- الفروق الدَّلاليَّة في مُصَنْفَات ابن مالك الصَّوتيَّة.**

وبعد، فما أجمل أن يعيش المسلم مع القرآن الكريم، حفظًا حتىٰ يختلط بعظمه ولحمه، وفهمًا يستلهم منه الغايات والدَّلالات حتىٰ يكون علىٰ بيِّنة من أمره وبصيرة في عبادة ربِّه، وكذلك مع العربيَّة التي لن تبوح بأسرارها إلا لمن يكابد البحث فيها ويهب نفسه لها حتىٰ تعطيه بعضًا من كنوزها ونذرًا يسيرًا من لطائف تعبيراتها وجمال بيانها.

والله المستعان وهو حسبي ونعم الوكيل.

# دوائر البيان

## في دلالة تذييل آيات القرآن بـ (كفى بالله)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، يُبَشِّر المؤمنين السائرين علىٰ دربه بفضل منه ومِنَّة، ويُنْذِر الخارجين عن حدوده بعذاب منه ونقمة، والصلاة والسلام علىٰ مَنْ شرح الله له صدره، ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره -محمد ﷺ-، ورضي الله عن الصحب الكرام الأخيار وتابعيهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.

**أما بعد:**

فإنَّ الصاحين من عباد الله ﷻ يحيون في قصور شامخات من العزة والرفعة والكرامة مهما اختطفت أحلامهم أو ساءت أحوالهم، ولكن المفسدين منهم تتعالىٰ صرخاتهم وتزداد آلامهم فيشعرون بالشقاء والحرمان وإن كان لهم في سعة الديار والأموال رصيد الملوك والأمراء.

وعلىٰ ذلك فمن بني البشر مَنْ تمكِّنه خبراته من تحدِّي العقبات ومصارعة الخطوب والأزمات فيسكن في دائرة عنوانها الإيمان واليقين، والتي يكتفي فيها بربه عمن سواه، فيكفيه الله الهموم والأحزان فيسعد بداري الدنيا والآخرة ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ **[النساء: 45]**، ومنهم من تقلِّبه الرياح يمنة ويسرة فتسقط أوراق حياته، ويقبل خريف عمره قبل أن يبدأ ربيعه فتغلُّه دائرة عنوانها الكفر والنفاق؛ وذلك لأنه آثر الكذب واتخذه دليلاً ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ **[النساء: 50]**، فاكتفىٰ بنفسه عمن سواها فوكله الله إليها، ويوم القيامة ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ **[الإسراء: 14]**، ثم تغرب شمسه ويأفل نجمه فيصلىٰ عذاب النار ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ **[النساء: 55]**.

وهذا البحث الموجز يكتفي بـ (كفىٰ بالله) في القرآن الكريم[1]، ليس لكفاية الكذب أو النفس أو جهنَّم فيه من نصيب، يقدِّمه الباحث في ثماني دوائر، كل

(1) إضافة إلىٰ (كفىٰ بنا) و (كفىٰ به) و (كفىٰ بربك).

دائرة منها تحتوي علىٰ اسم أو اسمين من أسماء الله الحسنىٰ يحكمها الترتيب الألفبائي يسبقها التمهيد ويتوِّجها الخاتمة، ترىٰ فيه قمة التلاؤم والتوافق والتناغم بين قطر أو أقطار كل دائرة ومركزها، فتلمح فيه جمال التذييل بأسمائه الحسنىٰ وأثره الدلالي، وإعجازه البارع في تناسبه البديع في وسط الآية أو ختامها مع مقصد كل نصٍّ وغايته وما أضافه من تحقيق وتوكيد له، فتجد التفاعل بين كلمات النص الواحد، وكأنَّ بداية النص تنادىٰ علىٰ خاتمته، فكيف يدعو الإنسان ربَّه وبأسمائه الحسنىٰ بما يتفق مع مقصده وغايته؟ وذلك من خلال عنوان: **(دوائر البيان في دلالة تذييل آيات القرآن بـ (كفىٰ بالله).**

**التمهيد:** ويشتمل علىٰ:

أ- دلالة التذييل.

ب- فائدة التذييل وصوره.

ج- دلالة كفىٰ بالله.

**الدائرة الأولىٰ:** وكفىٰ بالله حسيبًا.

**الدائرة الثانية:** وكفىٰ به بذنوب عباده خبيرًا.

**الدائرة الثالثة:** وكفىٰ بربِّك بذنوب عباده خبيرًا بصيرًا.

**الدائرة الرابعة:** وكفىٰ بالله شهيدًا.

**الدائرة الخامسة:** وكفىٰ بالله عليمًا.

**الدائرة السادسة:** وكفىٰ بربك هاديًا ونصيرًا.

**الدائرة السابعة:** وكفىٰ بالله وكيلاً.

**الدائرة الثامنة:** وكفىٰ بالله وليًّا وكفىٰ بالله نصيرًا.

**الخاتمة:** عرض أهم نتائج البحث.

وبعد، فهذه دوائر مَنْ أشرقت شموس حياتهم، وأنار القمر دروب ظلامهم فهتفت عقولهم وقلوبهم بكفاية الله ﷻ لهم إيمانًا وتصديقًا ويقينًا، فليتأس بهم

الغارقون في بحار المعاصي والذُّنوب لعلَّ الرَّحمة أن تصيبهم كما أصابت مَنْ كان قبلهم خاصَّة في هذا العصر الذي توارىٰ فيه النَّهار وأقبل فيه الظَّلام بكل معطياته وأدواته.

فإذا ترك الخارج عن حدود الله لنفسه العنان وانتقل بفكره وقلبه من دائرة إلىٰ أخرىٰ، أو قل من روضة إلىٰ أخرىٰ لعادت إليه نسمات الإيمان التي فقدها وجنَّات النَّعيم التي حرم نفسه منها.

أدعو الله ﷻ أنَّ ما تُسَطِّره الأقلام وتُسَجِّله الأفكار يقرِّبنا منه ومن جنَّته، ويباعد بيننا وبين النَّفس والشَّيطان ومن ناره، فإن أخطأت التعبير أو أسأت الفهم والتَّقدير فاغفر اللهم لي ما قصرت فيه، وارحمني برحمتك التي وسعت كل شيء وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين.

﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝٢٦ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ [طه: 25: 28].

## تمهيد

اتسعت لغة الحوار في العصر الحديث نظرًا لتعدُّد وسائل الاتصال واختلاف أشكاله وألوانه، وواكبت الجملة العربية هذا التَّقدم، وأثبتت أنها أداة الخطاب التي تتحكم في إدارة هذه العملية، فهي التي تترجم المشاعر والأفكار والأحاسيس إلىٰ عبارات مقروءة أو مسموعة في صورة يظنها الظانُّ ضربًا من الخيال، والتذييل علامة من علامات هذه اللغة، وما أجمل أبجدياته إذا كان ينتهي بأسماء الله الحسنىٰ وصفاته العليا؟

### أ- دلالة التذييل

ذكر الزركشي في القسم الرابع والعشرين أن «التذييل مصدر (ذَيَّل) للمبالغة وهي لغة جعل الشيء ذيلاً للآخر[1]، واصطلاحًا: أن يؤتىٰ بعد تمام الكلام بكلام مستقل في معنىٰ الأول تحقيقًا لدلالة منطوق الأول أو مفهومه ليكون معه كالدليل ليظهر المعنىٰ عند من لا يفهم ويكمل عند من فهمه»[2].

وبعبارات متقاربة تحمل الدلالة نفسها قيل هو: «إعادة الألفاظ المترادفة علىٰ المعنىٰ حتىٰ يظهر لمن لم يفهمه ويتوكد عند من فهمه، وهو ضد الإشارة والتعريض، وينبغي أن يستعمل في المواطن الجامعة والمواقف الحافلة؛ لأن تلك المواطن تجمع البطيء الفهم والبعيد الذهن والثاقب القريحة والجيد الخاطر، فإذا تكررت الألفاظ علىٰ المعنىٰ الواحد توكد عند الذهن اللَّقِن وصحَّ للكليل البليد»[3].

---

(1) **فالذَّيْل**: آخر كل شيء. لسان العرب لابن منظور الإفريقي. تحقيق. علىٰ عبدالله الكبير وآخرين، (ذ ي ل) 3/ 1529 - دار المعارف.

(2) البرهان في علوم القرآن للزركشي. تحقيق. محمد أبو الفضل إبراهيم 3/ 68 - دار الجيل - بيروت - لبنان - 1408هـ-1988م.

(3) كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر) لأبي هلال العسكري. تحقيق. علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم ص373 - المكتبة العصرية - بيروت 1406هـ-1986م. =

وعلىٰ ذلك فإن تفاوتت العقول في فهم حقيقة النصوص فإن التذييل باب من أبواب البيان لمن به قصور، وتأكيد لأصحاب الريادة والسيادة في تحليل ومعرفة دقائق الأمور.

إذًا فالتذييل في علم المعاني هو تعقيب الجملة بجملة تشتمل علىٰ معناها للتوكيد[1].

## ب- فائدة التذييل وصوره

التذييل باب من أبواب ثراء الدلالة له قيمته وأهميته التي لا يحققِّها غيره، فهو نوع من أنواع الإطناب في علم المعاني والذي تزيد فيه الألفاظ وتكثر ولكن من أجل تحقيق الفائدة، فـ «للتذييل في الكلام موقع جليل ومكان شريف خطير لأن المعنىٰ يزداد به انشراحًا والمقصد اتضاحًا»[2].

وإذا كانت دلالة الألفاظ علىٰ المعاني تأتي من خلال أبواب الإشارة والتذييل والمساواة فإنهم «قالوا إن التذييل يصلح للمواقف الجامعة وحيث يكون الكلام مخاطبًا به عامَّة الناس ومن لا يسبق ذهنه إلىٰ تصور المعنىٰ. والإشارة تصلح لمخاطبة الخلفاء والملوك ومن يقتضي حسن الأدب عنده التخفيف في خطابه وتجنب الإطالة فيما يتكلف سماعه. والمساواة التي هي الوسط بين هذين الطرفين من الإشارة والتذييل تصلح للوسط بين الطرفين اللذين هم الملوك وعامة الناس»[3].

---

= وينظر: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب. عبدالقادر البغدادي. تحقيق. محمد نبيل طريفي، ايميل بديع يعقوب 1/ 242 - دار الكتب العلمية 1998م، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص207 - دار الكتب العلمية - 1402هـ-1983م.

(1) الإيضاح في علوم البلاغة. الخطيب القزويني. تحقيق. بهيج غزاوي ص190 - دار إحياء العلوم - بيروت - 1419هـ-1998م.

وينظر: المعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية 1/ 330 - الطبعة الثالثة 1392هـ-1972م، وعلوم البلاغة (البيان والمعاني والبديع) د. أحمد مصطفىٰ المراغي ص237 - دار الآفاق العربية.

(2) كتاب الصناعتين 1/ 373.

(3) سر الفصاحة 1/ 207.

ومن خلال صورتين يجري التذييل في الاستعمال:

**الصورة الأولىٰ:**

صورة من لا يخرج مخرج المَثَل لعدم استقلاله بإفادة المراد وتوقفه علىٰ ما قبله كقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ **[سبأ: 17]** إن قلنا إن المعنىٰ وهل يجازي ذلك الجزاء.

**الصورة الثانية:**

صورة من يخرج مخرج المَثَل كقوله تعالىٰ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ **[الإسراء: 81]**[1]، فيقصد بالجملة الثانية حكم كلي منفصل عما قبله جار مجرىٰ الأمثال في الاستقلال وفشو الاستعمال[2].

والقسم الثاني هو عنوان فكرة هذا البحث، وعليه تدور الدوائر الثمانية، كل دائرة قد تسكن فيها فكرة واحدة أو عدة أفكار، بل قل قطر واحد أو عدة أقطار، ترىٰ فيها الجواب قبل السؤال، والتوادّ والتراحم قبل الخصام؛ لأنها دوائر المحبين الذين كان ومازال كتاب الله ﷻ دليلهم، وهدي النبي محمد ﷺ دستور حياتهم.

## جـ- دلالة كفىٰ بالله

ذكر صاحب المصباح أن «كفىٰ الشيء يكفي كفاية فهو كافٍ: إذا حصل به الاستغناء عن غيره، واكتفيت بالشيء: استغنيت به أو قنِعتُ به»[3].

و «الله جل جلاله: هو اسم للمعبود الحق الجامع لصفات الإلهية، المنعوت

(1) الإيضاح في علوم البلاغة ص190، 191.

(2) مختصر المعاني. سعد الدين التفتازاني ص168 - دار الفكر - الطبعة الأولىٰ 1411هـ.

وينظر: المفصل في علوم البلاغة العربية د. عيسىٰ علي العاكوب ص336، 337 - دار القلم بالإمارات العربية المتحدة - دبي - الطبعة الثانية 1426هـ-2005م، وعلوم البلاغة ص237، 238.

(3) المصباح المنير للفيومي (ك ف ي) ص205 - مكتبة لبنان.

وينظر: لسان العرب 5/ 3907، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم. مجمع اللغة العربية 5/ 163 - الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث - القاهرة - 1409هـ-1989م.

بنعوت الربوبية، المنفرد بالوجود الحقيقي، فإن كل موجود سواه غير مستحق للوجود بذاته»[1].

ف «(الله) دال علىٰ جميع الأسماء الحسنىٰ، والصفات العليا، بالدلالات الثلاث (المطابقة والتضمن واللزوم)»[2].

وأما إذا انضمت (كفىٰ) إلىٰ لفظ الجلالة (الله) كما في قوله ﷻ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ اتجهت العبارة إلىٰ الأمر علىٰ دلالة (اكتفىٰ بالله)، فالباء فيها للتوكيد، «وكل ما في القرآن من قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ و﴿كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ﴾ فلو ألقيت الباء كان الحرف مرفوعًا كما قال الشاعر[3]:

**ويخبرني عن غائب المرء هَدْيُه     كفىٰ الهدي عما غَيَّبَ المرء مُخْبرا**

وإنما يجوز دخول الباء في المرفوع إذا كان يمدح به صاحبه»[4].

قل ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وافتح باب هذه الدوائر الثمانية حتىٰ ترىٰ بنفسك آلاء الله وجميل فضله عليك، فلا تيأس ولا تحزن في عالم عنوانه (وكفىٰ بالله) وكفىٰ بها من نعمة.

## الدائرة الأولىٰ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾

مَنْ يحزن قلبه أو تدمع عينه في عالم قد كفىٰ الله فيه الإنسان أمره، وأصلح له شأنه، ووقاه شَرَّ نفسه خاصَّة إذا كان من الراضين بحكمه القائمين علىٰ تنفيذ حدوده؟

---

(1) المقصد الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ للغزالي ص40 - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

(2) ينظر: شرح أسماء الله الحسنىٰ علىٰ ضوء الكتاب والسنة (توضيح وبيان) سعيد بن علي القحطاني ص47 - دار الإيمان - إسكندرية.

(3) هو زيادة بن زيد العدوي. والبيت في لسان العرب (هـ د ي) 6/ 4640، وخزانة الأدب 11/ 182.

(4) معاني القرآن للفراء. تحقيق. أحمد يوسف نجاتي، محمد علي النجار 2/ 119 - الدار المصرية للتأليف والترجمة - الطبعة الثالثة 1403هـ-1983م.

وينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج. تحقيق د. عبد الجليل شلبي 1/ 57 - دار الحديث - القاهرة - الطبعة الثانية 1418هـ-1997م، والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني ص657 - مكتبة الأنجلو المصرية 1970م.

وقد التقىٰ بمركز هذه الدائرة ثلاثة أقطار، لكل قطر منها عنوانه وحواره الخاص به، والذي ترىٰ فيه مدىٰ الترابط الذي يجمع بينهما.

**القطر الأول: الشهادة علىٰ دفع أموال اليتامىٰ**

قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ **[النساء: 6]**.

يسيل لعاب بعض الأوصياء علىٰ أموال اليتامىٰ أمام هذا الابتلاء، فيظنون أن الدنيا قد أهدت إليهم هذه الهدية علىٰ سبيل الهبة أو الغنيمة فتخور قواهم وتنهار مبادئهم، فيبعث الله ﷻ لهم بهذه المعايير والضوابط أو قل التوصيات والتوجيهات حماية لأنفسهم من ظلمهم إياها مذيِّلاً إياها بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾.

واسم الله (الحسيب) هنا قد يحمل علىٰ دلالة المحاسب أو الكافي، حيث «قال ابن الأنباري والأزهري: يحتمل أن يكون الحسيب بمعنىٰ المحاسب، وأن يكون بمعني الكافي، فمن الأول قولهم للرجل للتهديد: حسبه الله ومعناه يحاسبه الله علىٰ ما يفعل من الظلم، ونظير قولنا الحسيب بمعنىٰ المحاسب، قولنا الشريب بمعنىٰ المشارب، ومن الثانىٰ قولهم: حسيبك الله، أي كافيك الله. واعلم أن هذا وعيد لولي اليتيم وإعلام له أنه تعالىٰ يعلم باطنه كما يعلم ظاهره لئلا ينوي أو يعمل في ماله ما لا يحل، ويقوم بالأمانة التامَّة في ذلك إلىٰ أن يصل إليه ماله، وهذا المقصود حاصل سواء الحسيب بالمحاسب أو بالكافي»(1).

وعلىٰ ذلك فـ «(كفىٰ بالله حسيبًا) أي كافيًا في الشهادة عليكم بالدفع والقبض، أو محاسبًا، فعليكم بالتصادق، وإياكم والتكاذب»(2).

---

(1) مفاتيح الغيب للفخر الرازي 9/ 157 - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولىٰ 1421هـ-2000م.

(2) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري 1/ 476 - دار الكتاب العربي.

وقد يتم توجيه دلالة (الحسيب) هنا نحو الشهيد، حيث قيل «(وكفىٰ بالله حسيبًا) يعني شهيدًا في أمر الآخرة، وأما في أمر الدنيا فينبغي أن يشهد العدول علىٰ ذلك ليدفع القالة عن نفسه؛ لأن الله تعالىٰ لا يشهد له في الدنيا»[(1)].

وفي هذا ضمان لآداء الحقوق إلىٰ أهلها، فـ «لا شاهد أفضل من الله بيني وبينكم»[(2)].

«وإنما قال (حسيبًا) ولم يقل (شهيدًا) مع مناسبته، تهديدًا للأوصياء لئلا يكتموا شيئًا من مال اليتامىٰ، فإذا علموا أن الله يحاسب علىٰ النقير والقطمير، ويعاقبهم عليه انزجروا عن الكتمان»[(3)].

وبهذا التذييل الذي ختمت به الآية تهدأ قلوب اليتامىٰ وتطمئن جوارحهم، وفي الوقت ذاته يحذر الأوصياء من عذاب ربهم وعقابه، فاسم الله (الحسيب) مصباح أطفأ جميع دياجير الظلام التي يمكن أن تسيطر علىٰ ضعاف النفوس أو أن تتحكم في توجيهها. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾.

**القطر الثاني: القيل والقال في زواج النبي ﷺ**

قال الله تعالىٰ: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ **[الأحزاب: 38، 39].**

إن إثارة الشبهات أقوىٰ بكثير من إثارة الشهوات، فربما تودي الشبهة بحياة أمة خاصَّة إذا تمكَّنت منها وسيطرت عليها ولم تُحَكِّم منهج الله ﷻ فيها.

وقد أشرقت بهذه الآيات قلوب الموحِّدين وأضاءت بصائرهم وأظلمت بها مَنْ في قلوبهم مرض، وتبخَّرت من خلالها أحلامهم، فقد «سَنَّ الله سنة

(1) بحر العلوم للسمرقندي (تفسير السمرقندي). تحقيق د. محمود مطرحي 1/ 308 - دار الفكر - بيروت.

(2) تفسير ابن أبي حاتم. تحقيق. أسعد محمد الطيب 3/ 871 - المكتبة العصرية - صيدا.

(3) البحر المديد لابن عجيبة 2/ 12 - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثانية - 1423هـ-2002م.

في الأنبياء، وهو أن لا حرج عليهم في الإقدام علىٰ ما أباح لهم ووسَّع عليهم في باب النكاح، وغيره فإنه كان لهم الحرائر والسراري، فقد كان لداود ﵇ مائة امرأة، ولسليمان ثلاثمائة امرأة وسبعمائة سرية، فكذلك سَنَّ لمحمد ﷺ التوسعة عليه كما سَنَّ لهم ووسَّع عليهم»[1].

وبذلك انتفت شبهة الكائدين وزال مكر الماكرين، فتراجع الباطل أمام نور الحق، ليس فقط ذلك بل زاد ربُّنا ﷻ الأمر تأكيدًا وتحقيقًا بهذا التذييل الرائع تهدئة لقلب نبيه ﷺ ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾.

و(الحسيب) هنا بمعنىٰ الكافي أو المحاسب و المجازي، فهو ﷻ حاضر في كل مكان يكفي عباده كل ما يخافونه أو محاسبًا لهم في كل شيء[2]، فكفاك يا محمد بالله حافظًا لأعمال خلقه، ومحاسبًا لهم عليها[3].

إذًا فهذه «سنة في الأنبياء المعصومين، الذين وظيفتهم قد أدُّوها وقاموا بها أتمَّ القيام، وهو دعوة الخلق إلىٰ الله، والخشية منه وحده التي تقتضي فعل كل مأمور، وترك كل محظور، دلَّ ذلك علىٰ أنه لا نقص فيه بوجه»[4].

ومن هنا فقد جرىٰ ذلك وفق أمر الله ﷻ وقدره لم يكن لهوىٰ النفس فيه من نصيب، وقدَّمت الآيات الحجج والبراهين علىٰ صدق ذلك فبرئت ساحة النبي ﷺ ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾.

---

(1) لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن) علاء الدين البغدادي 5/ 264 - دار الفكر - بيروت - لبنان - 1399هـ-1979م.

(2) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني 4 / 285 - دار الفكر - بيروت.

(3) جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري. تحقيق. أحمد محمد شاكر 20/ 276 - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولىٰ - 1420هـ-2000م.

(4) تيسر الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (تفسير السعدي). حققه. عبدالرحمن بن معلا ص666 - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولىٰ 1420هـ-2000م.

**القطر الثالث: العَدُّ والإحصاء**

قال الله تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ **[الأنبياء: 47].**

لم يشهد هذا العصر تقدمًا هائلاً في مجال تكنولوجيا المعلومات فحسب، ولكنه شهد أيضًا تقدمًا في مجال خداع الناس وتضليلهم حتىٰ غدا حرفة النابهين -أرباب الفكر السديد والعقل الرشيد-، فانطلقت أفكارهم الخبيثة تُسَجَّل في موسوعات تشهد ببراعتهم وحسن إدارتهم، يعتزون بذلك ويفخرون به، ولكنهم نسوا أو تناسوا أن هذا الأمر يُسَجِّل عليهم أرقامًا خيالية من الذنوب والمعاصي قد تنساها ذاكرتهم ولا تستطيع شبكة المعلومات أن تحصيها وتُسَجِّلها عليهم بالرغم من وجود كثير من برامج الإحصاءات الدقيقة والمنظمة، ولكن سجلات الآخرة تلتقطها وتُسَجِّلها بعدل وإنصاف ودقة وإتقان فتحصيها عليهم وتدوِّنها وتبديها لهم في يوم تشخص فيه الأبصار.

وقد أصدر الله ﷻ قانونه الفصل بين عباده إجمالاً بقوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾، ثم فصَّله معقبًا وشارحًا بقوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾.

و(الحسيب) في هذا النص تتنوَّع دلالته إلىٰ عدة أنواع:

**الدلالة الأولىٰ:** العدُّ والإحصاء

ذهب كثير من علماء التفسير إلىٰ أنَّ لفظة (حاسبين) في الآية تتجه نحو هذه الدلالة، «أي عادِّين ومحصين أعمالهم علىٰ أنه الحساب مرادًا به معناه اللغوي وهو العَدّ»[1].

---

(1) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي 17/ 56 - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

**الدلالة الثانية: العلم والحفظ**

عن (حاسبين): «قال ابن عباس: عالمين حافظين، لأنَّ من حسب شيئًا علمه وحفظه. والغرض منه التحذير فإن المحاسب إذا كان عالمًا بحيث لا يمكن أن يفوته شيء وكان في القدرة بحيث لا يعجز عن شيء، فحقيق بالعاقل أن يكون شديد الخوف منه»(1).

**الدلالة الثالثة: الحساب والجزاء**

قيل إن (حاسبين) في الآية يجوز «أن يكون كناية عن المجازاة»(2).

**الدلالة الرابعة: سرعة الحساب**

يسير العالم بجميع مخلوقاته وفق أمر الله وإرادته، يحاسبهم ربهم في زمان يسير لا يعلم حقيقته إلا هو، حيث «قيل (حاسبين) إذ لا أحد أسرع حسابًا منَّا»(3).

وبالرغم من تفوق الدلالة الأولىٰ إلا أن الدلالات الأخرىٰ محتملة يؤيدها السياق القرآني، وكأنها مراحل تدريجية في عالم الدلالة تبدأ بعالم الإحصاء والعدِّ الذي يُمَثِّل بداية الحساب، فإذا أحصيت دلَّ ذلك علىٰ علم الله وحفظه، ثم يكون الجزاء من جنس العمل، كان ذلك يتم في لحظات لا يعلم مقدارها إلا هو ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ **[الأنعام: 62]**.

فهذا الترابط البديع والتناسب العجيب بين مركز هذه الدائرة وأقطارها يجعل القلوب دائمًا تتعلق باسم ربها (الحسيب): «الكافي للعباد جميع ما أهمهم من أمر دينهم ودنياهم من حصول المنافع ودفع المضارِّ. والحسيب بالمعنىٰ الأخص هو الكافي لعبده المتقي المتوكل عليه كفاية خاصة يصلح بها دينه ودنياه. والحسيب

(1) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل. تحقيق. عادل أحمد عبدالموجود وآخرين 13/ 514 – منشورات محمد علي بيضون – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولىٰ 1419هـ-1998م.

(2) روح المعاني 7/ 56.

(3) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي). تحقيق. هشام سمير البخاري 11/ 294 – عالم الكتب – الرياض – المملكة العربية السعودية – 1423هـ-2003م.

أيضًا هو الذي يحفظ أعمال عباده من خير وشرّ ويحاسبهم إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشرّ»[1].

**الدائرة الثانية:** ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾

تبعث النفس برقية عزاء إلىٰ هؤلاء الذين يعلمون أن للكون ربًّا يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ومع ذلك تنهمر سماؤهم بالذنوب والمعاصي خاصَّة إذا ما خلوا بأنفسهم فيدعونها إلىٰ مائدة حَرَّم الله ﷻ عليهم الأكل منها أو النظر إليها، فتئن الأرض من تحت أقدامهم وتلعنهم كما لعنت أمثالهم ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾.

فاسم الله (الخبير) هو مركز هذه الدائرة الذي تلجأ إليه قلوب الموحدين عامة، وقلب النبي محمد ﷺ خاصَّة، ويفزع منه الخارجون عن حدوده، لم يمر به سوىٰ قطر واحد عنوانه (التوكل علىٰ الله والتسبيح بحمده).

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٥٦﴾ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ **[الفرقان: 56-58].**

بالحكمة والموعظة الحسنة هذا منهج الله الذي شرعه لنبيه محمد ﷺ في الدعوة إليه وفي هداية أمته، يبشِّرهم بجنَّة ربهم ويحذِّرهم من ناره، لا يبغىٰ بذلك مالاً ولا جاهًا ولا سلطانًا، ولكن ماذا لو ضلَّ أكثر البشر السّبيل واتبعوا السُبُّل؟

الجواب: «﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ﴾: أي اعبده وصَلِّ له شكرًا منك علىٰ نعمه، وقيل: احمده منزهًا له عمَّا لا يجوز في وصفه، وقيل: قل سبحان الله والحمد لله»[2].

---

(1) شرح أسماء الله الحسنىٰ ص138.

وينظر: المقصد الأسنىٰ ص86، وأسماء الله الحسنىٰ آثارها وأسرارها د. محمد بكر إسماعيل ص159 - دار المنار - الطبعة الأولىٰ 1421هـ-2000م.

(2) الكشف والبيان للثعلبي. تحقيق. أبي محمد بن عاشور 7/ 142 - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان - 1422هـ-2003م.

ثم يأتي التذييل في ختام الآية والذي يُذيل به الله ﷻ عن نبيه ﷺ كل همٍّ وكرب، ويبعث في قلب أمته الحياة مهما كثر أعداؤها وتكالبت عليها الأمم. ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾.

و (الخبير) في هذا النص قد يحمل علىٰ دلالته الحقيقية التي تتجه نحو العلم، أو المجازية التي تتجه نحو الحساب والجزاء، وهذا «يعنىٰ أنه تعالىٰ علاَّم بجميع ذنوب عباده فيجازيهم بها. وقيل: معناه أنه لا يحتاج معه إلىٰ غيره لأنه خبير عالم قادر علىٰ مكافأتهم وفيه وعيد شديد، كأنه إذا قدمتم علىٰ مخالفة أمره كفاكم علمه في مجازاتكم بما تستحقون من العقوبة»[1].

ف «العلم بالذنوب كناية عن لازمه وهو أن يجازيهم علىٰ ذنوبهم، والشرك جامع الذنوب، وفي الكلام أيضًا تعريض بتسلية الرسول ﷺ مع ما يلاقيه من أذاهم»[2].

فسبحانه وتعالى العالم بحال عباده والمطلع عليها وخاصة الباطن منها، والقادر علىٰ حسابهم والمجازي عليها، فأنت في دائرة الخبير أينما وحيثما كنت، و «هو الذي لا تعزب عنه الأخبار الباطنة، ولا يجري في الملك والملكوت شيء، ولا تتحرك ذرة ولا تسكن، ولا تضطرب نفس ولا تطمئن إلا ويكون عنده خبرة. وهو بمعنىٰ العليم، لكن العلم إذا أضيف إلىٰ الخفايا الباطنة سمىٰ خبرة، وسمي صاحبها خبيرًا»[3].

**الدائرة الثالثة:** ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾

في مقام عرض الدعوة إلىٰ الله ودور النبي ﷺ في حياة أمته أعلنت الدائرة السابقة عن نفسها بعلمه ﷻ بذنوب عباده وخاصة الباطن منها، فكان (التوكل علىٰ الله والتسبيح بحمده) هو حلقة الوصل الذي يصل المسلم بربه، ومن ثم يصل قطر الدائرة بمركزها.

(1) تفسير الخازن 5/ 106.

(2) التحرير والتنوير. محمد الطاهر بن عاشور 19/ 60 - دار سحنون - تونس 1997م.

(3) المقصد الأسني ص76.

ولكن عندما يخرج كثير من بني البشر عن فطرتهم وصمتهم ويبارزون ربهم ﷻ بالمعاصي، ويعلنوها صريحة دون حياء أو خجل، أو تورية من قول أو تواري من فعل كان لابد من أن يكون المقام أشدّ وأقوىٰ إعلانًا عن خطر قد يؤدي بحياة الأمة ويجعلها في عالم الذكريات كحال من قبلها.

لذلك لم تكتف هذه الدائرة باسم واحد فقط من أسمائه الحسنىٰ بل أعلنت عن اسمين، وذلك بالتذييل في ختام الآية؛ فليس ربُّنا ﷻ خبيرًا فقط بذنوب عباده بل بصيرًا بها أيضًا .﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ **[الإسراء: 17]**.

لم تُجْد أساليب الخطاب مع مشركي مكة، ولم يكن نهارهم بأسعد حظًّا من ليلهم، فكلما فتح الحق بابًا كلما فتحت أمامه أبوابًا من الشر حتىٰ يأس الصلاح نفسه من إصلاحهم، فأبىٰ لين القول والدعوة إلىٰ الله ﷻ بالحكمة والموعظة الحسنة أن يكون مدخلاً إلىٰ هداية قلوبهم، فربما يتحقق الهدف عند تذكيرهم بحال من سبقوهم ممن كذَّبوا الرسل من الأمم السابقة قبلهم بأنهم علىٰ نهجهم سائرون وبآثارهم مقتفون، يؤكده التذييل في ختام الآية، وفي الوقت ذاته يطِّيب به ربُّنا ﷻ قلب النبي ﷺ ويُثَبِّته باسمين من أسمائه الحسنىٰ.

واسم الله الخبير عندما يتجاور مع اسمه البصير تزداد القلوب اطمئنانًا، فـ «حسبك يا محمد بالله خابرًا بذنوب خلقه عالمًا، فإنه لا يخفىٰ عليه شيء من أفعال مشركي قومك هؤلاء، ولا أفعال غيرهم من خلقه، وهو بجميع ذلك عالم خابر بصير، يقول: يبصر ذلك كله فلا يغيب عنه منه شيء، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا بأصغر من ذلك ولا أكبر»[1].

إذًا فمفردات العالم كله تنطق بأنه ﷻ «عالم بجميع المعلومات راء لجميع المرئيات فلا يخفىٰ عليه شيء من أحوال الخلق، وثبت أنه قادر علىٰ كل

(1) جامع البيان 17/ 407.

الممكنات فكان قادرًا علىٰ إيصال الجزاء إلىٰ كل أحد بقدر استحقاقه. وأيضًا أنه منزه عن العبث والظلم. ومجموع هذه الصفات الثلاث أعنىٰ العلم التام، والقدرة الكاملة، والبراءة عن الظلم بشارة عظيمة لأهل الطاعة، وخوف عظيم لأهل الكفر والمعصية»[1].

وبعد ذلك قم بزيارة هذا النص عند أهل التفسير فستجد ترجمة واضحة لهذا التذييل: «(وكفىٰ بربك) أي المحسن إليك بالعفو عن أمتك وأعقابهم من الاستئصال (بذنوب عباده) أي لكونه خلقهم وقَدَّر ما فيهم من جميع الحركات والسكنات (خبيرًا) من القدم، فهو يعلم السرّ وأخفىٰ، وأما أنتم فلستم هناك، فكم من إنسان كنتم ترونه من أكابر الصالحين، ثم أسفرت عاقبته عند الامتحان علىٰ أنه من أضل الضالين (بصيرًا) بها، إذا وقعت لا يخفىٰ عليه شيء منها، وأما أنتم فكم من شخص كنتم ترونه مجتهدًا في العبادة، فإذا خلا بارز ربَّه بالعظائم»[2].

فليحذر أهل المعاصي من غضب الخبير البصير ﷻ، فقد تكون النعمة بعدها نقمة، والحسن بعده سوء، لأن في كونه خبيرًا بصيرًا بذنوب عباده فيه «تهديد لهذه الأمة لكي يطيعوا الله ولا يعصوه فيصيبهم مثل ما أصابهم»[3].

فسبحانه وتعالى الخبير بالأمور الباطنة، والبصير «الذي يشاهد ويرىٰ حتىٰ لا يعزب عنه ما تحت الثرىٰ»[4].

**الدائرة الرابعة: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾**

يوم يشهد الحق بنفسه تنكشف الحجب ويتوارىٰ الباطل خجلاً وحياء، فترىٰ الأقلام التي طالما نسجت وسَطَّرت قصص الكذب والخداع والأساطير والخرافات

(1) مفاتيح الغيب 20/ 142.

(2) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي. تحقيق. عبد الرازق غالب المهدي 4/ 371 – دار الكتب العلمية – بيروت 1415هـ.

(3) تفسير السمرقندي 2/ 305.

(4) المقصد الأسني ص65.

في حالة مكاشفة مع نفسها فتعلن الخضوع و الاستسلام، وبعد أن كان الكذب مباحًا وبواحًا لم يجد له في ظل مركز هذه الدائرة بقاء وحياة، فتزول آثاره وتنقطع أخباره، فقد أيقنوا الآن أن الله ﷻ مطلع علىٰ جميع حركاتهم وسكناتهم، بل وشاهد يوم القيامة علىٰ جميع أقوالهم وأفعالهم حتىٰ يميز الخبيث من الطيب. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

وقد ختمت ثمان آيات بهذا العنوان علىٰ سبيل التذييل، وذلك للتأكيد علىٰ ثلاث حقائق، كل حقيقة منها تصل قطر الدائرة بمركزها، فتثبِّت الحق في قلوب المؤمنين الصالحين، وتنزعه من قلوب الكافرين والمنافقين، فترىٰ هذه المشاهد حيَّة تنطق بلسان الحال واليقين أن الحقَّ حقٌّ والباطل باطل ولو كره المشركون نكتفي بذكر آية في كل قطر منها.

**القطر الأول: رسالة النبي الخاتم محمد ﷺ**

قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [**النساء: 79**] وينظر: [**الرعد: 43، والإسراء: 96، والفتح: 28**].

الليل والنهار من الثوابت في كون الله ﷻ لا يتخلف أحدهما عن الآخر بل يتعاقبان دائمًا، والشمس والقمر كل منهما يجري في مداره، لا ينكر ذلك أحد ولا يجادل مجادل، فكذلك رسالة النبي الخاتم محمد ﷺ، فهي آية صدق وحقّ ويقين علىٰ أرض الواقع، والتذييل في ختام الآيات بيِّنة وحجة علىٰ عباد الله ﷻ لا مجال فيه للتزوير أو التلفيق، فـ «(كفىٰ بالله شهيدًا) علىٰ أنك رسول الله حقًّا بما أيدك بنصره والمعجزات الباهرة والبراهين الساطعة، فهي أكبر شهادة علىٰ الإطلاق، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ﴾ [**الأنعام: 19**]، فإذا علم أن الله تعالىٰ كامل العلم، تام القدرة، عظيم الحكمة، وقد أيد الله رسوله بما أيده، ونصره نصرًا عظيمًا تيقَّن بذلك أنه رسول الله، وإلا فلو تقول عليه بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين، ثم لقطع منه الوتين»[1].

---

(1) تيسير الكريم الرحمن ص188.

وقد تأكَّدت هذه الشهادة بجميع المصادر، وذلك من خلال «شهادته بقوله وفعله وإقراره، أما قوله فبما أوحاه الله إلىٰ أصدق خلقه، مما يثبت به رسالته. وأما فعله فلأن الله تعالىٰ أيَّد رسوله ونصره نصرًا خارجًا عن قدرته وقدرة أصحابه وأتباعه، وهذه شهادة منه له بالفعل والتأييد، وأما إقراره فإنه أخبر الرسول عنه أنه رسوله، وأنه أمر الناس بإتباعه، فمن اتبعه فله رضوان الله وكرامته، ومن لم يتبعه فله النار والسخط، وحلَّ له ماله ودمه والله يقرّه علىٰ ذلك، فلو تقول عليه بعض الأقاويل لعاجله بالعقوبة»[1].

إذًا فالله ﷻ يشهد بأن محمدًا ﷺ نبي مرسل بلغ الرسالة وأدَّىٰ الأمانة مهما علا صوت الباطل ووجد من يهتف له ويدافع عنه (وكفىٰ بالله شهيدًا).

و(الشهيد) من أسماء الله ﷻ و «معناه: الرقيب عليكم المطلع علىٰ أفعالكم، السامع لأقوالكم. سبحانه لا تخفىٰ عليه خافية»[2].

وقيل: «الشهيد: يرجع معناه إلىٰ العليم مع خصوص إضافة، فإنه تعالىٰ عالم الغيب والشهادة، والغيب عبارة عما بطن، والشهادة عبارة عما ظهر، وهو الذي يشاهد. فإذا اعتبر العلم مطلقًا فهو العليم. وإذا أضيف إلىٰ الغيب والأمور الباطنة فهو الخبير، وإذا أضيف إلىٰ الأمور الظاهرة فهو شهيد، وقد يعتبر مع هذا أن يشهد علىٰ الخلق يوم القيامة بما علم وشاهد منهم»[3].

فالشهيد إذًا: هو الشاهد علىٰ ما تصدره الحواس من أقوال وأفعال، وما تُسَطِّره العقول من آراء وأفكار تترجمها القلوب علىٰ أرض الواقع، وخاصَّة الباطن منها، والتذييل به دليل صدق ويقين علىٰ حقيقة النبوة المحمدية التي أضاء الله ﷻ بها المشرق المغرب.

(1) السابق ص420.

(2) ولله الأسماء الحسنىٰ فادعوه بها. أحمد عبدالجواد ص136 - دار الريان للتراث - القاهرة.

(3) المقصد الأسني ص96.

**القطر الثاني: نزول القرآن الكريم علىٰ النبي الخاتم ﷺ**

قال الله تعالىٰ: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ **[النساء: 166]**. وينظر: **[العنكبوت: 52، والأحقاف: 8]**.

قديمًا تحدَّىٰ القرآن الكريم أساطين البلاغة وأرباب الفصاحة والبيان فعضوا علىٰ أناملهم دلالة علىٰ عجزهم وضعفهم أمام إعجازه، وحديثًا صرخت وسائل الإعلام بكثير من الحقائق العلمية والاكتشافات البشرية متناسين أن الله ﷻ قد سطرها في كتابه وأوحىٰ بها إلىٰ نبيه محمد ﷺ وشهد له بذلك منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا، وأعجزهم كما أعجز من كان قبلهم. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

ويُدير المؤشر قطر هذه الدائرة تجاه مركزها فيصل كتابه الكريم بالشهادة له بأنه منزل علىٰ خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ، فـ «الله يشهد بتنزيله، إليك ما أنزل من كتابه ووحيه، أنزل ذلك إليك بعلم منه بأنك خِيرَته من خلقه، وصفيه من عباده ... فلا يحزنك تكذيب من كذَّبك وخلاف من خالفك»[1].

فإذا نطق الله ﷻ بالشهادة تطايرت أمامها جميع صحف الناطقين بخلافها، فيطيب الرسول ﷺ بذلك نفسًا، فـ «حسبك بالله شاهدًا علىٰ صدقك دون ما سواه من خلقه، فإنه إذا شهد لك بالصدق ربك، لم يَضْرك تكذيب من كذَّبك ...»[2].

**القطر الثالث: عبادة غير الله ﷻ**

قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ **[يونس: 28، 29]**.

لسان المرء في حياته دليل صدق وكذب، وعنوان حقّ وباطل، ورمز هدىٰ وضلالة، ولكن تنزع منه يوم القيامة علامات الرياء والنفاق، وأمارات الكذب

---

(1) جامع البيان 9/ 409.

(2) السابق الجزء نفسه والصفحة.

والبهتان، ولم يبق له إلا عالم الصدق والحق والهدىٰ الذي سكن فيه قسرًا لا تطوعًا واختيارًا.

فإذا كانت آراؤكم في الدنيا قد تشعبت، وأهواؤكم قد تعددت فأنكرتم توحيد ربكم وأشركتم به، فما عبدتم من دونه يوم القيامة يتبرأ منكم «فالملائكة الكرام والأنبياء والأولياء ونحوهم يتبرؤون ممن عبدهم يوم القيامة ويتنصلون من دعائهم إياهم إلىٰ عبادتهم وهم الصادقون البارُّون في ذلك، فحينئذ يتحسر المشركون حسرة لا يمكن وصفها، ويعلمون مقدار ما قدموا من الأعمال، وما أسلفوا من رديء الخصال، ويتبين لهم يومئذ أنهم كانوا كاذبين، وأنهم مفترون علىٰ الله، قد خلت عبادتهم، واضمحلت معبوداتهم، وتقطعت بهم الأسباب و الوصائل»[1].

فلإنسان قد يبيح لنفسه الكذب في الدنيا، ويعتقد أن لغة الحيلة والمراوغة قد تجدي يوم القيامة فيشرك بالله ﷻ معتقدًا أنه والحقّ قرناء، فتنطق جميع مخلوقات الله التي عبدوها بهذا التذييل الرائع الذي يدرأ كل حجة، ويدفع كل مقولة «الله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلىٰ عبادتنا، ولا أمرناكم بها، ولا رضينا منكم بذلك. وفي هذا تبكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ممن لا يسمع ولا يبصر، ولا يغني عنهم شيئًا، ولم يأمرهم بذلك ولا رضي به ولا أراده، بل تبرأ منهم في وقت أحوج ما يكونون إليه، وقد تركوا عبادة الحي القيوم، السميع البصير، القادر علىٰ كل شيء، العليم بكل شيء. وقد أرسل رسله وأنزل كتبه، آمرًا بعبادته وحده لا شريك له، ناهيًا عن عبادة ما سواه كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ **[النحل: 36]**»[2].

ومع ختام هذا القطر الثالث تكتمل خيوط هذه الدائرة، وتستوفي جميع أركانها في نسيج بديع يبدأ برسالة النبي الخاتم محمد ﷺ، وكذلك نزول القرآن

(1) تيسير الكريم الرحمن ص362.

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 4/ 265 - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولىٰ 1416هـ-1996م.

الكريم عليه، ثم إتباع الشيطان وعبادة غيره ﷻ من المشركين به، وفي كل ذلك الله عالم بحال عباده شاهد لنبيه ﷺ، فهو ﷻ «العليم بظواهر الأمور وبواطنها علىٰ أتم وجه وأكمله ... أحاط علمًا بالمرئيات والمسموعات والمعقولات والمعنويات وما وراءها من الأسرار المستكنة في القلوب وفي غياهب الغيوب، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ... ويطلق اسم الشهيد أيضًا علىٰ الشاهد المقرّ بما رأىٰ وسمع، وعليه يكون الشهيد من أسماء الله: هو الذي يسمع ويرىٰ ويثبت لعبده ما علمه منه؛ ليجزيه به»[1].

**الدائرة الخامسة: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾**

لينظر كل مسلم إلىٰ مركز هذه الدائرة نظرة إجلال وتقدير بل قل نظرة إذعان وتسليم لله ﷻ (العليم) الذي يمنح الثقة لأوليائه الذين يرفعون كلمة التوحيد في كل زمان ومكان، ويجعلون الإسلام تاجًا فوق رءوسهم وفي قلوبهم، يدفعهم إلىٰ كل خير، ويقف صدًّا منيعًا بينهم وبين كل شرٍّ، فتنحني العقول والقلوب أمام علمه الذي يحيط به كل الوجود، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ولم يمر بمركز هذه الدائرة سوىٰ قطر واحد عنوانه (الطاعة الكاملة لله ورسوله ﷺ)، فتقرُّ بذلك أعين المؤمنين، ويحيون بذلك في عالم النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ **[النساء: 69، 70].**

قد يفقد الإنسان منَّا الحياة وما زالت جميع أعضائه تعمل بصورة منتظمة فيحمل سمات الأحياء وقد انتهىٰ أجله منذ زمن بعيد، فيعيد إليه هذا العنوان آمالاً

(1) شرح أسماء الله الحسنىٰ آثارها وأسرارها ص206، 207.

فقدها في ماضيه، ويتمنَّىٰ تحقيقها في حاضره ومستقبله، فيبعث الله ﷻ إليه بهذه الرسالة التي تعيد إليه الحياة فتسكن جميع آلامة، فإلىٰ «كل من أطاع الله ورسوله علىٰ حسب حاله وقدر الواجب عليه من ذكر أو أنثىٰ وصغير وكبير (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم) أي: النعمة العظيمة التي تقتضي الكمال والفلاح والسعادة (من النبيين) الذين فَضَّلهم الله بوحيه، واختصهم بتفضيلهم بإرسالهم إلىٰ الخلق ودعوتهم إلىٰ الله تعالىٰ (والصديقين) وهم الذين كمل تصديقهم بما جاءت به الرسل، فعلموا الحق وصدقوه بيقينهم، وبالقيام به قولاً وعملاً وحالاً ودعوة إلىٰ الله (والشهداء) الذين قاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله فقتلوا (والصالحين) الذين صلح ظاهرهم وباطنهم فصلحت أعمالهم، فكل من أطاع الله تعالىٰ كان مع هؤلاء في صحبتهم ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ بالاجتماع بهم في جنات النعيم والأنس بقربهم في جوار رب العالمين (ذلك الفضل) الذي نالوه (من الله) فهو الذي وفقهم لذلك وأعانهم عليه، وأعطاهم من الثواب مالا تبلغه أعمالهم»[1].

فقد يُقَدِّر الناس في الدنيا أعمال المطيعين لله ورسوله ﷺ فتوزن بميزان من ذهب، وقد يخطئون التقدير فيأتي هذا التذييل من أجل إعلاء كلمة الحق وإبطال جميع صور الباطل (وكفىٰ بالله عليمًا).

ف «العليم معناه ظاهر وكماله: أن يحيط علمًا بكل شيء: ظاهره وباطنه، دقيقه وجليله، أوله وآخره، عاقبته وفاتحته. وهذا من حيث الوضوح والكشف علىٰ أتم ما يمكن فيه بحيث لا يتصور مشاهدة وكشف أظهر منه. ثم لا يكون مستفادًا من المعلومات، بل تكون المعلومات مستفادة منه»[2].

والنص القرآني قد أضاف إلىٰ هذا المفهوم دلالات أخرىٰ من الحفظ والإحصاء والجزاء، ف «حسب العباد بالله الذي خلقهم «عليمًا» بطاعة المطيع منهم ومعصية العاصي، فإنه لا يخفىٰ عليه شيء من ذلك، ولكنه يحصيه ويحفظه،

(1) تيسير الكريم الرحمن ص185.

(2) المقصد الأسني ص61.

حتىٰ يجازيهم جميعًا، جزاء المحسنين منهم بالإحسان، والمسيئين منهم بالإساءة، ويعفو عمن شاهد من أهل التوحيد»[1].

ولكن ما قيمة هذا التذييل في هذا النص وخاصة مع اسم الله العليم؟

هذا التذييل «له موقع عظيم في توكيد ما تقدم من الترغيب في طاعة الله تعالىٰ، لأنَّه تعالىٰ نَبَّه بذلك علىٰ أنه تعالىٰ يعلم كيفية الطاعة وكيفية الجزاء والتفضل، وذلك مما يرغِّب المكلف في كمال الطاعة والاحتراز عن التقصير فيه»[2].

فإن خفيت الحقائق وغابت البراهين عن أهل الدنيا فالله عليم بحال عباده، ولذلك كان هذا التعبير «للإشارة إلىٰ أن الذين تلبَّسوا بهذه المنقبة وإن لم يعلمهم الناس فإن الله يعلمهم والجزاء بيده فهو يوفيهم الجزاء علىٰ قدر ما علم منهم»[3].

ففي التذييل باسم الله (العليم) دعوة إلىٰ إتباع منهجه واقتفاء آثار الصالحين، فجميع أعمال بني البشر مسطورة ومعلومة علم اليقين عند خالقها ﷻ الذي «يحيط بحقائق الأشياء ووقائعها ومكوناتها وأسرارها وآثارها، وصلة بعضها ببعض، وتأثير بعضها في بعض ومدىٰ ما بينها من تقارب وتباعد»[4].

**الدائرة السادسة:** ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾

لم يكتف مركز هذه الدائرة باسم واحد فقط من أسمائه الحسنىٰ بل جاء جامعًا بين اسمين الأول منهما رافعًا لواء الهداية، ثم يأتي الثاني بعنوان (النصر والتأييد)، اندمج كل منهما في الآخر اندماج الشبيه بالشبيه والنظير بالنظير مع اختلاف الدلالة بينهما حتىٰ تكتمل صورة الحقّ وتتضح رؤيته فتزداد الثقة في الله و في النفس.

---

(1) جامع البيان 8/ 535، 536.

(2) مفاتيح الغيب 11/ 141.

(3) التحرير والتنوير 5/ 116.

(4) أسماء الله الحسنىٰ آثارها وأسرارها ص84.

فقد تشرق الشمس في مكان وتغيب في نفس المكان، وكذلك ضوء القمر، وهي رسالة للأنبياء وأصحاب الرسالات بأن دعوتهم إلىٰ الحق تبعث الآمال دائمًا في قلوب الصالحين فتشرق بنور المعرفة واليقين، خلاف مَنْ يأبىٰ إلا أن يحيا في ظلام الجهل والضلال.

و (عداوة الأنبياء والمرسلين) هو عنوان هذا القطر الوحيد الذي يمر بمركز هذه الدائرة، والذي يعلن عن نفسه في كل زمان ومكان ما دامت في الحياة حياة.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ **[الفرقان: 31]**.

ما من صاحب رسالة إلا ويقف في وجه دعوته سفهاء يخيل للرائي أنهم ينظرون ولكنهم لا يبصرون، يضعون أيديهم في آذانهم إعراضًا عن سماع الحق حتىٰ ولو تمثَّل لهم الحقُّ جسدًا بشريًّا ماثلاً بين أيديهم تبصره أعينهم، لا يكتفون بذلك بل يمثِّلون معاول هدم لكل قيمة يزرعها الأنبياء في قلوب أتباعهم، ولكن الله ﷻ يكفي أنبياءه مكر هؤلاء وكيدهم بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

فالرسول ﷺ يتألم ويحزن من عدم إيمان قومه، ويزداد ألمه من هجرهم كتاب ربهم، فيبعث بألمه وحزنه وشكواه إلىٰ ربه ومولاه: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ **[الفرقان: 30]**، فيكشف الله عنه الغمَّة بقوله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ﴾ «أي: كما حصل لك -يا محمد- في قومك من الذين هجروا القرآن، كذلك كان في الأمم الماضيين؛ لأن الله جعل لكل نبي عدوًّا من المجرمين، يدعو الناس إلىٰ ضلالهم وكفرهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ **[الأنعام: 112، 113]**»[1].

---

(1) تفسير القرآن العظيم 6/ 109.

فهذه رسالة الله إلىٰ نبيه ﷺ حتىٰ يعلم أن هذه هي لغة المكذِّبين في كل زمان، «والمعنىٰ: لا يكبرن عليك ذلك فإن الأنبياء قد لقوا هذا من قومهم»[1].

وقد أهدىٰ الله ﷻ إلىٰ نبيه محمد ﷺ هذا التذييل البديع في ختام الآية بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

فـ «من أسماء الله تعالىٰ سبحانه: الهادي؛ قال ابن الأثير: هو الذي بَصَّر عباده وعرَّفهم طريق معرفته حتىٰ أقرُّوا بربوبيته، وهَدَىٰ كل مخلوق إلىٰ ما لابد منه في بقائه ودوام وجوده»[2].

أو هو «الذي هدىٰ خواصّ عباده أولاً إلىٰ معرفة ذاته حتىٰ استشهدوا بها علىٰ معرفة ذاته، وهدىٰ عوام عباده إلىٰ مخلوقاته حتىٰ استشهدوا بها علىٰ ذاته ...»[3].

والنصير: هو الموثوق منه بأن لا يُسْلِم وليه ولا يخذله[4]، وقد نَصَرَه ينصره نصرًا: إذا أعانه علىٰ عدوه وشَدَّ منه[5].

وعلىٰ ذلك يتم توجيه الآية نحو هذه الدلالة، حيث «يقول تعالىٰ ذكره لنبيه: وكفاك يا محمد بربك هاديًا يهديك إلىٰ الحق، ويبصرك الرشد، ونصيرًا: يقول: ناصرًا لك علىٰ أعدائك، يقول: فلا يهولنك أعداؤك من المشركين، فإني ناصرك عليهم، فاصبر لأمري، وامض لتبليغ رسالتي إليهم»[6].

وليست هذه الهدية خاصة بالنبي ﷺ فقط بل هي منحة لأمته جميعًا، «﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ أي: لمن اتبع رسوله، وآمن بكتابه وصدقه واتبعه، فإن الله هاديه وناصره في الدنيا و الآخرة»[7].

---

(1) تفسير الخازن 5/ 100.

(2) لسان العرب (هـ د ي) 6/ 4638.

(3) المقصد الأسني ص116.

(4) المفردات ص495.

(5) لسان العرب (ن ص ر) 6/ 4440.

(6) جامع البيان 19/ 265.

(7) تفسير القرآن العظيم 6/ 109.

وقد نتساءل عن ضم اسمه النصير مع اسمه الهادي في هذه العبارة، والجواب: «وإنما قال (هاديًا ونصيرًا) لأن المشركين كانوا يصدون الناس عن إتباع القرآن، لئلا يهتدي أحد به، ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن، فلهذا قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [**الفرقان: 31**]»[1].

فالله ﷻ هو الذي يهدي ويرشد عباده إلىٰ جميع المنافع، وإلىٰ دفع المضارّ، ويعلمهم مالا يعلمون، ويهديهم الهداية والتوفيق والتسديد، ويلهمهم التقوىٰ، ويجعل قلوبهم منيبة إليه، منقادة لأمره، نصير لهم ليس كنصر المخلوق ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [**الشورىٰ: 11**][2].

**الدائرة السابعة: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾**

سخَّر بعض الناس طاقاتهم لخدمة الدين وإعلاء شأنه فانحنت لهم كل معالم الفضيلة، ورضيت عنهم كل رموز الأخلاق، فسعدت بهم السماء كما سكنت لهم الأرض، في حين ابتكر غيرهم الضلال بشتىٰ صوره ومختلف أشكاله، فحاولوا بتر النهار قبل أن يسطع ضوؤه، وقتل الموءودة قبل أن تفصح عن نفسها، وتشويه نسمات الإيمان التي تعانق القلوب فأعقبهم الذل والصغار، فأبىٰ الحق أن يؤانس وحدتهم، فعبثت في وجوههم السماء، كما اهتزت بهم الأرض حتىٰ كادت أن تبتلعهم في باطنها لولا تثبيت الله ﷻ لها.

ولكن لم يكن الله ﷻ ليدع الصالحين من عباده يرتمون في أحضانهم ويتسربلون بعباءتهم، فقذف الله في قلوبهم مركز هذه الدائرة، كسبيل لكل ضالّ، وراحة لكل متعب ومجهد، وأمان لكل خائف .﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

ومركز هذه الدائرة يمر به ستة أقطار، يُشَرِّق كل قطر منها ويُغَرِّب، تصعقه الحوادث، وتدار له المكائد والمؤامرات حتىٰ ينحرف عن مساره، ولكنه يهتدي

(1) السابق الجزء نفسه والصفحة.
(2) ينظر: شرح أسماء الله الحسنىٰ ص140، 224.

بلطف ربه ورحمته إلىٰ بابه ورضوانه الذي تسكن إليه الجوارح والقلوب، ولا يخيب عنده الرجاء ولا تنقطع عنده الآمال.

**القطر الأول: إعلان كلمة التوحيد**

قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ **[النساء: 132]**.

في كنف الله ورعايته كل مَنْ يرفع راية التوحيد ويعلن الولاء والبراء، مهما كانت قوة وبطش الخارجين عن طاعته الصادِّين عن سبيله، فالأرض أرضه والسماء سماؤه والملك ملكه والخلق خلقه، وفي ذلك تثبيت لقلوب المؤمنين الموحِّدين.

ثم يأتي التذييل لتأكيد هذه الحقيقة وإزالة كل لبس ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، كما «قال ابن عباس: يعني شهيدًا علىٰ أنَّ له فيهن عبيدًا. وقيل معناه: وكفىٰ بالله دافعًا ومجيرًا ... وكفىٰ بالله وكيلاً: أي فتوكَّلوا عليه ولا تتوكلوا علىٰ غيره فإنه المالك لما في السموات والأرض»[1].

أو: «هو القائم علىٰ كل نفس بما كسبت، الرقيب الشهيد علىٰ كل شيء»[2].

**القطر الثاني: حقيقة عيسىٰ بن مريم**

قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ **[النساء: 171]**.

عن طريق نفي الشبهات والأباطيل وإيراد الحقائق والثوابت ثم الخروج بالنتائج والتوصيات يأتي التفصيل الكامل في هذه الآية الكريمة، فيبدأ الحوار بالنهي الأول في توجيه أهل الكتاب بقوله تعالىٰ ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِي دِينِكُمْ﴾، ثم يأتي النهي الثاني بقوله ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ﴾، ثم تقرير الحقائق في قوله: ﴿إِنَّمَا

(1) تفسير الخازن 1/ 608.

(2) تفسير القرآن العظيم 2/ 431.

﴿ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾، وأما التتويج بالنتائج فيأتي في قوه: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾، وثانيًا في قوله: ﴿وَلا تَقُولُوا عَلَىٰ اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾، وثالثًا في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾، ورابعًا في قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾.

والتذييل في ختام الآية يؤكد تلك النتائج ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

والوكيل قد تتجه دلالته في النص نحو الدلالة اللغوية، فهو ﷻ «كاف في تدبير خلقه فلا حاجة له إلىٰ غيره، وكل الخلق محتاجون إليه وفقراء إليه وهو غني عنهم»[1].

أو قد تكون الدلالة مجازية، فيصبح (الوكيل)، شهيدًا عليهم، فـ «هو وكيل علىٰ كل شيء، فكيف يكون له منهم صاحبة أو ولد؟ كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ **[الأنعام: 101]**»[2].

فهما كثر الخارجون عن وجه الحق والناصرون لوجه الباطل فلا تخش أحدًا إلا الله، فالله هو الكفيل بأرزاق عباده والشهيد عليهم.

**القطر الثالث: ادعاء الطاعة لله والرسول ﷺ**

قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ **[النساء: 81]**.

تبتسم الحياة في وجوه وقلوب الصاحين الذين يحتكمون إلىٰ منهج ربهم وهدىٰ نبيهم محمد ﷺ، حتىٰ تكاد الملائكة أن تصافحهم في طرقاتهم، ولكن قلوب المنافقين أبىٰ ضوء الإيمان أن يبزغ فيها، فبيَّتوا خداع الرسول ﷺ أو قل

(1) تفسير الخازن 1/ 628.

(2) تفسير القرآن العظيم 2/ 480.

خداع أنفسهم، وذلك بأن أظهروا الولاء والطاعة إذا كانوا في حضرته، ولكنهم إذا خلوا إلىٰ أنفسهم وتركوا مجالسته عادت إليهم طبيعتهم التي تحمل العداء بكل ألوانه وصوره، فكشف الله ﷻ سترهم أمام نبيه، ويوم القيامة يفضحهم علىٰ رءوس الخلائق فتغتال آمالهم وأحلامهم، حيث تصبح صحيفة أعمالهم كتابًا مقروءًا ومسطورًا أمام أعينهم.

ومن أجل دفع خطر هؤلاء المنافقين وتثبيت قلب النبي ﷺ يصدر ربنا ﷻ ثلاثة قوانين خاتمًا إياها بالتذييل تبدأ بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ﴾ ثم ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ ثم ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾: «أي كفىٰ بالله وليًا وناصرًا ومعينًا لمن توكل عليه وأناب إليه»[1].

**القطر الرابع: حفظ الله ﷻ عباده المؤمنين**

قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا﴾ **[الإسراء: 64، 65].**

اهتزت عروش كثير من كبار الملوك والأمراء أمام صولات الشيطان وجولاته، وتوافد كثير من أبناء الجنسيات المختلفة أمام وجباته التي قَدَّمها لهم من صوته وخيله ورجله ومشاركتهم في الأموال والأولاد والوعد والأماني[2]، ولكنه فقد كل أدواته وسلَّم جميع أوراقه في عالم الصالحين، حيث لا سلطان له عليهم بل حفظ الله ورعايته ونصره لهم «(وكفىٰ بالله وكيلاً): أي حافظًا ومؤيِّدًا ونصيرًا»[3].

---

(1) السابق 2/ 364.

(2) ينظر تفسير دلالات هذه الألفاظ في: معاني القرآن للفراء 2/ 127، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج 3/ 250، والجامع لأحكام القرآن 10/ 287: 289.

(3) السابق 5/ 95.

**القطر الخامس: التوكل علىٰ الله وعدم طاعة الكافرين والمنافقين**

قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ **[الأحزاب الآيات 1-3]**.

ليس ما يعانيه المسلمون في العصر الحديث من اضطهاد في كل مكان وليد اللحظة، وإنما هو نتاج من حرب أقرَّها المشركون قديمًا وأعلنوها أمام سمع الدنيا وبصرها، وبذلوا الغالي والنفيس في سبيل تحقيقها، حتىٰ وصل الأمر بهم في هذا المقام أن عرض أبو سفيان وجماعة معه علىٰ رسول الله ﷺ ألا يذكر آلهتهم بسوء وأن لها شفاعة ومنفعة لمن عبدها فأمر بإخراجهم من المدينة[1].

ثم يأتي التذييل الذي يدفع مكر هؤلاء ويرد كيدهم «(وكفىٰ بالله وكيلاً): يعني حافظًا لك، وقيل: كفيل برزقك»[2].

فالله ﷻ وكيل: «لمن توكل عليه وأناب إليه»[3].

**القطر السادس: التأكيد علىٰ المبدأ الخامس**

قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ **[الأحزاب: 48]**.

حرصًا علىٰ سلامة النبي ﷺ وحفاظًا عليه من كيد الكافرين والمنافقين وجَّه الله ﷻ له رسالة سابقة أعلنها القطر الخامس، واستمرارًا في الحفاظ عليه أعلنها القطر السادس توكيدًا لها، فمهما حاول دعاة السوء الترويج لبضاعتهم والتسويق لها فالله ﷻ حافظٌ لك، (وكفىٰ بالله وكيلاً) فـ «كل أمرهم إلىٰ الله، فإن فيه كفاية لهم»[4].

---

(1) ينظر السبب في نزول الآيات في الكشف والبيان 8/ 5، 6.

(2) تفسير الخازن 5/ 229.

(3) تفسير القرآن العظيم 6/ 375، 376.

(4) السابق 6/ 437.

وهذه دعوة للإنس بالله وحده دون غيره، ولهذا قال: «(وتوكل علىٰ الله) أمره بالتوكل عليه وآنسه بقوله: (وكفىٰ بالله وكيلاً) وفي قوة الكلام وعد بنصر، والوكيل: الحافظ القائم علىٰ الأمر»[1].

وعلىٰ ذلك فحبات اللؤلؤ قد انتظمت عقدًا واحدًا، والأقطار الستة قد التقت حول مركز الدائرة (وكفىٰ بالله وكيلاً)، فالمسلم عندما يقرُّ بكلمة التوحيد يعترف بحقيقة عيسىٰ بن مريم عليه السلام وما أثبته الله له دون مغالاة أو تحريف، وأما من ادعوا السمع والطاعة فالله يحفظ عباده المؤمنين منهم، والسلامة من كل إثم والفوز بكل برّ يأتي من خلال التوكل علىٰ الله وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، وفي التأكيد علىٰ هذا المبدأ دعوة إلىٰ اتباعه وتحريض عليه مهما ظهر الباطل وقوىٰ أمره فالله ﷻ هو الوكيل «الذي تُفوض إليه أمور خلقه لأنه كافيهم والقائم علىٰ تدبير مصالحهم والكفيل لهم بالرزق والشهيد عليهم»[2].

**الدائرة الثامنة:** ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾

ليتك تطمئن أيها المؤمن وتثق بوعد الله ونصره لك، فمهما علا صوت الباطل وارتفعت به الحناجر فسوف يغيب شمسه وينهدم بنيانه، فما عليك إلا أن تعتصم باسم الله الولي ثم باسمه النصير في دائرة مركزها ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾، وذلك في مواجهة الباطل أمام (استبدال الهدىٰ بالضلالة) والذي يمثل عنوان القطر الوحيد لها.

قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ۝٤٤ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ **[النساء: 44، 45].**

تُجَسِّد الآية الأولىٰ حال اليهود الذين لا يكتفون بإنكار الرسالة المحمدية مع علمهم بصدقها وصدق من جاء بها ولكنهم يدعون المؤمنين لاتباع سبيلهم، ولكن

(1) الجامع لأحكام القرآن 14/ 201.

(2) ولله الأسماء الحسنىٰ ص143.

الله ﷻ في الآية الثانية أظهر كذبهم من خلال علمه بحالهم حتىٰ تطمئن قلوب عباده المؤمنين «وفي ضمنه تحذير عباده من الاغترار بهم، والوقوع في أشراكهم»[1].

ثم يأتي التذييل باسمىٰ الله الولي والنصير حتىٰ تنهار شعارات الباطل ويختفي ظلامه أمام إسفار الصبح، «فالولي جل جلاله: ومعناه مالك التدبير المتولي أمور عباده وأوليائه، فهو وليهم ومولاهم، وناصرهم وراحمهم»[2].

واسمه النصير يقترب من الدلالة نفسها، فلم هذا التكرار، فـ «ولاية الله لعبده عبارة عن نصرته له، فذكر النصير بعد ذكر الولي تكرارًا. والجواب: أن الولي المتصرف في الشيء، والمتصرف في الشيء لا يجب أن يكون ناصرًا له فزال التكرار»[3].

وأما عن السؤال عن «لِمَ لَمْ يقل: «وكفىٰ بالله وليًّا ونصيرًّا»؟ وما الفائدة في تكرير قوله: (وكفىٰ بالله) والجواب: أن التكرار في مثل هذا الختام يكون أشد تأثيرًا في القلب وأكثر مبالغة»[4].

فالتوجيه إذًا صريح لا يحتمل التأويل «فإنه يقول: فبا لله، أيها المؤمنون، فثقوا، وعليه فتوكلوا، وإليه فارغبوا دون غيره، يكفيكم أمركم، وينصركم علىٰ أعدائكم (وكفىٰ بالله وليًّا) يقول: وكفاكم وحسبكم بالله ربكم وليًّا يليكم ويلي أمركم بالحياطة لكم، والحراسة من أن يستفزَّكم أعداؤكم عن دينكم، وعلىٰ من بغاكم الغوائل، وبغىٰ دينكم العَوَج»[5].

وعلىٰ ذلك فاستبدال الهدىٰ بالضلالة لا محل له في دائرة مركزها (وكفىٰ بالله وليًّا وكفىٰ بالله نصيرًا).

---

(1) تيسير الكريم الرحمن ص180.
(2) ولله الأسماء الحسنىٰ ص149.
(3) مفاتيح الغيب 10/ 94.
(4) السابق الجزء نفسه والصفحة.
(5) جامع البيان 8/ 429، 430.

# الخاتمة

قام الباحث بتسطير هذه الصفحات في رصد جانب من جوانب الدلالة وبيان أثره في وسط وختام الآيات، ثم عايش آراء المفسرين التي تتنوع ولكنها لا تختلف في أية حالة من الحالات، ثم عجب وازداد عجبًا عندما رأىٰ هذا الإعجاز في مدىٰ دقة التناسب والتوافق بين بداية النص وخاتمته وكأنه زهرة في رياض الجنَّات، لكل موقف سياقه الذي يتعايش مع أهدافه ويحجب ما عداه من الدلالات، فلا تجد ذلك إلا في القرآن الكريم الذي أنزله رب العباد علىٰ محمد ﷺ من فوق سبع سموات.

ومع هذه العناوين البرقية يمكن تقديم بعض الثمرات التي أنتجتها هذه الدراسة: -

1- رصدت الدراسة ثماني دوائر بيانية في (كفىٰ بالله) في القرآن الكريم، قد تستخدم الدائرة اسمًا واحدًا من أسماء الله الحسنىٰ أو اسمين، وذلك بما يتوافق ويتواءم مع أقطارها السبعة عشر التي أنتجتها، وذلك في اثنتين وعشرين آية قرآنية.

2- تأتي دلالة (كفىٰ بالله) في القرآن الكريم إما لتثبيت قلب النبي ﷺ خاصَّة، أو قلوب المؤمنين عامَّة، وذلك في مواجهة الباطل باختلاف أشكاله وألوانه.

3- قد تأتي أسماء الله الحسنىٰ بدلالتها اللغوية في النصِّ القرآني، وقد تخرج إلىٰ دلالة مجازية بسبب ما يوحي وما يحيط به من ظروف وملابسات فتتفوق بعض الدلالات علىٰ الأخرىٰ، وقد يصيبها جانب التخصيص، وقد تجتمع الدلالتان دون ترجيح لأحدهما علىٰ الآخر.

4- قد تتفق بعض أسماء الله الحسنىٰ مع بعضها الآخر في الدلالة العامة ولكن مع وجود جانب التخصيص في كل منها، وذلك كما في اسم الله العليم والخبير والشهيد، فإذا اعتبر العلم مطلقًا فهو العليم، وإذا أضيف إلىٰ الغيب والأمور الباطنة فهو الخبير، وإذا أضيف إلىٰ الأمور الظاهرة فهو الشهيد.

5- قد يأتي مركز الدائرة الواحدة باسمين من أسماء الله الحسنىٰ يبدو وجود التقارب الدلالي بينهما، ولكن أثر الجمع بينهما يدركه من يُقَلِّب الصفحات في شرح هذه الأسماء فلا يلحظ أن فيها تكرارًا، كما في الولي والنصير، فالولي هو المتصرف في الشيء، والمتصرف في الشيء لا يجب أن يكون ناصرًا له فزال التكرار.

6- تكتمل ملامح النص وتعرف أهدافه وغاياته ولكن يبقىٰ للتذييل أثره في التأكيد عليها بما يجعل المسلم دائمًا واثقًا من نصر الله وتأييده له.

7- دائمُا وأبدًا تنادي دوائر البيان في كل ساعة من ساعات الليل والنهار علىٰ من اتبع السُّبُل ونَهَج نَهْج الشيطان أن يعود إلىٰ سبيل ربه الرحيم الرحمن ﷻ.

8- محو آثار الهزيمة النفسية التي يمكن أن تلحق أصحاب الرسالات في مواجهة الباطل عند قراءة هذا العنوان (وكفىٰ بالله).

9- إذا كنت من الأوصياء علىٰ أموال اليتامىٰ فكفىٰ بالله حسيبًا، وإذا كنت من الدعاة إلىٰ الله فكفىٰ بربك بذنوب عباده خبيرًا، ومهما علا صوت الباطل وغابت شمس الحق فكفىٰ بالله وليًّا وكفىٰ بالله نصيرًا، إلىٰ آخر ما تفيض به الدوائر البيانية الثمانية.

10- إن تحقيق الأماني ليس بالتمنِّي ولكن بالعمل واليقين في (كفىٰ بالله)، والتي يكتفي بها العبد عن كل ما سواه فيهتدي إلىٰ طريق الحق والإيمان (وكفىٰ بربك هاديًا ونصيرًا).

وفي الختام فقد تختلف أسماء الأوطان، ويباعد بين بني البشر الزمان والمكان، ولكن يظل رباط العلم هو العروة الوثقىٰ التي تجمع بين الحاضر والبادي مع اختلاف الأشكال والألوان، فأرجو من إخواني تبصيري بعيوبي حتىٰ أقف علىٰ حقيقة أمري، وأسأله ﷻ العفو والمغفرة والهداية إلىٰ طريقه المستقيم.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ **[آل عمران: 8].**

# فهرس المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

(1) أسماء الله الحسنىٰ آثارها وأسرارها د. محمد بكر إسماعيل - دار المنار - الطبعة الأولىٰ 1421هـ-2000م.

(2) الإيضاح في علوم البلاغة. الخطيب القزويني. تحقيق. بهيج غزاوي - دار إحياء العلوم - بيروت 1419هـ-1998م.

(3) بحر العلوم للسمرقندي (تفسير السمرقندي) تحقيق د. محمود مطرحي - دار الفكر - بيروت.

(4) البحر المديد لابن عجيبة - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثانية 1423هـ-2002م.

(5) البرهان في علوم القرآن للزركشي. تحقيق. محمد أبو الفضل إبراهيم - دار الجيل - بيروت - لبنان - 1408هـ-1988م.

(6) التحرير والتنوير. محمد الطاهر بن عاشور - دار سحنون - تونس 1997م.

(7) تفسير ابن أبي حاتم. تحقيق. أسعد محمد الطيب - المكتبة العصرية - صيدا.

(8) تفسير القرآن العظيم لابن كثير - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولىٰ 1416هـ-1996م.

(9) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (تفسير السعدي) حققه. عبد الرحمن بن معلا - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولىٰ 1420هـ-2000م.

(10) جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري. تحقيق. أحمد محمد شاكر - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولىٰ 1420هـ-2000م.

(11) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) تحقيق. هشام سمير البخاري - عالم الكتب - الرياض - المملكة العربية السعودية 1423هـ-2003م.

(12) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب. عبد القادر البغدادي. تحقيق. محمد نبيل طريفي، إيميل بديع يعقوب - دار الكتب العلمية 1998م.

(13) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(14) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي - دار الكتب العلمية - 1402هـ- 1983م.

(15) شرح أسماء الله الحسنىٰ علىٰ ضوء الكتاب والسنة (توضيح وبيان) سعيد بن علي القحطاني - دار الإيمان - إسكندرية.

(16) علوم البلاغة (البيان والمعاني والبديع) د. أحمد مصطفىٰ المراغي- دار الآفاق العربية.

(17) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني - دار الفكر - بيروت.

(18) كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر) لأبي هلال العسكري. تحقيق. علىٰ محمد البجاوي محمد أبو الفضل إبراهيم - المكتبة العصرية - بيروت 1406هـ- 1986م.

(19) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري - دار الكتاب العربي.

(20) الكشف والبيان للثعلبي. تحقيق. أبي محمد بن عاشور - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان - 1422هـ-2003م.

(21) لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن) علاء الدين البغدادي - دار الفكر - بيروت - لبنان - 1399هـ-1979م.

(22) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل. تحقيق. عادل أحمد عبد الموجود وآخرين – منشورات محمد علي بيضون – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولىٰ 1419هـ–1998م.

(23) لسان العرب لابن منظور الإفريفي. تحقيق. علي عبد الله الكبير وآخرين – دار المعارف.

(24) مختصر المعاني. سعد الدين التفتازاني – دار الفكر – الطبعة الأولىٰ 1411هـ.

(25) المصباح المنير للفيومي – مكتبة لبنان.

(26) معاني القرآن للفراء. تحقيق. أحمد يوسف نجاتي، محمد علي النجار – الدار المصرية للتأليف والترجمة – الطبعة الثالثة 1403هـ–1983م.

(27) معاني القرآن وإعرابه للزجاج. تحقيق د. عبد الجليل شلبي – دار الحديث – القاهرة – الطبعة الثانية 1418هـ–1997م.

(28) معجم ألفاظ القرآن الكريم. مجمع اللغة العربية – الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث – القاهرة 1409هـ–1989م.

(29) المعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية – الطبعة الثالثة 1392هـ–1972م.

(30) مفاتيح الغيب للفخر الرازي – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولىٰ 1421هـ–2000م.

(31) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني – مكتبة الأنجلو المصرية 1970م.

(32) المفصل في علوم البلاغة العربية د. عيسىٰ علي العاكوب – دار القلم بالإمارات العربية المتحدة – دبي – الطبعة الثانية 1426هـ–2005م.

(33) المقصد الأسني في شرح أسماء الله الحسني للغزالي – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.

(34) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي. تحقيق. عبد الرازق غالب المهدي - دار الكتب العلمية - بيروت 1415هـ.

(35) ولله الأسماء الحسنىٰ فادعوه بها. أحمد عبد الجواد - دار الريان للتراث - القاهرة.

# فهرس الموضوعات

**المقدمة** ........ **9**

**التمهيد** ........ **13**

**الدائرة الأولىٰ:** وكفىٰ بالله حسيبًا ........ 16

**الدائرة الثانية:** وكفىٰ به بذنوب عباده خبيرًا ........ 22

**الدائرة الثالثة:** وكفىٰ بربك بذنوب عباده خبيرًا بصيرًا ........ 23

**الدائرة الرابعة:** وكفىٰ بالله شهيدًا ........ 25

**الدائرة الخامسة:** وكفىٰ بالله عليمًا ........ 30

**الدائرة السادسة:** وكفىٰ بربك هاديًا ونصيرًا ........ 32

**الدائرة السابعة:** وكفىٰ بالله وكيلاً ........ 35

**الدائرة الثامنة:** وكفىٰ بالله وليًّا وكفىٰ بالله نصيرًا ........ 40

**الخاتمة** ........ **43**

**فهرس المصادر والمراجع** ........ **45**

# قلوب المعرضين عن القرآن في القرآن

## «دلالات و حكم وأسرار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

# مُقَدِّمَة

الحمد لله ربِّ العالمين، صاحب الرَّحمات والبركات، المُنْعِم علىٰ خلقه بالعفو عن الذُّنوب والسَّيئات، منح قلوب المقبلين عليه نعمة التفكُّر والتدبُّر في قرآنه الكريم فهداهم إلىٰ صراطه المستقيم، ومنع منها قلوب المعرضين عنه فهداهم إلىٰ صراط الجحيم، والصَّلاة والسَّلام علىٰ صاحب العقل الرَّاجح والرأي الصَّائب والفكر الثَّاقب والقلب الحَيِّ محمد بن عبد الله ﷺ وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

**أما بعد:**

فإن اختلف الزَّمان والمكان واختلفت الوجوه والأقلام وتعدَّدت أصناف القلوب ومراميها فما يزال وجه الشَّبه قائمًا بين تلك الأجيال التي سجدت وسبَّحت بكل أعضائها لأصنام الهوىٰ وأتباع الغيِّ والضَّلال، فالليل ليل وإن بالغ الشُّعراء والكُتَّاب في وصف محاسنه وشمائله، وأُذُن الكبر وإن سمعت فهي لا تدرك غثَّ الكلام من فضائله، وعيون الجهل وإن نظرت فهي لا تبصر زور الكلام من حقائقه، ولسان الهوىٰ وإن نطق فهو أسير من أسارىٰ الكِبْر وباطله، وعقول الخارجين عن رحمة الله ﷻ -إن كانت عقولاً- فهي من السَّابحين في بحور الكلام الفاسد وغوائله، والمعرضون عن القرآن وإن اختلفت أسماؤهم وتعدَّدت أفكارهم فقلوبهم لا تسمع ولا ترىٰ ولا تنطق إلا بالباطل بشتىٰ مفاسده ومقاصده.

وقد خلق الله ﷻ قلوب بني البشر من أجل التفكُّر والتَّدبُّر والنَّظر في آياته ومنها القرآن الكريم، وأوجد فيها جميع مراتب الاستعداد والحِسِّ والتأمُّل، وأودع فيها من الخير ألوانًا وأشكالاً وأصنافًا شتىٰ، ولكن بعضها أبىٰ واستحوذ عليه الكِبْر والعُجْب وسيطرت عليه الشَّهوات والشُّبهات فأغلق باب الفقه والعلم والمعرفة فدفع

هذا الأمر دفعًا وردَّه ردًّا وحمل بيده معوله وكسر تمثال الفضيلة وأهان طبيعته البشريَّة فأصيب بداء الإعراض الذي لم يُجْد معه دواء ولا يرجىٰ له شفاء.

وقد استخدم القرآن الكريم عدَّة ألفاظ مختلفة للتَّعبير عن قلوب المعرضين عنه في عدَّة سياقات مختلفة تبدو درجة التَّشابه والتَّقارب بينها قويَّة للغاية في الدَّلالة وإن اختلفت الحروف والحركات، وهذا واقع لا يمكن إنكاره، وهذا ما جعل بعض المفسِّرين يفسِّرون اللفظ بالآخر دون أدنىٰ تفريق بينهما علىٰ أنَّ هذا الأمر من قبيل التَّرادف التَّام أو الكامل، وينصُّون علىٰ ذلك صراحة مثل تفسير الرَّان بالطَّبع والختم، والطَّبع بالختم والعكس كذلك، والإقفال بمعنىٰ الرَّين أو الختم أو القاسية أو الطَّبع وغير ذلك، والحقيقة أنَّه قد يكون المخاطب واحدًا في هذه السِّياقات المختلفة ولكن اختلاف المقام في كل صورة من حيث التَّوصيف الخاصِّ به والمغزىٰ والهدف يجعل لكل لفظة عالمها الخاص الذي تنفرد به، وبيتها الذي تأوي إليه، والذي لا يمكن أن تؤدَّىٰ الصورة كاملة بدونه، فالتَّقارب الدَّلالي جائز ولكن أن يتم التَّناوب بين اللفظين في سياق واحد لدلالة واحدة من جميع الوجوه فهذا خارج حدود المألوف والمعروف.

وهذه الصِّفات الخبيثة التي اتَّصفت بها هذه القلوب كلها صفات معنويَّة استعملها القرآن الكريم علىٰ سبيل المجاز لتجسيد صورة وحقيقة وجرم هؤلاء الذين ذهبت بهم الدُّنيا كل مذهب ففقدوا عالم الفضيلة بكل مثله وأخلاقه الرفيعة وانغمسوا في بحار الأخلاق الفاسدة فغابوا عن الوجود وإن كانت قلوبهم تنبض بالحياة خلافًا للإمام القرطبي الذي يرىٰ أنَّ هذه الصِّفات لا وجه فيها للتَّأويل علىٰ سبيل المجاز بل تستخدم في دائرتها الحقيقيَّة التي وضعت لها فيذكر بعض الأقوال ويعلِّق عليها عند شرحه للفظة (ختم) في سورة البقرة «قال مجاهد: القلب كالكَفِّ يقبض منه بكل ذنب إصبع، ثم يطبع. قلت: وفي قول مجاهد هذا، وقوله عليه السلام: «**إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد**

**الجسد كله ألا وهي القلب»**[1] دليل علىٰ أن الختم يكون حقيقيًّا، والله أعلم»[2].

وهذا البحث عنوانه (قلوب المعرضين عن القرآن في القرآن دلالات وحكم وأسرار) يعرض لهذه الفكرة ويؤكِّد عليها في تسعة أشكال، وذلك بحسب الترتيب الألفبائي المعروف بعد تمهيد عنوانه (قلوب المعرضين في الميزان) وفي الختام أهم النتائج.

وبهذه الصُّورة المنهجية وطبقًا للمنهج الإحصائي التحليليِّ تمَّ تصنيف وتوصيف هذا البحث.

**الشكل الأول:** ران القلوب.

**الشكل الثاني:** زيغ القلوب.

**الشكل الثالث:** صرف القلوب.

**الشكل الرابع:** طبع القلوب.

**الشكل الخامس:** غمرة القلوب.

**الشكل السادس:** قسوة القلوب.

**الشكل السابع:** أقفال القلوب.

**الشكل الثامن:** أكِنَّة القلوب.

**الشكل التاسع:** مرض القلوب.

فلكلمات القرآن الكريم دلالات وحكم وأسرار تراها عندما تحتضن العبارة في انسياب بديع وترتيب محكم تشعر معه بالتآلف والتَّراحم والتَّقارب فكأنَّك ما

(1) الحديث عن النعمان بن بشير. الجامع الصحيح المختصر. محمد بن إسماعيل البخاري. تحقيق د. مصطفىٰ ديب البغا 1/ 28 - باب فضل من استبرأ لدينه - كتاب الإيمان - دار ابن كثير - اليمامة - بيروت - الطبعة الثالثة 1407هـ-1987م.

(2) الجامع لأحكام القرآن. محمد بن أحمد القرطبي. تحقيق. هشام سمير البخاري 1/ 188 - دار عالم الكتب - الرياض - المملكة العربية السعودية 1423هـ-2003م.

قرأت كلامًا قبله ولن تقرأ كلامًا بعده، فلا حدود لإعجازه ولا مجال لإدراك جميع أسراره.

وبعد، فإنَّ صلاح هذه الأمَّة يعتمد علىٰ صلاح قلوبها، وإن تقدُّمها وعلو شأنها ورفعة مكانتها وريادتها وإمامتها وصدارتها مبدؤه فهم آيات الله البيِّنات وتطبيق ذلك واقعًا حيًّا، وأما ما أصيبت به بعض القلوب من العلل والأسقام والأمراض والإعراض فغايته الهدم لا البناء والخراب لا الإعمار، فنقطة البداية عند هؤلاء مجهولة المصدر والهويَّة وفاقد الشيء لا يعطيه، وكل إناء ينضح بما فيه.

وفي الختام فهذه محاولة أقدِّمها علىٰ مائدة البحث العلمي، قد تجد لها مكانًا في الدَّراسات القرآنيَّة اللغويَّة وقد لا تجد، ولكنَّه اجتهاد قد أصيب فيه وأخطئ، فأسأله ﷻ الهداية والتَّوفيق والرَّشاد فيما عرضت له، والعصمة من الزَّلل فيما اجتهدت فيه.

﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: **88**].

تمهيد

## قلوب المعرضين في الميزان

قد يحيا الإنسان ويموت من أجل تحقيق هدف ما يؤمن به ويسعىٰ إلىٰ تحقيقه، فقد تدركه الآمال وقد لا تدركه، سواء أكان هذا الهدف نبيلاً أم حقيرًا، المهم أنَّ من خواص تركيبه وطبيعة تكوينه الاستعداد للمعرفة عن طريق التَّجربة والتي تحمل كثيرًا من الهموم والآلام قد يصل من خلالها إلىٰ مقصده ومبتغاه، وقد تحول الحياة بينه وبين تحقيق آماله وأحلامه، والجوارح في هذا السَّبيل تسعىٰ وتجتهد بالصَّمت حينًا وبالكلام أحيانًا ولكنها في النِّهاية تأتمر وتنتهي وتسمع وتطيع، لا تمتلك القدرة علىٰ النِّقاش ولغة الحوار وإنما تولِّي وجهتها حيث يولي القلب قبلته، إن أحسن أحسنت، وإن أساء أساءت، لا تملك الدَّفع أو الرَّد أو القبول أو الرَّفض وإنَّما غايتها التَّسليم والإذعان، فالقلب هو المخاطب والمسئول أمام خالقه ﷻ: «فالقلب هو العالم بالله، وهو المتقرِّب إلىٰ الله، وهو العامل لله، وهو السَّاعي إلىٰ الله، وهو المكاشف بما عند الله ولديه، وإنَّما الجوارح أتباع له وخدم وآلات، يستخدمها القلب ويستعملها استعمال المالك للعبد واستخدام الرَّاعي للرعية والصَّانع للآلة، فالقلب هو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله، وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقًا بغير الله، وهو المطالب وهو المخاطب وهو المعاتب وهو الذي يسعد بالقرب من الله فيفلح إذا زكاه، وهو الذي يخيب ويشقىٰ إذا دنَّسه ودسَّاه، وهو المطيع بالحقيقة لله تعالىٰ، وإنَّما الذي ينتشر علىٰ الجوارح من العبادات أنواره، وهو العاصي المتمرِّد علىٰ الله تعالىٰ وإنما السَّاري إلىٰ الأعضاء من الفواحش آثاره، وبإظلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه، إذ كل إناء ينضح بما فيه، وهو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه وإذا عرف نفسه فقد عرف ربَّه، وهو الذي إذا جهله الإنسان فقد جهل نفسه وإذا جهل نفسه

فقد جهل ربَّه، ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل، إذ أكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفسهم، وقد حيل بينهم وبين أنفسهم، فإنَّ الله يحول بين المرء وقلبه ...»[1].

وقد استولت الجهالة بجماعة من بني البشر داخلها الهوىٰ والغرور والكِبْر والعجب فانساقت وراء أماني الشيطان الخادعة وسلطانه المزيف، وجبروته المصطنع فوجدت نفسها لغير الله راكعة ساجدة، وعن أوامره معرضة، فلم يكن القلب لها دليل الصَّواب ولا عنوان الرَّشاد، فلم تبصر الأمور علىٰ حقيقتها ولم تزن الحياة بميزان العقل والفكر وإنما لهثت وراء سراب خادع حتىٰ سكنت دار الخلود وعندها أيقنت خزي التَّفكير وسوء التَّدبير، وإذا بحثت عن تلك الأسرار التي علقت بهذه القلوب وجعلتها تركن إلىٰ هذا المصير فاعلم بأنَّه قد سيطر عليها كثير من الأمراض هي كما ذكرها أبو حيان بقوله: «وقد تلخص في القرآن من المعاني السببيَّة التي تحصل في القلب سبعة وعشرون مرضًا، وهي: الرَّين، والزَّيغ، والطَّبع، والصَّرف، والضِّيق، والحرج، والختم، والإقفال، والإشراب، والرُّعب، والقساوة، والإصرار، وعدم التَّطهير، والنُّفور، والاشمئزاز، والإنكار، والشكوك، والعمىٰ، والإبعاد بصيغة اللعن، والتأبِّي، والحمية، والبغضاء، والغفلة، والغمرة، واللهو، والارتياب، والنِّفاق. وظاهر آيات القرآن تدل علىٰ أن هذه الأمراض معان تحصل في القلب فتغلب عليه، وللقلب أمراض غير هذه من الغلِّ والحقد والحسد، ذكرها الله تعالىٰ مضافة إلىٰ جملة الكُفَّار»[2].

وأما قلوب المُعْرِضين عن القرآن في القرآن فكان لها من هذه الصِّفات حظٌّ ونصيب فاقتبست واستعارت منها سبعًا علىٰ سبيل المنحة التي لا ترد، إضافة إلىٰ الأكِنَّة باعتبارها أيضًا من أمراض القلوب، وكذلك المرض بصورته التي عليها

(1) إحياء علوم الدين. أبو حامد الغزالي. تحقيق. سيد بن إبراهيم بن صادق بن عمران3/ 3، 4 - دار الحديث - القاهرة 1419هـ-1998م.

(2) البحر المحيط. أبو حيان الأندلسي. تحقيق. عادل أحمد عبد الموجود وآخرين 1/ 188 - دار الكتب العلمية - لبنان - بيروت - الطبعة الأولىٰ 1422هـ-2001م.

فيكون المجموع تسعة أشكال عبَّرت من خلالها عن عللها وأسقامها، وعنفها وقسوتها، وأنَّها بكل صراحة ووضوح واجهت المنحة التي وهبها الله ﷻ لها والتي تحيا تحت ظلالها آمنة مطمئنة بكل تعال وغرور فأوقعت نفسها في محنة، تُتْلىٰ علىٰ مسامعها آيات القرآن الكريم ليل نهار فتولِّي مدبرة قاصدة، لا تبالي إن كانت آثمة أو ظالمة، فلم تعط لنفسها فرصة الاستماع حتىٰ تتفكَّر وتتدبَّر وإن استمعت وأيقنت بفصاحة وحسن وبديع هذا البيان والذي لا يمكن أن يكون نظمه عن طريق بشر بأي حال من الأحوال أصابتها عجمة الفهم وعدم إدراك فحوىٰ هذا الكلام، فاختلت عندها الموازين، واضطربت أمام عينها الحقائق والمفاهيم، فلم تعد تميِّز بين غثٍّ وسمين وصحيح وسقيم فاستحقت وبكلٍّ جدارة وسام المُعْرِضين.

## الشكل الأول: ران القلوب

الحقُّ دائمًا وأبدًا يريد لك الهداية والباطل يريد أن يقذف بك في عالم الضَّلالة وليس بينهما حياد، فإمَّا أن تفتح قلبك وتكون صاحب وعي وإدراك فتختار التَّصديق بيوم الدين والإيمان بالقرآن الكريم المنزَّل من ربِّ العالمين فتبتسم لك الحياة وتصفق لك بكلتا يديها فتحيا وإن كنت في دار اليقين، وإمَّا أن تغلِّفه بالباطل فترىٰ الجهل علمًا والظلمة نورًا فتحجب عنك الجاهليَّة نور الإيمان وتغلق أمام عينيك جميع أبواب الفهم والإدراك فلم يبق في حياتك شعاع أمل من خير أو عنوان رجاء من إنابة فتجد الرُّوح التي تهب الإنسان الحياة قد تحوَّلت إلىٰ جثَّة هامدة وإن كان صاحبها في عداد الحياة.

فهذا صاحب قلم -إن صَحَّ التَّعبير مجازًا بذلك- قد أطلق لفكره العنان فسَطَّر الكلمات والعبارات التي لم يستح الجهر بها فأعلن أمام الملأ بأنَّ القرآن الكريم عبارة عن حكايات وأحاديث الأولين لما فيه من القصص وأخبار المتقدِّمين ناسيًا أو متناسيًا ما فيها من جانب التفكُّر والتدبُّر والموعظة، متجاهلاً حقيقة إعجازه وصلاحيته لعلاج ما ران علىٰ القلوب من الذُّنوب والآثام، وطرحه للأفكار التي ينصلح بها حال البشريَّة جمعاء في كل زمان ومكان، وذلك «لفرط جهله وإعراضه عن الحقِّ فلا تنفعه شواهد النَّقل كما لا تنفعه دلائل العقل، وهذا عام في كل موصوف بذلك»[1].

قال تعالىٰ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ **[المطففين: 13، 14]**.

---

(1) تفسير السراج المنير. محمد بن أحمد الشربيني شمس الدين 4/ 366 - دار الكتب العلمية - بيروت. وينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. إبراهيم بن عمر البقاعي. تحقيق. عبد الرازق غالب المهدي 8/ 359 - دار الكتب العلمية - بيروت 1415هـ-1995م.
وقال الكلبي: هو الوليد بن المغيرة. وقيل: هو النَّضْر بن الحارث. تفسير السراج المنير 4/ 366. ولا تعنينا الأسماء بقدر ما يعنينا المغزىٰ والهدف.

تأمَّل جمال تعبير القرآن الكريم عن أصحاب هذه القلوب السَّوداويَّة التي غطَّىٰ الظلام جميع أركانها ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

فـ (ران القلوب) وإن اختلف حول بيان دلالته المصطلحات والآراء والتعبيرات وتعدَّدت فيه التَّأويلات إلا أنَّ المشهور منها والمعنىٰ الجامع لها هو الغلبة والإحاطة والتَّغطية، حيث قيل في تفسيره: «﴿رَانَ﴾ أي: غلب وأحاط وغطىٰ تغطية الغيم للسماء ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ أي: كل من قال هذا القول ﴿مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: كما يركب الصَّدأ من إصرارهم علىٰ الكبائر وتسويف التَّوبة حتىٰ طبع علىٰ قلوبهم فلا تقبل الخير ولا تميل إليه»[1].

«وأصل الرَّان الغلبة: ومعنىٰ الآية أن الذُّنوب والمعاصي غلبت علىٰ قلوبهم وأحاطت بها»[2].

«فقد غَطَّت علىٰ قلوبهم أعمالهم أن يدخلها فهم القرآن والبون شاسع بينه وبين أساطير الأولين»[3].

وشواهد الاحتجاج علىٰ هذه الدَّلالة كثيرة منها:

**1- أقوال أهل اللغة:**

ذكر ابن منظور: «ران الذَّنب علىٰ قلبه يرين رَيْنًا ورُيُونًا: غلب عليه وغَطَّاه. وفي التنزيل العزيز: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، أي غلب وطبع وختم ... ورِين علىٰ قلبه: غُطِّيَ. وكل ما غَطَّىٰ شيئًا فقد ران عليه. ورانت عليه الخمر:

---

(1) تفسير السراج المنير4/ 366.

(2) لباب التأويل في معاني التنزيل. علي بن محمد البغدادي الشهير بالخازن 7/ 220 - دار الفكر - بيروت - لبنان - 1399هـ-1979م.

وينظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن. محمد بن جرير الطبري. حققه. أحمد محمد شاكر 24/ 285 - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولىٰ 1420هـ-2000م، ومعالم التنزيل. الحسن بن محمد البغوي. حقَّقه. محمد عبد الله النمر وآخرون 8/ 365 - دار طيبة للنشر والتوزيع - الطبعة الرابعة 1417هـ-1997م.

(3) التحرير والتنوير. محمد الطاهر بن عاشور 30/ 199 - دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس 1997م.

غلبته وغشيته، وكذلك النُّعاس والهَمُّ، وهو مَثَلٌ بذلك، وقيل: كل غَلَبَة رَيْنٌ ... قال أبو عبيد: كل ما غَلَبَك وعلاك فقد ران بك ورانَك وران عليك»[1].

وذكر الرَّاغب أن: «الرَّين: صدأ يعلو الشَّيء الجليل. قال تعالىٰ: ﴿بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ -أي صار ذلك كصدأ علىٰ جلاء قلوبهم فعمي عليهم معرفة الخير من الشَّرِّ»[2].

**2- أقوال عامَّة المفسرين:**

عن دلالة (الرَّان) «قال المفسرون: هو الذَّنب علىٰ الذَّنب حتىٰ يسودَّ القلب، قال مجاهد: هو الرَّجل يُذنب، فيحيط الذَّنب بقلبه، ثم يذنب الذَّنب فيحيط الذَّنب بقلبه، حتىٰ تُغَشَّىٰ الذُّنوب قلبه، ... وكثرت المعاصي منهم والذُّنوب فأحاطت بقلوبهم، فذلك الرَّين عليها، ورُوي عن مجاهد أيضًا قال: القلب مثل الكهف ورفع كفه، فإذا أذنب العبد الذنب انقبض، وضم إصبعه، فإذا أذنب الذَّنب انقبض، وضم أخرىٰ، حتىٰ ضمَّ أصابعه كلها، حتىٰ يُطبع علىٰ قلبه، قال، وكانوا يرون أن ذلك هو الرَّيْنُ، ثم قرأ: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾. ومثله عن حذيفة رضي الله عنه[3] سواء، وقال بكر بن عبد الله: إنَّ العبد إذا أذنب صار في قلبه كوخزة الإبرة، ثم صار إذا أذنب ثانيًا صار كذلك، ثم إذا كثرت الذُّنوب صار القلب كالمُنْخُل، أو كالغِربال، لا يعي خيرًا، ولا يثبت فيه صلاح»[4].

**3- الأحاديث النبوية:**

- عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ العبد إذا أخطأ خطيئة نُكِتَتْ**

---

(1) لسان العرب. ابن منظور الإفريقي. حققه. عبد الله علي الكبير وآخرون (ر. ي. ن) 3/ 1796، 1797 - دار المعارف.

(2) المفردات في غريب القرآن. الراغب الأصفهاني. تحقيق. محمد سيد كيلاني ص208 - دار المعرفة - لبنان.

(3) هو حذيفة بن اليمان. الكشف والبيان. أحمد بن محمد الثعلبي. حققه. أبو محمد بن عاشور 10/ 153 - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان - الطبعة الأولىٰ 1422هـ-2002م.

(4) الجامع لأحكام القرآن 19/ 259، 260.

**في قلبه نُكْتة سوداء فإذا هو نزع واستغفر الله وتاب، صقُل قلبه، وإن عاد زيد فيها، حتىٰ تعلُو قلبه، وهو الرَّان، الذي ذكر الله:** ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[(1)].

- عن عمر بن عبد الرحمن بن دلاف عن أبيه أن رجلاً من جهينة كان يشتري الرَّواحل فيغالي بها ثم يسرع السَّير فيسبق الحاجَّ فأفلس فرفع أمره إلىٰ عمر بن الحطاب رضي الله عنه فقال: أما بعد، أيها الناس فإنَّ الأسيفع أسيفع جهينة رَضِيَ من دينه وأمانته أن يقال سبق الحاج إلا أنه قد ادَّان معرضًا فأصبح قد رِين به فمن كان له دين فليأتنا بالغداة نقسِّم ماله بين غرمائه[(2)].

قوله: ادَّان معرضًا أي: استدان معرضًا عن الأداء. وقوله: قد رِينَ به أي: أحاط بماله الدَّيْن، يقال: رِينَ بالرجل رينًا: إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه[(3)].

**4- الشِّعر العربي:**

«قول أبي زُبَيْد الطَّائي يصف رجلاً شرب حتىٰ غلبه الشَّراب سُكْرًا، فقال:

**ثم لما رآه رانتْ به الخَمْرُ    وأن لا ترينه باتِّقاء**

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير. الجامع الصحيح سنن الترمذي. محمد بن عيسىٰ الترمذي. تحقيق. أحمد محمد شاكر وآخرين 5/ 434 - رقم الحديث 3334 - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(2) سنن البيهقي الكبرىٰ. أحمد بن الحسين أبو بكر البيهقي. تحقيق. محمد عبد القادر عطا 1/ 141 - باب من أجاز القضاء علىٰ الغائب - رقم الحديث 20277 - مكتبة دار الباز - مكة المكرمة - 1414هـ-1994م. والحديث في البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير. ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي. تحقيق. مصطفىٰ أبو الغيط وآخرين6/ 660 - دار الهجرة للنشر والتوزيع - الرياض السعودية - الطبعة الأولىٰ 1425هـ-2004م.

(3) شرح السنة للإمام البغوي. تحقيق. شعيب الأرناؤوط، محمد زهير الشاويش 8/ 190 - باب قسمة المفلس بين الغرماء - رقم الحديث 2135 - المكتب الإسلامي - دمشق - بيروت - 1403هـ-1983م.

فقوله: رانت به الخمر، أي غلبت علىٰ عقله وقلبه»[1].

وفي ضوء هذه الشَّواهد والأقوال ترىٰ هذا النِّتاج الضَّخم والتَّزاحم والتَّراكم العظيم الذي أنتجته الذُّنوب والمعاصي في القلوب حتىٰ جعلت عليها غطاء كثيفًا وحجابًا مانعًا حجب عنها نور الحق كليَّة، وكيف يكون للحق صوت مع هؤلاء الكُفَّار الذين وسموا القرآن بأنَّه أساطير الأولين.

ولذلك جاءت اللفظة وحيدة الاستعمال فريدة في بابها أتىٰ بها السياق القرآني من أجل تجسيد هذا المشهد المرير، فـ«القلب الذي يمرد علىٰ المعصية ينطمس ويظلم، ويرين عليه غطاء كثيف يحجب النور عنه ويحجبه عن النور ويفقده الحساسية شيئًا فشيئًا حتىٰ يتبلَّد ويموت»[2].

فإن تعجب فعجب لهؤلاء الذين يشرون الذُّنوب ويدَّخرونها كما يدخر المال حتىٰ تغطي علىٰ نور الحقِّ الذي فطر الله القلوب عليه.

والفصل في هذه المسالة واضح لكل ذي لبٍّ، شاهد صدق ويقين علىٰ أنَّه: «ليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا، إنَّ هذا القرآن أساطير الأولين، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله علىٰ رسوله ﷺ وإنَّما حجب عن قلوبهم الإيمان به ما عليها من الرين الذي قد لبس علىٰ قلوبهم من كثرة الذُّنوب والخطايا؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. والرين يعتري قلوب الكافرين، والغيم للأبرار، والغين للمقربين»[3].

---

(1) الجامع لأحكام القرآن 19/ 260. والبيت في: مجاز القرآن. أبو عبيدة معمر بن المُثَنَّىٰ. علق عليه د. محمد فؤاد سزكين 2/ 289 - مكتبة الخانجي بالقاهرة، وجامع البيان 24/ 285، ولسان العرب 3/ 1797.

(2) في ظلال القرآن. سيد قطب 6/ 3857، 3858 - الطبعة الشرعية السادسة عشرة 1410هـ-1990م.

(3) تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. حققه. سامي بن محمد سلامة 8/ 350 - دار طيبة للنشر والتوزيع - الطبعة الثانية 1420هـ-1999م.

ولذلك ظلَّ هذا القلب طوال حياته في غياهب الجب لا يبصر الحقَّ ولا يوقن به، وكيف يوقن به، وهو: «﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ الدَّالة علىٰ الحقِّ وعلىٰ صدق ما جاءت به رسله، كذبها وعاندها و﴿قَالَ﴾ هذا ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: من ترهات المتقدمين وأخبار الأمم الغابرين ليس من عند الله، تكبرًا وعنادًا، وأما من أنصف، وكان مقصوده الحق المبين، فإنَّه لا يكذِّب بيوم الدين؛ لأنَّ الله قد أقام عليه من الأدلة القاطعة والبراهين السَّاطعة ما يجعله حق اليقين، وصار لقلوبهم مثل الشَّمس للإبصار، بخلاف من ران علىٰ قلبه وكسبه، وغطته معاصيه فإنَّه محجوب عن الحق. ولهذا جوزي علىٰ ذلك بأن حُجب عن الله، كما حُجب قلبه في الدُّنيا عن آيات الله»[1].

ومن هنا فوسم القرآن بأنَّه أساطير الأولين ناسبه ران القلوب بأن ظهرت عليها عدَّة أغطية حجبت عنها نور الحقِّ وطمست علىٰ بصيرتها فلم تعد تميز بين صحيح الكلام وفاسده، فالجزاء من جنس العمل، والآية عامَّة في كل من انحرف عن جادة الطَّريق المستقيم ووسم القرآن الكريم بأنَّه أساطير الأولين.

---

(1) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. المحقق. عبد الرحمن بن معلا اللويحق ص915 - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولىٰ 1420هـ-2000م.

## الشكل الثاني: زيغ القلوب

لا نختلف فيما بيننا في أن الإنسان ينظر في المرآة ليرىٰ صورة نفسه وحقيقة مظهره ولكن أن يرىٰ شيطانًا يصور له المساوئ محاسنًا والقبح جمالاً فتلك هي مشكلة أصحاب الشُّبهات والشَّهوات في طرح الأفكار المغلوطة والسِّهام المسمومة، وذلك من خلال المتشابه من آيات القرآن الكريم والتي تحتمل التَّأويل وتعدُّد دلالات التَّوجيه دون تعارض أو تناقض في إصدار الأحكام، غير مدركين أنَّ ذلك في حد ذاته إعجاز يدعو الفكر إلىٰ التَّفقه والتَّدبُّر في هذا العالم الدقيق ومحاولة كشف بعض أسراره وإن عجز فيمكنه رده إلىٰ المحكم منه والذي لا تجد في آياته لبس أو غموض أو تأويل أو إشكال وذلك إن كان في القلب ذرَّة من إيمان.

وقد اقتضت حكمة الله ﷻ أن تكون أكثر آيات القرآن الكريم محكمات بيِّنات لا لبس فيها ولا غموض ولا قياس ولا تأويل ولا إشكال ترىٰ فيها وضوح الدلالة وضوح الشمس في كبد السماء، تكاد كل آية أن تنطق بذلك وتأخذ بأيدي المؤمنين بها إلىٰ طريق الحقِّ والرَّشاد، ويوقن بها كذلك أصحاب الهوىٰ ولكنَّهم لم يجدوا فيها سبيلاً إلىٰ الطعن ورفع سهامهم المسمومة إليها، ولكن المتشابه من الآيات يحتمل سبيلاً إلىٰ التَّأويل وتعدُّد ألوان التَّفسير وتوجيه الدَّلالة إلىٰ أكثر من اتِّجاه، وهذا ما يتخذه أصحاب الشُّبهات بل والشَّهوات سبيلاً للطعن في كثير من الثَّوابت والأصول، فترىٰ القيل والقال وطرح السؤال وعدم انتظار الجواب فتنزلق أقدامهم في أعماق الأرض وتتساقط حبَّات الرِّمال المتحركة فوق رءوسهم، فتنحرف العقول وتضلُّ القلوب عن سواء السَّبيل.

وهذا هو زيغ قلوب المعرضين عن القرآن تجده في قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ﴾ [آل عمران: 7].

فهذا الزَّيغ يمثل أعلىٰ دائرة الانحراف والميل عن اتباع الحقِّ إمَّا بدلالة العموم أو الخصوص، فدلالة العموم وهو ما أراه أقرب إلىٰ القبول تنصرف إلىٰ «الذين في قلوبهم ميل عن الحق، وانحراف عنه. يقال منه: زاغ فلان عن الحقِّ، فهو يَزيغ عنه زيْغًا وزَيغانًا وزيغُوغة وزُيوغًا، و«أزاغه الله» -إذا أماله- فهو يُزيغه»، ومنه قوله جلَّ ثناؤه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ **[آل عمران: 8]** لا تملها عن الحق ...»[1].

وأما دلالة الخصوص فهي تشير إلىٰ تفسير الزَّيغ بمعنىٰ الَّلبس أو الشِّرك أو الشُّبهات التي تتَّعلق بالقلب[2] أو الشَّك[3].

وعلىٰ ذلك فما دام الباطل عنوانًا، وإتباعه دستورًا فالمتشابه من الآيات هو المدخل لأصحاب هذه القلوب الضَّعيفة التي لا تفترض تلك الأفكار حتىٰ تستطيع أن تجالسها وتخاطبها خطاب العقل والحكمة فتعود إلىٰ صوابها ولكنَّها أرضعت الباطل بشتىٰ صوره منذ نعومة أظفارها، ففساد المقصد دليل سوء النية حتىٰ كانت النَّتيجة الزَّيغ واتِّباع الهوىٰ، والمقصد هو أنهم يتَّبعون «ما تشابهت ألفاظه وتصرفت معانيه بوجوه التَّأويلات، ليحققُّوا بادِّعائهم الأباطيل من التَّأويلات في ذلك ما هم عليه من الضَّلالة والزَّيغ عن محجَّة الحقِّ، تلبيسًا منهم بذلك علىٰ من ضعفت معرفته بوجوه تأويل ذلك وتصاريف معانيه»[4].

أو بمعنىٰ آخر: «﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ﴾ أي: ميل عن الاستقامة بأن فسدت مقاصدهم، وصار قصدهم الغي والضَّلال، وانحرفت قلوبهم عن طريق الهدي والرَّشاد ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ أي يتركون المحكم الواضح ويذهبون إلىٰ المتشابه، ويعكسون الأمر فيحملون المحكم علىٰ المتشابه ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ لمن

---

(1) جامع البيان 6 / 183. وينظر: لسان العرب (ز. ي. غ) 3/ 1900.

(2) تفسير القرآن. منصور بن محمد السمعاني. تحقيق. ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس بن غنيم 1/ 295 – دار الوطن – الرياض – السعودية – 1418هـ–1997م.

(3) الكشف والبيان 2/ 12.

(4) جامع البيان 6/ 183. وينظر: تفسير القرآن العظيم 2/ 8.

يدعونهم لقولهم، فإنَّ المتشابه تحصل به الفتنة بسبب الاشتباه الواقع فيه، وإلا فالمحكم الصَّريح ليس محلاً للفتنة، لوضوح الحقِّ فيه لمن قصده اتِّباعه»[1].

ولو أنَّ القلوب قد دعت إلىٰ الصِّدق والهدىٰ وأخلصت في ادِّعائها الحق لما هوت وانزلقت إلىٰ الهاوية، فالمسألة في غاية السهولة «فمَنْ ردَّ ما اشتبه عليه إلىٰ الواضح منه، وحَكَّم محكمه علىٰ متشابهه عنده، فقد اهتدىٰ، ومن عكس انعكس»[2].

وعلىٰ ذلك فالزَّيغ واضح الدَّلالة يسلك مسلكه وينهج منهجه هؤلاء «... الذين في قلوبهم زيغ وانحراف وضلال عن سواء الفطرة، فيتركون الأصول الواضحة الدَّقيقة التي تقوم عليها العقيدة والشَّريعة والمنهاج العلمي للحياة، ويجرون وراء المتشابه الذي يقوم في تصديقه علىٰ الإيمان بصدق مصدره، والتَّسليم بأنَّه هو الذي يعلم الحقَّ كله، بينما الإدراك البشري نسبي محدود المجال. كما يعول فيه علىٰ استقامة الفطرة التي تدرك بالإلهام المباشر صدق هذا الكتاب كله، وأنَّه نزل بالحق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. يجرون وراء المتشابه لأنَّهم يجدون فيه مجالاً لإيقاع الفتنة بالتَّأويلات المزلزلة للعقيدة، والاختلافات التي تنشأ عن بلبلة الفكر، نتيجة إقحامه فيما لا مجال للفكر في تأويله»[3].

لذلك فكل مَنْ احتج علىٰ باطله بمتشابه القرآن ولم يتخذ الحقَّ مقصدًا وهدفًا ومال عنه فقد انحرف عن جادة الطريق المستقيم والنَّهج القويم، فقد تَدَّعي هذه القلوب الصِّدق والإخلاص والتَّفكُّر والتَّدبُّر والتَّبحُّر في هذا العالم الخاص الفياض بالدَّلالات بغية الوصول إلىٰ الحائق ولكن هذه فرية لا أساس لها، فناسب المقام هنا زيغ القلوب والذي يعني الانحراف والميل عن الصَّواب عامة والتَّمسك بكل ما هو مخالف للحقِّ والرَّشاد.

---

(1) تيسير الكريم الرحمن ص122.

(2) تفسير القرآن العظيم 2/ 6.

(3) في ظلال القرآن 1/ 369، 370.

## الشكل الثالث: صرف القلوب

عندما تُنْظم قصائد المدح في شخصك ويشير البنان إلىٰ قَدْرك ويرفع الإعلام من ذكرك وتتحدَّث عنك الدُّنيا بلغة العظمة والفخر تنصت وتعقل وتفهم، فأقدار البشر مصونة، وعلامات الاستفهام غير مطروحة، فطوبىٰ لزمان أهدي فيه الحقُّ لأهله، ولكن عندما تسمع آيات العتاب أو التَّوجيه للصَّواب أو فضح سرائر القلوب تنصرف الآذان عن السَّماع، والقلوب عن الفهم والإدراك، وتحدِّثك نفسك بأنَّ هذا من باب الكيد لك والمكر بك، وهذا هو حال المنافقين الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، حيث صرَّحوا بصحة الاعتقاد، وغدوا بين الناس بيض الثياب، والعفَّة والفضيلة تتجسَّد في حركاتهم وسكناتهم كأنَّهم ملائكة العدل والرَّحمة، ولكنَّ الحقيقة هي أنَّ هذه القلوب عن ذكر الله مصروفة، ومعايبهم ومساوئهم أمام الله مكشوفة، تتنزَّل آيات من القرآن لتكشف حالهم وتنبئهم بما في قلوبهم فينقلبوا معرضين وعن المؤمنين منصرفين.

فتأمَّل هذا الموقف وهم جلوس في مجلس النبي ﷺ والمؤمنون من حوله، والسُّورة تنزل من القرآن ليميز الله بها الخبيث من الطَّيب فترىٰ حالة من حالات اختلاس النَّظر، يتهامس المنافقون فيها بلغة العين ظنًّا منهم أنَّ هذه اللغة خاصَّة بهم ولا يدرك أهل الإيمان حالهم، فينظرون نظرة تعجب من وصف حالهم بهذه الصورة الدَّقيقة، وعلىٰ حين غرَّة تراهم وكأنَّك لا تراهم قد انصرفوا عن هذا المجلس في سرعة عجيبة وتحدٍّ صارح وكأنَّ السُّورة تلاحقهم حتىٰ في انصرافهم لتكشف مساوئهم، فتخيَّل صورتهم يعدون وكأنَّهم يفرُّون من ميدان المعركة وكأنَّ الوجود كله يراهم والعرق يتصبَّب بغزارة من جباههم فتنزل قطراته علىٰ وجوههم حتىٰ تذيقهم مرارة حالهم وسوء مآلهم.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ **[التوبة: 127]**.

فانصرافهم في هذه الحالة قد يكون انصرافًا عن الإيمان بتلك السُّورة النَّازلة، أو انصرفوا عن مواضعهم التي يسمعون فيها ما يكرهون[1]، أو انصرفوا عن حضرته مخافة الفضيحة[2]، أو انصرفوا عن طريق الاهتداء. وذلك أنَّهم حينما بيَّن لهم كشف أسرارهم والإعلام بمغيبات أمورهم يقع لهم لا محالة تعجُّب وتوقُّف ونظر، فلو اهتدوا لكان ذلك الوقت مظنَّة لإيمانهم؛ فهم إذ يصمِّمون علىٰ الكفر ويرتبكون فيه كأنَّهم انصرفوا عن تلك الحال التي كانت مظنَّة النَّظر الصَّحيح والاهتداء، ولم يسمعوا قراءة النبي ﷺ سماع من يتدبَّره وينظر في آياته: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ **[الأنفال: 22]**، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ **[محمد: 24]**[3].

وخلاصة القول أنَّ انصراف المنافقين في هذا الموضع يحتمل أن يراد الانصراف بالأبدان، أو الانصراف بالقلوب عن الهدىٰ[4].

وعلىٰ ذلك يمكن القول بأنَّ «زيادة جملة ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ﴾ لإفادة أنَّهم لم يكتسبوا من نزول السُّورة التي أطلعت المؤمنين علىٰ أسرارهم عبرة ولا قربًا من الإيمان، بل كان قصارىٰ أمرهم التَّعجب والشَّك في أن يكون قد اطَّلع عليهم من يبوح بأسرارهم ثم انصرفوا كأن لم تكن عبرة وهذا من جملة الفتن التي تحلُّ بهم ثم لا يتوبون ولا هم يذكَّرون»[5].

---

(1) لباب التأويل في معاني التنزيل 3/ 170.
وينظر: تفسير القرآن للسمعاني 2/ 362، والكشف والبيان 5/ 114.

(2) تفسير البيضاوي 3/ 181 – دار الفكر – بيروت.

(3) الجامع لأحكام القرآن 8/ 299.
وينظر: البحر المديد. أحمد بن محمد بن عجيبة 3/ 183 – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الثانية 1423هـ–2002م، والبحر المحيط 5/ 120.

(4) التسهيل لعلوم التنزيل. محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي2/ 88 – دار الكتاب العربي – لبنان – الطبعة الرابعة 1403هـ–1983م.

(5) التحرير والتنوير 11/ 69.

فلما كانت المقدمة تشير صراحة إلىٰ الانصراف عن الاستماع لآيات القرآن الكريم كانت النَّتيجة أن صرف الله قلوبهم بأنَّهم قوم لا يفقهون، فالتَّصنيف عنوانه صرف القلوب، والتَّوصيف خاص بالمنافقين.

و«الصَّرف: ردُّ الشيء من حالة إلىٰ حالة أو إبداله بغيره، يقال صرفته فانصرف»[1].

والمنافقون قد ركنوا إلىٰ ذكاء عقولهم وتمكُّن خبرتهم في أساليب الحيلة والمكر والدَّهاء فانصرفوا عن العمل بموجب الآيات فكان الجزاء من جنس العمل؛ وذلك بأن «صرف الله عن الخير والتَّوفيق والإيمان بالله ورسوله قلوب هؤلاء المنافقين»[2].

أو «﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عن الإيمان بالقرآن»[3].

فالعقوبة مستحقة لأنَّ الجرم عظيم، حيث «جازاهم الله بعقوبة من جنس عملهم، فلما انصرفوا عن العمل ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ أي: صدَّها عن الحقِّ وخذلها»[4].

وقال الزَّجاج: أضلَّهم الله مجازاة لهم علىٰ فعلهم[5].

إذًا صرف الله قلوبهم كان نتيجة لعلة وهي ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ «لا يفهمون عن الله؛ ولا عن رسوله عليه الصَّلاة والسَّلام، أو لا يفقهون سوء فهمهم أو عدم تدبُّرهم. والإشارة: زيادة الإيمان عند سماع القرآن يكون علىٰ سبيل التَّصفية والتَّطهير من الأغيار، فبقدر ما يصفو القلب من الأغيار يكشف له من أسرار القرآن»[6].

---

(1) المفردات في غريب القرآن (ص. ر. ف) ص279.
(2) جامع البيان 14/ 582.
(3) الكشف والبيان 5/ 114. وينظر: لباب التأويل في معاني التنزيل 3/ 170.
(4) تيسير الكريم الرحمن ص356.
(5) لباب التأويل في معاني التنزيل 3/ 170. وينظر: تفسير القرآن للسمعاني 2/ 362.
(6) البحر المديد 3/ 183.

وعلىٰ ذلك فصرف قلوب هؤلاء المنافقين وتحويلها من جهة إلىٰ أخرىٰ يتناسب مع هذا المقام الذي ينصرفون فيه عن آيات القرآن وهي تتنزل علىٰ قلب خاتم الأنبياء والمرسلين تكشف مساوئهم وتفضح هذا الخفايا التي يعتقدون أنَّها خارج نطاق المعرفة، وكأنَّ لهم مجموعة من القلوب كل قلب منها يختلف عن الآخر تمامًا.

## الشكل الرابع: طبع القلوب

تختلف الرؤىٰ وتتعدَّد الاتِّجاهات عندما ترىٰ دياجير الظَّلام قد اختلطت بشعاع النور وجهالة الباطل أمست وضياء الحق سواء، ولكن أن ترىٰ آيات القرآن الكريم تحدِّثك بحقائق الماضي وأمل الحاضر وسعادة المستقبل بكل دقَّة ووضوح، تعرض عليك الإيمان بكل وسيلة من وسائل الحجَّة والإقناع، وتضرب لك بذلك الأمثال حتىٰ ترىٰ صورة الحقِّ قد طبعت في قلبك واختلطت بعظمك ولحمك، فتنظر إلىٰ صورة المؤمنين في جنَّة عرضها السَّماوات والأرض فرحين يتنعَّمون، وصورة الكافرين وهم في عذاب جهنم ماكثون معذَّبون، ثم بعد ذلك تراك عن آيات الله من المعرضين غير المتفكِّرين أو المتدبِّرين، فهذا هو طبع القلوب كما سمَّاه القرآن الكريم.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ **[الروم: 58، 59]**.

والكافرون في هذه الصُّورة «مرَّة أخرىٰ أمام القرآن، وفيه من كل مَثَل؛ وفيه من كل نمط من أنماط الخطاب، وفيه من وسيلة لإيقاظ القلوب والعقول؛ وفيه من شَتَّىٰ الَّلمسات الموحية العميقة التَّأثير. وهو يخاطب كل قلب وكل عقل في كل بيئة وكل محيط. وهو يخاطب النَّفس البشريَّة في كل حالة من حالاتها، وفي كل طور من أطوارها»[1].

ولكن هذه الحالة الخاصَّة تطرق مسامعها الآيات ولكنَّها لا تنفذ إلىٰ القلوب؛ وذلك لطرح الجواب قبل السؤال، وتبنِّي فكرة الهدم والإفساد، وما ذلك إلا «لقسوة قلوبهم إذا جئتهم بآية من آيات القرآن قالوا جئتنا بزور باطل»[2].

---

(1) في ظلال القرآن 5/ 2777، 2778.

(2) البحر المديد 5/ 541. =

واتهام القرآن الكريم بالزور والباطل جريمة تستحق العقاب، إضافة إلىٰ تكذيبهم النبي المختار ﷺ فكان الجزاء وكانت النَّتيجة أن طبع الله علىٰ قلوبهم «فهم الذين لا يعلمون مطموسو القلوب، لا تنفتح بصيرتهم لإدراك آيات الله، متطاولون علىٰ أهل العلم والهدىٰ. ومن ثَمَّ يستحقُّون أن يطمس الله علىٰ بصيرتهم، وأن يطبع علىٰ قلوبهم، لما يعلمه سبحانه عن تلك البصائر وهذه القلوب!»[1].

وقد درج المفسِّرون علىٰ تفسير الطَّبع بالختم في قوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ حيث قيل: «الطَّبع والختم بمعنىٰ واحد، وهو الذي يمنع القلب من البصر»[2].

ودلالة الآية علىٰ هذا التَّفسير: «كذلك يختم الله علىٰ قلوب الذين لا يعلمون حقيقة ما تأتيهم به يا محمد من عند الله من هذه العِبَر والعظات، والآيات البيِّنات، فلا يفقهون عن الله حُجَّة، ولا يفهمون عنه ما يتلو عليهم من آي كتابه، فهم لذلك في طغيانهم يتردَّدون»[3].

وقيل بمعنىٰ آخر: «مثل ذلك الطَّبع -وهو الختم- يطبع الله علىٰ قلوب الجهلة؛ الذين علم الله منهم اختيار الضَّلال، حتىٰ سمُّوا المحققِّين مبطلين، وهم أغرق خلق الله في تلك الصِّفة»[4].

وفي الجمع بين الطَّبع والختم في إطار وقالب واحد تأكيد لما ذكر بعض أهل اللغة، حيث قال ابن فارس: «الخاء والتاء والميم أصل واحد، وهو بلوغ آخر الشيء. يقال: ختمت العمل، وختم القارئ السُّورة. فأما الختم، وهو الطَّبع

---

= وينظر: تفسير النسفي. أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي. تحقيق. مروان محمد الشعار 3/ 223 - دار النفائس - بيروت - 2005م.

(1) في ظلال القرآن 5/ 2778.

(2) تفسير القرآن للسمعاني 4/ 223.

(3) جامع البيان 20/ 120.

(4) البحر المديد 5/ 541.

علىٰ الشيء، فذلك من الباب أيضًا، لأنَّ الطَّبع علىٰ الشيء لا يكون إلا بعد بلوغ آخره، في الإحراز»[1].

ويقول عن الطَّبع: «الطَّاء والباء والعين أصل صحيح، وهو مثلٌ علىٰ نهاية ينتهي إليها الشيء حتىٰ يختم عندها. يقال: طبعت علىٰ الشيء طابعًا، ثم يقال علىٰ هذا: طَبْعُ الشيء وسجيته. ومن ذلك طبع الله علىٰ قلب الكافر، كأنَّه ختم عليه حتىٰ لا يصل إليه هدىٰ ولا نور، فلا يوفق لخير. ومن ذلك أيضًا: طَبْع السَّيْف والدِّرهم، وذلك إذا ضربه حتىٰ يكمِّله»[2].

وذكر ابن منظور مثل ذلك ف «الختم علىٰ القلب: ألا يفهم شيئًا، ولا يخرج منه شيء، لأنَّه طُبِع. وفي التنزيل العزيز: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [**البقرة: 7**]، هو كقوله: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [**النحل: 108**] فلا تعقل ولا تعي شيئًا، قال أبو إسحاق: معنىٰ ختم وطبع في اللغة واحد، وهو التَّغطية علىٰ الشيء والاستيثاق من ألا يدخله شيء، كما قال جَلَّ وعلا: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [**محمد: 24**]، وفيه: «﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ معناه غلب وغطَّىٰ علىٰ قلوبهم ما كانوا يكسبون»[3].

وذكر عن طبع: «والطَّبع: الختم وهو التأثير في الطِّين ونحوه ... وطبع الشيء وعليه يطبع طبعًا: ختم ... قال ابن الأثير: كانوا يرون أن الطَّبع هو الرَّين، قال مجاهد: الرَّين أيسر من الطَّبع، والطَّبع أيسر من الإقفال، والإقفال أشد من ذلك كله، هذا تفسير الطَّبْع، بإسكان الباء ... الطَّبْع بالسُّكون الختم»[4].

---

(1) مقاييس اللغة لابن فارس. حققه. عبد السلام محمد هارون (خ. ت. م) 2/ 245 - دار الفكر - 1399هـ-1979م.

(2) السابق (ط. ب. ع) 3/ 438.

(3) لسان العرب 2/ 1101.

(4) لسان العرب 4/ 2635.

وينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر. أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري. تحقيق. طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي 3/ 249 - المكتبة العلمية - بيروت - 1399هـ-1979م.

وعلىٰ ذلك فـ«الطَّبع إحكام الغلق بجعل طين ونحوه علىٰ سدِّ المغلوق بحيث لا ينفذ إليه مستخرج ما فيه إلا بعد إزالة ذلك الشيء المطبوع به، وقد يسمون علىٰ ذلك الغلق بسمة تترك رسمًا في ذلك المجعول، وتسمىٰ الآلة الواسمة طابَعًا -بفتح الباء- فهو يرادف الختم»[1].

«والختم: حقيقته السَّدُّ علىٰ الإناء والغلق علىٰ الكتاب بطين ونحوه مع وضع علامة مرسومة في خاتم ليمنع ذلك من فتح المختوم، فإذا فُتِح علم صاحبه أنَّه فتح لفساد يظهر في أثر النقش. وقد اتَّخذ النبي ﷺ خاتمًا لذلك، وقد كانت العرب تختم علىٰ قوارير الخمر ليصلحها انحباس الهواء عنها وتسلم من الأقذار في مدة تعتيمها ... والختم في اصطلاح الشرع استمرار الضَّلالة في نفس الضَّال أو خلق الضَّلالة، ومثله الطَّبع والأكنَّة»[2].

ومن هنا فـ «الختم والطَّبع: يقال علىٰ وجهين: مصدر ختمت وطبعت: وهو تأثير الشيء كنفس الخاتم والطَّابع. والثاني: الأثر الحاصل عن النَّقش ...»[3].

فالختم والطَّبع يلتقيان في معنىٰ واحد، فالتعبير بهما «إشارة إلىٰ ما أجرىٰ الله به العادة: أنَّ الإنسان إذا تناهىٰ في اعتقاد باطل، أو ارتكاب محظور، ولا يكون منه تلفت بوجه إلىٰ الحقِّ، يورثه ذلك هيئة تمرنه علىٰ استحسان المعاصي ...»[4].

لذلك ذكر بعض المفسرين أنَّ «﴿خَتَمَ ٱللَّهُ﴾ أي طبع ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ والختم والطبع بمعنىٰ واحد وهما التغطية للشيء والاستيثاق من أن يدخله شيء آخر. فمعنىٰ الآية: طبع الله علىٰ قلوبهم وأغلقها وأقفلها فليست تعي خيرًا ولا تفهمه. يدل عليه قوله: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ وقال بعضهم: معنىٰ الطَّبع

(1) التحرير والتنوير 6/ 17.

(2) السابق 1/ 254، 255.

(3) المفردات في غريب القرآن (خ. ت. م) ص205.

(4) السابق الصفحة نفسها.

والختم: ختم الله عليهم بالكفر والشَّقاء كما يقال للرَّجل: ختمت عليك أن لا تفلح أبدًا ...»[1].

ومن هنا يبدو وجود التقارب الدلالي بين لفظتي (طبع وختم) كما هو ثابت في هذه النُّصوص السَّابقة حتىٰ لا تكاد أن تشعر بوجود فرق بينهما -مهما حاولت تلمُّس ذلك- ولكن تظلُّ لغة القرآن الكريم لها عالمها الخاص الذي تتميَّز به وتعبيراتها الدَّقيقة التي لا تقف عند حدٍّ، فما دامت بعض السِّياقات القرآنية قد وردت بلفظة الطَّبع والأخرىٰ بالختم فهذا في حد ذاته دليل واضح علىٰ وجود الفرق بينهما وإن كان هناك معنىٰ عامًّا يجمع بينهما، فكلاهما ينتمي إلىٰ عالم طمس البصر والبصيرة ووصول صاحبه الموسوم بذلك إلىٰ أقصىٰ درجات الذُّنوب والمعاصي حتىٰ لا تكاد أن تجد له قلبًا يشعر أو جوارح تتألم، فكلاهما فيه دلالة علىٰ عدم استعمال العقل وتنحيته جانبًا ومن ثم عدم نفاذ الخير إلىٰ القلب، ولكن تظلُّ مرحلة الطَّبع أقوىٰ وأشد من مرحلة الختم، فبعض النَّاس يتدرَّج في سلم الشَّر حتىٰ يكاد أن يصل إلىٰ درجة الشَّياطين، وكلما انتهىٰ من مرحلة بدأ في أخرىٰ وكأنها سلسلة منتظمة الحلقات فالخير لا يعرف لقلبه سبيلاً حتىٰ إذا بلغ النِّهاية ختم الله علىٰ قلبه فإن أصبح الشَّر له عادة وسجيَّة لا يكاد أن يشعر معه بقيمة ذنبه وأن هذه الأمور تنتمي إلىٰ هذا العالم طبع الله عليه، ولذلك قيل بأن: «الطبع: أن تصوِّر الشيء بصورة ما كطبع السِّكَّة وطبع الدَّراهم وهو أعمُّ من الختم وأخصُّ من النَّقش»[2].

ف «الفرق بين الختم والطَّبع أنَّ الطَّبع أثر يثبت في المطبوع ويلزمه فهو يفيد من معنىٰ الثَّبات واللزوم مالا يفيده الختم، ولهذا قيل طبع الدرهم طبعًا. وهو الأثر الذي يؤثره فيه فلا يزول عنه، كذلك أيضًا قيل طبع الإنسان لأنَّه ثابت غير زائل، وقيل طبع فلان علىٰ هذا الخلق إذا كان لا يزول عنه»[3].

---

(1) الكشف والبيان 1/ 150.

(2) المفردات في غريب القرآن ص449.

(3) الفروق اللغوية. أبو هلال العسكري ص64 - دار الأفاق الجديدة - بيروت - الطبعة الثانية 1977م.

لذلك تأمَّل جيدًا لفظة (الطَّبع) في أحد عشر موضعًا قرآنيًّا تراها مفصَّلة تفصيلاً دقيقًا يتَّصف بها هؤلاء الكافرون المكذِّبون المتكبِّرون الذين لا يعلمون ولا يفقهون الحقيقة ولا يتدبَّرون فعلىٰ قلوبهم طابع وثبات لا يزول علىٰ سبيل المجاز؛ وذلك بورودها بصورة (طبع، ونطبع، ويطبع، وطبع، فطبع)[1]، بخلاف (الختم) الذي ورد بصورة (ختم، ونختم، ويختم) في خمسة مواضع[2] فلا تجد فيه هذا الأثر.

(1) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. محمد فؤاد عبد الباقي (ط. ب. ع) ص425.

(2) السابق (خ. ت. م) ص227.

## الشكل الخامس: غمرة القلوب

يظنُّ بعض الكافرين أنَّه من أجل أن ترفع له راية وتكون له قيمة وقامة أن يدخل في باب العمىٰ والجهالة والضَّلالة ويؤكِّد أن ما سجَّله القرآن الكريم من كتابة الأعمال وباب التَّكليف من باب الخرافة أو الأمور الخارقة للعادة فتراه يمسي ويصبح علىٰ غير اعتقاد وفي قلبه جفاء وغطاء يمنعه من فقه الأسرار في باب المحظورات، فيظن أنَّ في المحظورات تقييد وتكبيل وكبت للحريات مع أنَّه قد ضيَّق من دائرتها وحدَّدها في أبواب مخصوصة تتأمَّلها فتجد أن جانب الشَّرِّ فيها يطغىٰ علىٰ جانب الخير ويفقده توازنه؛ وذلك بما يؤدي إلىٰ إلحاق الضَّرر بالنَّفس والغير، فهي في الحقيقة أمن وأمان وحصن وسلام فتراه معرضًا عن القرآن غير معترف بما ذكره من كتابة الأعمال، في حين تجد باب المباحات عالمًا آخر من السَّعة والرَّحابة يتناسب مع طبيعة الفرد وحبه للحريَّة والانطلاق ولكن مع التقييد والانضباط بضوابط الدِّين، وكل ذلك موضوع في إطار ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ **[المؤمنون: 62]**.

والتَّفسير جليُّ الدلالة لا لبس فيه ولا غموض، حيث «يقول تعالىٰ مخبرًا عن عدله في شرعه علىٰ عباده في الدنيا: أنَّه لا يكلف نفسًا إلا وسعها، أي: إلا ما تطيق حمله والقيام به، وأنَّه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التي كتبها عليهم في كتاب مسطور لا يضيع منه شيء؛ ولهذا قال: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني: كتاب الأعمال، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا يبخسون من الخير شيئًا، وأما السَّيئات فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين»[1].

إذًا «لقد شرع الله التَّكاليف وفق ما يعلم من استعداد النفوس؛ وهو محاسبهم وفق ما يعملونه في حدود الطَّاقة، لا يظلمون بتحميلهم ما

(1) تفسير القرآن العظيم 5/ 481.

لا يطيقون؛ ولا يبخسهم شيئًا مما يعملون، وكل ما يعملونه محسوب في سجل ﴿يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّ﴾ ويبرزه ظاهرًا غير منقوص. والله خير الحاسبين ...»[1].

فاجلس واستمع وتأمَّل في الآيات حتىٰ تؤمن، ولكنك سافرت إلىٰ بلد بعيد بينه وبين الإيمان بون شاسع فأصبت بغمرة القلوب والتي تفصح عن هذا الغطاء الذي جعل بينك وبين الفهم حجابًا وحاجزًا.

و«أصل الغمر: إزالة أثر الشيء. ومنه قيل للماء الكثير الذي يزيل أثر سيله: غمر، وغامر ... والغمرة: معظم الماء السَّاتر لمقرها. وجعل مثلاً للجهالة التي تغمر صاحبها»[2].

وقد اقترنت جهالة هذه القلوب بكثير من المصطلحات عند أقوال المفسِّرين، فتعدَّدت حولها الدَّلالات، فمنهم من ذكر أن غمرة هذه القلوب دلالته «عمىٰ عن هذا القرآن. وعني بالغمرة: ما غمر قلوبهم فغطَّاها عن فهم ما أودع الله كتابه من المواعظ والعِبَر والحجج. وعني بقوله: ﴿مِّنۡ هَٰذَا﴾ من القرآن»[3].

أو«أي في غفلة وغطاء متحيرة. ويقال غمره الماء: إذا غطَّاه. ونهر يغمر من دخله ورجل غمر: تغمره آراء الناس. وقيل غمرة لأنَّها تغطِّي الوجه ومنه دخل في غمار الناس في قول من قال معناه فيما يغطِّيه من الجمع»[4].

ويقال: «يعني في غفلة عن الإيمان بهذا القرآن. ويقال هم في غفلة من هذا الذي وصفناه من كتابة الأعمال»[5].

---

(1) في ظلال القرآن 4/ 2473.

(2) المفردات في غريب القرآن (غ. م. ر) ص547.

(3) جامع البيان 19/ 48.

وينظر: تفسير القرآن للسمعاني 3/ 481، والكشف والبيان 7/ 351، ولباب التأويل 5/ 440، وتفسير القرآن العظيم 5/ 482.

(4) معاني القرآن للنحاس. تحقيق. محمد علي الصابوني 4/ 471 - جامعة أم القرىٰ - مكة المكرمة - الطبعة الأولىٰ 1409هـ.

(5) بحر العلوم. نصر بن محمد السمرقندي. تحقيق د. محمود مطرحي 2/ 485 - دار الفكر - بيروت.

وقد يقصد بذلك الكفر والشَّك[1].

فهذا القرآن الكريم كتاب ينطق بالحق والصِّدق والهدىٰ، آياته واضحات بيِّنات لا شبهة فيها ولا خلاف لمن يبغي الحقائق ولكن أن تبسط يدك بالنَّهار لا تراها فتحكم علىٰ بصرك بالعمىٰ -وقد عافاك الله منه- وعلىٰ بصيرتك بالجهالة فتجمع بين أمرين كلاهما أشدُّ سوءًا من الآخر فترىٰ وكأنَّك لا تري فذلك هو الخطب الأعظم، وقد رضي الكافرون المكذِّبون بذلك وأيقنوا به، حيث «يخبر تعالىٰ أنَّ قلوب المكذِّبين في غمرة من هذا، أيْ: وسط غمرة من الجهل والظُّلم والغفلة والإعراض، تمنعهم من الوصول إلىٰ هذا القرآن، فلا يهتدون به، ولا يصل إلىٰ قلوبهم منه شيء، ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ **[الإسراء: 45، 46]** فلما كانت قلوبهم في غمرة منه، عملوا بحسب هذا الحال، من الأعمال الكفريَّة، والمعاندة للشرع، ما هو موجب لعقابهم»[2].

فالجهل والظُّلم والغفلة والإعراض والغطاء والعمىٰ والضَّلال والكفر والشِّرك نتائج لعدم النَّظر في آيات القرآن الكريم فكلها تدخل في دائرته وهو ردُّ فعل طبيعي يوازي أو يساوي الكفر، فقلب الكافر ينتج جميع هذه الأمور فهو لا يعي ولا يفهم

---

(1) فتح القدير بين فني الرواية والدراية من علم التفسير. محمد بن علي الشوكاني 3/ 491 - دار الفكر - بيروت. و«اختيار أبي مسلم أن هذه الآيات من صفات المشفقين كأنَّه سبحانه قال بعد وصفهم: (ولا نكلف نفسًا إلا وسعها) ونهايته ما أتىٰ به هؤلاء المشفقون ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ﴾ يحفظ أعمالهم ﴿يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، بل نوفر عليهم ثواب كل أعمالهم ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ هو أيضًا وصف لهم بالحيرة كأنَّه قال وهم مع ذلك الوجل والخوف كالمتحيِّرين في جعل أعمالهم مقبولة أو مردودة ولهم أعمال من دون ذلك أي لهم أيضًا من النوافل ووجوه البرِّ سوىٰ ما هم عليه إمَّا أعمالاً قد عملوها في الماضي أو سيعملونها في المستقبل». مفاتيح الغيب 23/ 95.

(2) تيسير الكريم الرحمن ص554.

حقيقة القرآن، وكأنَّ بينه وبين الإدراك والفهم حجابًا، ومن ثَمَّ فما اتصفوا به لا يدخل في دائرة التَّعجب بل هو في سياقه الموضوعي الذي فرضه علىٰ نفسه وسَلَّمَ به.

## الشكل السادس: قسوة القلوب

من المسائل التي لا تقبل القسمة علىٰ اثنين ومن ثم لا تقبل التَّرجيح مسالة الاختيار، فتعدُّد الأشكال وتنوُّع الصور واختلاف الألوان لا مجال له هنا، فإمَّا أن تكون صاحب عقل راجح وفكر مستنير ورأي جرئ فتقف أمام عظمة القرآن الكريم وجلاله وقفة المحبِّين المستسلمين فيشرح الله صدرك للإسلام، ولكن أن تتشكَّل بصورة الإنسان يمكن أن تخاطِب وتخاطَب، والحقيقة تخدع الأبصار وتوهم العقول، فترىٰ قلوبًا الباطل أقرب إليها من شراك نعلها، وهدم الحق آية من آيات صدق حديثها ودليل من أدلة رفعتها وعلو شأنها فتعرض عن القرآن وتنأىٰ عنه فتجف منابع الخير فيها، فتلك هي القلوب القاسية من ذكر الله.

فهذان وجهان متناقضان وصورتان متعارضتان، لأصحاب القلوب الحيَّة والميِّتة وهما يشبهان قوله تعالىٰ: «﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾ **[الأنعام: 122]**[1].

قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ **[الزُّمَر: 22]**.

«هذه الآية تصوِّر حقيقة القلوب التي تتلقَّىٰ الإسلام فتنشرح له وتندىٰ به، وتصور حالها مع الله. حال الانشراح والتفتح والنَّداوة والبشاشة، والإشراق والاستنارة. كما تصوِّر حقيقة القلوب الأخرىٰ في قساوتها وغلظتها وموتها وجفافها، وعتمتها وظلامها، ومن يشرح الله صدره للإسلام ويمد له من نوره، ليس قطعًا كالقاسية قلوبهم من ذكر الله. وشتان بين هؤلاء وهؤلاء»[2].

إنَّ حياة القلوب بالقرآن كحياة النَّبات بالماء، وموت القلوب كصخرة قاسية لا يمكن أن يتفجَّر منها الماء «وكما ينزل الماء من السَّماء، فينبت لهم به زرعًا

---

(1) تفسير القرآن العظيم 7/ 93.

(2) في ظلال القرآن 5/ 3048.

مختلفًا ألوانه؛ كذلك ينزل من السماء ذكرًا تتلقَّاه القلوب الحيَّة، فتنفتح وتنشرح وتتحرَّك حركة الحياة، وتتلقَّاه القلوب القاسية كما تتلقَّاه الصخرة القاسية التي لا حياة فيها ولا نداوة ! والله يشرح للإسلام قلوبًا يعلم منها الخير، ويصلها بنوره فتشرق به وتستضيء. والفرق بين هذه القلوب وقلوب أخرىٰ قاسية فرق بعيد»[1].

والقسوة: غلظ القلب، وأصله من حجر قاس[2]، أو غلظ القلب ونبوه عن الرِّقة والموعظة وصلابته حتىٰ لا ينفعل لخير[3].

«والقسوة والقساوة توصف بها الأجسام وتوصف بها النُّفوس المعبَّر عنها بالقلوب فالمعنىٰ الجامع للوصفين هو عدم قبول التَّحول عن الحالة الموجودة إلىٰ حالة تخالفها. وسواء كانت القساوة موضوعة للقدر المشترك بين هذين المعنيين الحسِّي والقلبي وهو احتمال ضعيف، أم كانت موضوعة للأجسام حقيقة واستعملت في القلوب مجازًا وهو الصحيح، فقد شاع هذا المجاز حتىٰ ساوىٰ الحقيقة وصار غير محتاج إلىٰ القرينة فآل اللفظ إلىٰ الدلالة علىٰ القدر المشترك بالاستعمال لا بأصل الوضع»[4].

وعلىٰ ذلك فإنَّ «قسوة القلب: مستعار لقلَّة تأثر العقل بما يسدىٰ إلي صاحبه من المواعظ ونحوها»[5].

(1) السابق الجزء نفسه والصفحة.

(2) المفردات في غريب القرآن (ق. س. و) ص404. والقاسية قلوبهم قيل: أبو جهل وأتباعه من قريش، وقيل نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق ﵁وفي أبي بن خلف، وقيل: في علي وحمزة وفي أبي لهب وولده، وقيل في رسول الله ﷺ وفي أبي جهل.
ينظر: لباب التأويل 6/ 72، وتفسير العز بن سلام 1/ 101 - دار بن حزم - بيروت - تحقيق د. عبد الله بن إبراهيم الوهيبي - الطبعة الأولىٰ 1416هـ-1996م.

(3) المحرر الوجيز. ابن عطية الأندلسي. تحقيق. عبد السلام عبد الشافي محمد 2/ 198 - دار الكتب العلمية - لبنان - الطبعة الأولىٰ 1413هـ-1993م. وينظر: لباب التأويل 6/ 72.

(4) التحرير والتنوير 1/ 562.

(5) السابق 23/ 382.

وقساوة القلوب في الآية تتجه نحو دلالة الإعراض والانصراف عن القرآن الكريم، وأصحاب هذه القلوب لهم الويل والعقاب «فويل للذين جفت قلوبهم ونأت عن ذكر الله وأعرضت، يعني عن القرآن الذي أنزله الله تعالىٰ ذكره، مذكرًا به عباده، فلم يؤمن به، ولم يصدِّق بما فيه»(1).

وعلىٰ ذلك فـ «المراد بذكر الله القرآن وإضافته إلىٰ الله زيادة تشريف. والمعنىٰ: أنَّهم إذا تليت آية اشمأزُّوا فتمكَّن الاشمئزاز منهم فقست قلوبهم. وحاصل المعنىٰ: أنَّ كفرهم يحملهم علىٰ كراهية ما يسمعونه من الدَّعوة إلىٰ الإسلام بالقرآن فكلَّما سمعوه أعرضوا وعاندوا وتجدَّدت كراهية الإسلام في قلوبهم حتىٰ ترسَّخ تلك الكراهية في قلوبهم فتصير قلوبهم قاسية»(2).

فهذه القلوب قد وصفت بالقسوة؛ لأنَّها إذا لم تستجب للقرآن الكريم فهي من باب أولىٰ لا تستجيب لغيره، فتعذَّر وصول الخير إليها علىٰ وجه الإجمال، فهي قلوب لا تتفجَّر إلا بالشَّرِّ ولا تلين إلا للضَّلال، ولا تستمع إلا لنداء الشَّيطان، فهي «لا تلين لكتابه، ولا تتذكَّر آياته، ولا تطمئن بذكره، بل هي معرضة عن ربِّها، ملتفتة إلىٰ غيره، فهؤلاء لهم الويل الشَّديد، والشَّرُّ الكبير ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ وأي ضلال أعظم من ضلال مَنْ أعرض عن وليه؟ ومن كل السَّعادة في الإقبال عليه، وقسا قلبه عن ذكره، وأقبل علىٰ كل ما يضره؟!!»(3).

ولما كانت قسوة القلوب هي عنوان هذا التَّصنيف كان لابد من تفسير هذا العنوان وطرح السؤال والجواب وما بين القوسين يحمل هذا التَّوضيح، فـ «فيه سؤال، وهو أنَّ ذكر الله سبب لحصول النُّور والهداية وزيادة الاطمئنان كما قال: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ **[الرعد: 28]** فكيف جعله في هذه الآية سببًا لحصول قسوة القلب، والجواب أن نقول إنَّ النَّفس إذا كانت خبيثة الجوهر كدرة

(1) جامع البيان 21/ 278.

(2) التحرير والتنوير 23/ 382.

(3) تيسير الكريم الرحمن ص772. وينظر: تفسير القرآن العظيم 7/ 93.

العنصر بعيدة عن مناسبة الروحانيات شديدة الميل إلىٰ الطبائع البهيمية والأخلاق الذَّميمة، فإنَّ سماعها لذكر الله يزيدها قسوة وكدورة، وتقرير هذا الكلام بالأمثلة فإنَّ الفاعل الواحد تختلف أفعاله بحسب اختلاف القوابل كنور الشَّمس يسود وجه القصار ويبيض ثوبه، وحرارة الشمس تلين الشمع وتعقد الملح، وقد نرىٰ إنسانًا واحدًا يذكر كلامًا واحدًا في مجلس واحد فيستطيبه واحد ويستكرهه غيره، وما ذاك إلا ما ذكرناه من اختلاف جواهر النُّفوس ومن اختلاف أحوال تلك النُّفوس ... إذا عرفت هذا لم يبق أيضًا أن يكون ذكر الله يوجب النُّور والهداية والاطمئنان في النُّفوس الطَّاهرة الروحانية، ويوجب القسوة والبعد عن الحق في النُّفوس الخبيثة الشَّيطانية، إذا عرفت هذا فنقول إنَّ رأس الأدوية التي تفيد الصِّحة الروحانية ورئيسها هو ذكر الله تعالىٰ، فإذا اتَّفق لبعض النُّفوس أن صار ذكر الله تعالىٰ سببًا لازدياد مرضها كان مرض تلك النَّفس مرضًا لا يرجىٰ زواله ولا يتوقع علاجه وكانت في نهاية الشَّرِّ والرَّداءة، فلهذا المعنىٰ قال تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ . . »(1).

وعلىٰ ذلك: «كان القرآن أن سبب اطمئنان في قلوب المؤمنين.

قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾. وكان سببًا في قساوة قلوب الكافرين. وسبب ذلك اختلاف القابلية فإنَّ السَّبب الواحد تختلف آثاره وأفعاله باختلاف القابلية، وإنَّما تعرف خصائص الأشياء باعتبار غالب آثارها في غالب المتأثرات، فذكر الله سبب في لين القلوب وإشراقها إذا كانت القلوب سليمة من مرض العناد والمكابرة والكبر، فإذا حَلَّ فيها هذا المرض صارت إذا ذكر الله عندها أشد مرضًا مما كانت عليه»(2).

---

(1) مفاتيح الغيب. فخر الدين الرازي 26/ 232 - دار الكتب العلمية - بيروت - 1421هـ-2000م.
وينظر: لباب التأويل 6/ 72.

(2) التحرير والتنوير 23/ 382.

ومن هنا فباب السَّماع الخاص بتلاوة القرآن يقابله في هذا النوع قسوة القلوب، فماذا ينتظر من الكافر في هذه الحالة سوىٰ هذا الجحود الذي ينكر الحق ولا يلين لسماعه؟! فإذا كانت الأرض القاسية الصُّلْبة لا تتفجَّر بالنَّبات لعدم قبول الماء فكذلك قلوب هؤلاء لا تنتج خيرًا لأنَّها لم تقبله ولم تتذوق طعمه.

## الشكل السابع: أقفال القلوب

قد يقرأ بعض الناس مئات بل ألآلف الكتب بين فنون مختلفة من فنون العلم والثَّقافة ويصل في مرحلة الإدراك إلىٰ درجة الإبداع فيقدِّم الولاء والشُّكر لتلك الظُّروف التي أنعمت عليه بلقب القارئ الجيد والتي هيَّئته ومكَّنته من تحويل قراءاته إلىٰ فكر ينبض في قلوب الآخرين ولكن شيئًا ما يحول بينه وبين تدبُّر آيات الذِّكر الحكيم، فإذا قرأ لم يفهم وإذا فهم لم يتدبَّر وكأنَّ قلبه في واد وعالم القرآن الكريم في واد آخر، وهذه هي مأساة المنافقين الذي طلبوا أن تحجب عنهم الهداية فحجبها الله عنهم، فقد ترىٰ من بعيد الحقَّ علىٰ وجوههم والصِّدق في أحاديثهم ولكن اقترب حتىٰ ترىٰ الأشياء علىٰ حقيقتها وأقفال القلوب تسيطر علىٰ عالمهم.

فقد ينفتح قلب الكافر في يوم من الأيام ويطلب الهداية، أما قلب المنافق فإنَّه من الصَّعب بل من المستحيل أن ينفتح للإيمان بعد أن ذاق مرارة النِّفاق، لذلك كان التَّعبير في هذا الشَّكل بأقفال القلوب.

فالصَّفحة تبدو بيضاء أو سوداء بمجرد النَّظر إليها لا تحتاج إلىٰ تعليق، وهذه أو تلك تفصح عن نفسها وتعلن عن مبدئها دون خوف أو وجل فتتعامل معها من هذا المنطلق ولكن أن تتوارىٰ خلف ستار الإيمان فتعلن أمام الملأ الصِّدق وإخلاص النيَّة فتبدو كالصَّدِّيق أبي بكر والحقيقة أنَّ في القلب ظلامًا كظلمة قلب أبي جهل وربَّما أكثر، فتلك هي المأساة، حيث تصوِّر لخلق الله أنَّك ملك مقرَّب ولكن بينك وبين نفسك فأنت أشدُّ عليهم من إبليس، حيث صدق إبليس مع نفسه فأعلن العصيان صراحة ولكنك كذبت علىٰ نفسك وكذَّبت ربَّك، هذا هو حال المنافقين الذين يقرءون الغثَّ فينتفعون به ويتأثَّرون، ولكن مع كتاب الهداية والرَّشاد تجد علىٰ القلوب أقفالها.

و«القفل جمع أقفال. يقال: أقفلت الباب. ويستعمل ذلك مثلاً لكل مانع للإنسان من تعاطي فعل فيقال: فلان مقفل عن كذا.

قال تعالىٰ: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾»[1].

ومع تفسير وتوضيح أقفال القلوب في قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ اختلفت العبارات وتنوَّعت ولكن مع شيء من التَّقارب والتَّآلف فتارة تكون بمعنىٰ الرَّين وذلك علىٰ معنىٰ «بل علىٰ قلوب أقفالها وهو الرَّين الذي منعهم من الإيمان»[2]، فهو «استعارة للرَّين الذي منعهم الإيمان»[3].

وتارة بمعنىٰ الختم، «يعني أقفل علىٰ قلوبهم ومعناه أن أعمالهم لغير الله ختم علىٰ قلوبهم»[4].

وتارة أخرىٰ بمعنىٰ القاسية، أي «أم علىٰ قلوب أقفالها قاسية»[5].

وقد تكون بمعنىٰ الطَّبع «يعني الطَّبع علىٰ القلوب»[6].

ومن العلماء من فرَّق بين بعض المقاربات في الدلالة، حيث «قال أبو معاذ: الرَّان أن يسودّ القلب من الذنوب، والطَّبع أن يطبع علىٰ القلب وهو أشدّ من الرَّان، والأقفال أشدّ من الطَّبع، وهو أن يقفل علىٰ القلب، قال تعالىٰ: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾»[7].

و«نكرت القلوب لأنَّ المراد علىٰ قلوب قاسية منهم أمرها في ذلك»[8].

«والأقفال استعارة لانغلاق القلب عن معرفة الحق. وإضافة الأقفال

---

(1) محمد من الآية 24. المفردات في غريب القرآن (ق. ف. ل) ص409.

(2) الجواهر الحسان في تفسير القرآن (تفسير الثعالبي). أحمد بن محمد الثعالبي 4/ 168 - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت.

(3) المحرر الوجيز 5/ 105.

(4) بحر العلوم 3/ 288.

(5) البحر المحيط 8/ 82.

(6) تفسير مقاتل بن سليمان. تحقيق. أحمد فريد 3/ 239 - دار الكتب العلمية - لبنان - بيروت - الطبعة الأولىٰ 1424هـ-2003م.

(7) تفسير السراج المنير 4/ 366.

(8) تفسير النسفي 4/ 124.

إلىٰ القلوب للتنبيه علىٰ أن المراد بها ما هو للقلوب بمنزلة الأقفال للأبواب. ومعنىٰ الآية أنَّه لا يدخل في قلوبهم الإيمان ولا يخرج منها الكفر والشِّرك لأنَّ الله سبحانه قد طبع عليها والمراد بهذه القلوب قلوب هؤلاء المخاطبين»(1).

وقد «أضيفت الأقفال إلىٰ القلوب لأنَّ المراد الأقفال المختصَّة بها وهي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تفتح نحو الرَّين والختم والطبع»(2).

وإن كانت تعبيرات المفسِّرين قريبة الشَّبه بدلالة الأقفال في الآية إلا أنَّ كل تعبير له أسرار خاصَّة في سياقه، فالراجح أنَّ التَّعبير بالأقفال يوحي بدلالة الإغلاق التَّام الذي أحكم واشتدَّ غلقه فلا يمكن أن يرىٰ النور أبدًا وكأنَّ هذه القلوب قد فطرت علىٰ الشَّرِّ فاشتدَّ عوده مع صباها واكتمل مع شبابها فلا يمكن أن تقبل الخير بأيِّ حال من الأحوال، «أي: قد أغلق علىٰ ما فيها من الشَّرِّ وأقفلت، فلا يدخلها خير أبدًا هذا هو الواقع»(3).

إذًا فالسؤال واضح وصريح يحمل جانب التَّوبيخ والإنكار «أفلا يتدبَّر هؤلاء المنافقون مواعظ الله التي يعظهم بها في آي القرآن الذي أنزله علىٰ نبيِّه -عليه الصلاة والسلام- ويتفكَّرون في حُججه التي بَيَّنها لهم في تنزيله فيعلموا بها خطأ ما هم عليه مقيمون ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ يقول: أم أقفل الله علىٰ قلوبهم فلا يعقلون ما أنزل الله في كتابه من المواعظ والعِبَر»(4).

«﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ يعني يتفكَّرون فيه وفي مواعظه وزواجره وأصل التَّدبُّر التَّفكُّر في عاقبة الشيء وما يؤول إليه أمره. وتدبُّر القرآن لا يكون إلا مع حضور القلب وجمع الهم وقت تلاوته ويشترط فيه تقليل الغذاء من الحلال الصِّرف

(1) فتح القدير بين فني الرواية والدراية من علم التفسير. محمد بن علي الشوكاني 5/ 38 - دار الفكر - بيروت.

(2) تفسير النسفي 4/ 124.

(3) تيسير الكريم الرحمن ص930.

(4) جامع البيان 22/ 79.

وخلوص النيَّة ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ يعني بل علىٰ قلوب أقفالها وجعل القفل مثلاً لكل مانع للإنسان في تعاطي فعل الطَّاعة. يقال: فلان مقفل عن كذا بمعنىٰ ممنوع منه»[(1)].

«فإن قلت: إذا كان الله تعالىٰ قد أصمَّهم وأعمىٰ أبصارهم وأقفل علىٰ قلوبهم وهو بمعنىٰ الختم فكيف يمكنهم تدبُّر القرآن مع الموانع الشَّديدة. قلت: تكليف ما لا يطاق جائز عندنا، لأنَّ الله أمر بالإيمان لمن سبق في علمه أنَّه لا يؤمن فكذلك هنا والله يفعل ما يريد لا اعتراض لأحد عليه. وقيل: إنَّ قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ المراد به التَّأسِّي. وقيل: إنَّ هذه الآية محققة للآية المتقدِّمة وذلك أنَّ الله تعالىٰ لما قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ **[محمد: 23]**. فكان قوله: أفلا يتدبَّرون القرآن كالتهييج لهم علىٰ ترك ما هم فيه من الكفر الذين استحقُّوا بسببه اللعنة أو كالتَّبكيت لهم علىٰ إصرارهم علىٰ الكفر. والله أعلم بمراده»[(2)].

«ومعلوم أن كل من لم يشتغل بتدبُّر آيات هذا القرآن العظيم أي تصفحها وتفهمها، وإدراك معانيها والعمل بها، فإنَّه معرض عنها، غير متدبِّر لها، فيستحق الإنكار والتَّوبيخ المذكور في الآيات إن كان الله أعطاه فهمًا يقدر به علىٰ التدبُّر، وقد شكا النبي ﷺ إلىٰ ربِّه من هجر قومه هذا القرآن، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ **[الفرقان: 30]**. وهذه الآيات المذكورة تدل علىٰ أن تدبُّر القرآن وتفهُّمه وتعلُّمه والعمل به أمر لابدَّ منه للمسلمين»[(3)].

فعدم التَّدبُّر والتَّفكُّر في هذا الباب الخاصِّ بآيات القرآن الكريم ناسبه أقفال

(1) لباب التأويل 6/ 182.
(2) السابق الجزء نفسه والصفحة.
(3) أضواء البيان 7/ 429.

قلوب المنافقين التي حبست كل خير ومنعته من أداء دوره في هداية الخلق، فإذا كانت هذا القلوب قد منعتها هذه الأقفال وهذا الانغلاق من الإيمان بهذا الكتاب العزيز فكيف تتدبَّر في آياته.

## الشكل الثامن: أكِنَّة القلوب

أصبحت آيات القرآن الكريم تُتْلىٰ علىٰ مسامعنا الآن صباح مساء باختلاف النَّغمات وجميل الأصوات مع تعدُّد السُّبل والوسائل وتنوع أشكالها فترىٰ القلوب التي تشبه الحجارة الصَّمَّاء قد تحوَّلت وتبدَّلت إلىٰ زهرة نديَّة وجنَّة خضراء، قد ينشغل المسلم عنه بعض الوقت وتستهويه وتنفرد به شهوات وضرورات الحياة ولكنَّه يعود إليه يومًا ما طالبًا من ربه الصَّفح والعفو والغفران فتعود إليه الحياة التي افتقدها والرُّوح التي كادت أن تبلغ الحلقوم، ولكن ماذا يريد الكافر من القرآن؟

عندما يستعير الإنسان ذاكرة وفكر الشيطان يفكِّر ويخطِّط له، يستمع لآيات القرآن الكريم بهدف تحقيق الباطل بلا وعي ولا تدبُّر وإذا تذكَّر وانتبه أعرض والسِّرُّ في ذلك أنَّه سعيد بكفره راض به، لا تؤثِّر الآيات في تغيير مسار حياته أو تحويل وجهة قلبه، دعا ربَّه وألحَّ في الدُّعاء أن يكون قلبه في أكِنَّة وحجاب عن فهم القرآن ففتحت له أبواب السماء.

يظل العقل عاقلاً مدركًا لحقائق الأمور ما دام يسبح في الاتِّجاه الصَّحيح، له نقطة بداية ونهاية، يعلم حدوده وغايته، ولكنَّه عندما يغيب عن أرض الواقع ويحيد عن التَّفكير الصَّحيح المستقيم فلن تقبله جنَّة السَّماء العلوية، ولن تسعد به النُّفوس الذَّكية في جنَّتها الأرضيَّة، والحال كذلك عندما يستقبل الدُّنيا هذا القلب الذي أغلق ومنع من النَّظر والتَّأمُّل بحكمة في كلام الله تعالىٰ -القرآن الكريم-، وانساق وراء سراب لا يدرك بدايته من نهايته، فغطِّي بغطاء من الجهل، وغلِّف بغلاف السَّفه وسوء التَّقدير، فالهدف مع هذا الشَّكل ليس إدراك سر الحياة، والوقوف علىٰ مقاصدها وإنَّما الهدف طمس معالم الحق ورفع راية الباطل كحالة من يهذي هذيان السكران الذي لا يفيق ولا يريد أن يفيق بل يريد أن يظلَّ دائمًا في حالة الغياب الكامل عن الإدراك كما يصوِّر له خياله.

وهذا الشَّكل هو ما عبَّر عنه القرآن الكريم بـ (أكِنَّة القلوب)، «والكنان: الغطاء الذي يكن فيه الشيء. والجمع أكِنَّة، نحو غطاء وأغطية»[1].

فالأكِنَّة مرض من أمراض القلوب ذكره الله ﷻ مرتبطًا بقلوب المعرضين عن القرآن الكريم في أربعة مواضع لكل موضع منها هدف وغاية:

**الموضع الأول: الاستماع بهدف تحقيق الباطل:**

قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ **[الأنعام: 25]**.

الحقُّ عند المُشرك بعيد المقصد عزيز الغاية، عليه هالات من الأتربة كادت أن تشبه الجبال، في حين تجد الباطل عنده رفيق الدَّرب أنيس الوحشة والوحدة واضحًا وضوح الشمس للعيان، تدفعه رغبة التَّشكيك وإلقاء الشبهات وتحقيق الباطل وشفاء مرض القلوب إلىٰ اختلاس لحظات من عمر الزَّمن ربَّما تكون هي أسعد اللحظات إلىٰ الاستماع لآيات الذِّكر الحكيم ومقصوده ليست الهداية وإنَّما الضَّلال والغواية، يحاول أن يقترب بأُذُنه من مصدر الصَّوت حتىٰ يوهم الآخرين أنَّه يستمع بغاية الفهم والإدراك ولكنَّ الحقيقة أنَّه لا يتدبَّر ولا يفهم حتىٰ يصل أثر ذلك إلىٰ القلوب فيتحوَّل هذا الاستماع إلىٰ ضربات قاسية موجعة تظهر أثرها في هذا الخطاب الذي يسم فيه القرآن الكريم بأنَّه أساطير الأولين، وقبل أن يدعوك هذا المشهد إلىٰ طرح السؤال والبحث عن الجواب انظر إلىٰ لفظة (الأكنَّة) وما تحويه وما ترمز إليه من دلالة الأغطية التي أمسكت بنبضات القلب أن تنبض بالصِّدق والهدىٰ وآثرت البقاء في عالم الضَّلالة، والتي خصَّهم الله بها لما علم من عدم استعدادهم للإيمان والهداية وتعطيل جميع الجوارح التي منحهم الله إياها.

---

(1) المفردات في غريب القرآن (ك. ن. ن) ص442. وينظر: لسان العرب 5/ 3943.

إذًا فهم يستمعون، «ولكنَّه استماع خال من قصد الحق واتِّباعه، ولهذا لا ينتفعون بذلك الاستماع لعدم إرادتهم للخير»[1].

فهؤلاء هم علية القوم، أدعياء أصحاب النهي -منهم- «من يستمع القرآن منك، ويستمع ما تدعوه إليه من توحيد ربِّك، وأمره ونهيه، ولا يفقه ما تقول إنَّما يسمع صوتك وقراءتك وكلامك، ولا يعقل عنك ما تقول، لأنَّ الله قد جعل علىٰ قلبه «أكِنَّة» »[2].

«وأسند جعل تلك الحالة في قلوبهم إلىٰ الله تعالىٰ لأنَّه خلقهم علىٰ هذه الخصلة الذَّميمة والتَّعقل المنحرف، فهم لهم عقول وإدراك لأنَّهم كسائر البشر، ولكن أهواءهم تخير لهم المنع من اتِّباع الحقِّ، فلذلك كانوا مخاطبين بالإيمان مع أن الله يعلم أنهم لا يؤمنون إذ كانوا علىٰ تلك الصفة، علىٰ أن خطاب التكليف عام لا تعيين فيه لأناس ولا استثناء فيه لأناس. فالجعل بمعنىٰ الخلق وليس التَّحويل من حال إلىٰ حال. وقد مات المسمون كلهم علىٰ الشرك عدا أبا سفيان فإنَّه شهد حينئذ بأنَّ ما سمعه حقٌّ، فدلَّت شهادته علىٰ سلامة قلبه من الكِنَان»[3].

**الموضع الثاني: ستر الحقائق والانقياد للباطل:**

قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ **[الإسراء: 46].**

يعيد الكافر الكرَّة مرَّة أخرىٰ فتجره قدماه إلىٰ تتبع آثار الصوت تاركًا لأذنيه العنان حتىٰ تستمع لآيات القرآن الكريم ولكن طبيعته الفاسدة تحول بينه وبين التدبُّر والتذكُّر، حيث أعلن التَّكذيب والإعراض فأطفأ الله نور الحقيقة في قلبه وألحقه بباب المعرضين.

فالإعداد الجيد أمارة من أمارات النَّجاح وضريبة الإعراض عن القرآن الفشل والضعف والخذلان، وأنت في هذا المشهد ترىٰ كبراء القوم من المشركين مرَّة

(1) تيسير الكريم الرحمن ص253.

(2) جامع البيان 11/ 305.

(3) التحرير والتنوير 7/ 179، 180.

أخرىٰ يعيدون كرَّة الاستماع إلىٰ آيات القرآن الكريم وتتأثَّر بالاستماع إليه قلوبهم فتدعوهم إلىٰ الإيمان به والتَّصديق ولكنَّهم يحجبون عنها رؤية الحق فيقررون عدم الاستماع ويتعاهدون علىٰ ذلك فيما بينهم فتكون الأكِنَّة نتيجة حتميَّة ومنحة إلهية لتلك الطَّبيعة الفاسدة التي غيبت عنها معالم الحقِّ السَّاطعة وآيات الهداية الظَّاهرة فكشفت عن نواياهم ومقاصدهم الفاسدة فجعل الله ﷻ بينهم وبين فهم وتدبُّر آياته حجابًا مستورًا.

والتفسير يوضح هذه المعاني «﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ الذي فيه الوعظ والتَّذكير، والهدىٰ والإيمان، والخير والعلم الكثير ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ يسترهم عن فهم حقيقته، وعن التَّحقيق بحقائقه، والانقياد لما يدعو إليه من الخير»[1].

وقد ظهر أثر ذلك في هذه القلوب «مما يتغشَّاها من خِذلان الله إياهم عن فهم ما يُتلىٰ عليهم»[2].

**الموضع الثالث: الإعراض بعد التذكُّر سمة المستهزئين:**

قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ **[الكهف: 57].**

قد تصبح الحياة وتمسي في حياة بعض الناس بلا عنوان، لا يرتجىٰ منهم خير ولا ينتظر منهم فهم أو إدراك مادام الشَّيطان قد لعب بأفكارهم وداعب خيالاتهم، عرضت عليهم آيات الله ﷻ من أجل التذكُّر والتَّفكُّر بغية الهداية ولكنَّها صدَّت وأعرضت فحقَّق الظُّلم من خلالهم أقصىٰ أمانيه، فليس في عرف الزَّمن جريمة تعادل هذه الجريمة، ففي هذه الآية «يخبر تعالىٰ أنَّه لا أعظم جرمًا ولا أكبر جرمًا من عبد ذُكِّر بآيات الله وبين له الحق من الباطل، والهدىٰ من الضلال،

---

(1) تيسير الكريم الرحمن ص459.

(2) جامع البيان 17/ 458.

وخوف ورهب ورغب، فأعرض عنها فلم يتذكَّر بما ذكِّر به، ولم يرجع عما كان عليه، ونسي ما قدمت يداه من الذُّنوب، ولم يراقب علام الغيوب، فهذا أعظم ظلمًا من المعرض الذي لم تأته آيات الله، ولم يذكَّر بها، وإن كان ظالمًا، فإنَّه أخف ظلمًا من هذا، لكون العاصي علىٰ بصيرة وعلم، أعظم ممن ليس كذلك ولكن الله عاقبه بسبب إعراضه عن آياته، ونسيانه لذنوبه، ورضاه لنفسه حالة الشَّرِّ مع علمه بها أن سدَّ عليه أبواب الهداية»[1].

فالعدل أن تنزع من هؤلاء تلك القلوب التي تفقه وتعقل وتمنح قلوبًا عليها أكِنَّة وآذانًا بها صَمَم فلا تفقه ولا تسمع الحقَّ ولا تستجيب له، «فهؤلاء الذين يستهزئون بآيات الله ونذره لا يرجىٰ منهم أن يفقهوا هذا القرآن، ولا أن ينتفعوا به. لذلك جعل الله علىٰ قلوبهم أغطية تحول دون فقهه، وجعل في آذانهم كالصمم فلا يستمعون إليه، وقدَّر عليهم الضَّلال -بسبب استهزائهم وإعراضهم- فلن يهتدوا إذًا أبدًا. فللهدىٰ قلوب متفتِّحة مستعدَّة للتلقِّي»[2].

**الموضع الرابع: الرِّضا بالكفر:**

قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ **[فصلت: 5]**.

من الخطأ أن أظنَّ أنِّي لا أخطئ حتىٰ يمكن أن أتنسم عبير الإيمان وتبرأ نفسي من جميع العلل والأسقام ولكن أن أعلن الكفر صراحة وأرضىٰ به دينًا وكأنَّما قد عادت به إلي الحياة فأعرض عن القرآن الكريم صراحة فلا أسمع حتىٰ إذا سمعت فلا أفقه ولا أتدبَّر فتلك هي الكارثة التي حلت بديار قوم كافرين؛ وذلك لأنَّ الكفار «صرحوا للنبي ﷺ، بأنَّهم لا يستجيبون له ولا يؤمنون به، ولا يقبلون منه ما جاءهم به فقالوا له قلوبنا التي نعقل بها، ونفهم في أكنة، أي

(1) تيسير الكريم الرحمن ص480. وينظر: تفسير القرآن العظيم 5/ 72.

(2) في ظلال القرآن 4/ 2276.

أغطية. والأكنة جمع كنان، وهو الغطاء والغلاف الذي يغطي الشيء ويمنعه من الوصول إليه. ويعنون أن تلك الأغطية، مانعة لهم من فهم ما يدعوهم إليه ﷺ»[1].

وعلىٰ ذلك فهم في هذه الحالة «قد أظهروا الإعراض عنه من كل وجه، وأظهروا بغضه والرِّضا بما هم عليه، ولهذا قالوا: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ أي: كما رضيت بالعمل بدينك، فإنَّا راضون كل الرِّضا بالعمل في ديننا، وهذا من أعظم الخذلان، حيث رضوا بالضَّلال عن الهدىٰ، واستبدلوا الكفر بالإيمان، وباعوا الآخرة بالدنيا»[2].

فهم بذلك قد أغلقوا جميع منافذ الدعوة حتىٰ يتمكَّن الكفر من قلوبهم وحتىٰ لا يعاود الرسول ﷺ محاولة إصلاح هذا الفساد، وقد «قالوا هذا إمعانًا في العناد، للرسول ﷺ ليكف عن دعوتهم، لما كانوا يجدونه في قلوبهم من وقع كلماته، علىٰ حين يريدون عامدين ألا يكونوا مؤمنين! قالوا: قلوبنا في أغطية فلا تصل إليها كلماتك، وفي آذاننا صمم فلا تسمع دعوتك، ومن بيننا وبينك حجاب، فلا اتصال بيننا وبينك، فدعنا واعمل لنفسك فإنَّنا عاملون لأنفسنا، أو أنَّهم قالوا غير مبالين: نحن لا نبالي قولك وفعلك، وإنذارك ووعيدك، فإذا شئت فامض في طريقك فإنَّا ماضون في طريقنا، لا نسمع لك وافعل ما أنت فاعل، وهات وعيدك الذي تهدِّدنا به غير مبالين»[3].

فهذه آيات أربع ترىٰ الأكِنَّة قد سيطرت علىٰ القلوب حتىٰ تمكَّنت منها فتجد الفاعل الله في الآيات الثلاثة الأولىٰ، والآية الرابعة تراها من فعل أنفسهم فكيف يمكن الجمع بينهما؟.

---

(1) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. محمد الأمين الشنقيطي 7/ 108 - مكتبة ابن تيمية - القاهرة - 1425هـ-1995م.

(2) تيسير الكريم الرحمن ص744.

(3) في ظلال القرآن 5/ 3108.

«وهذا الإشكال الذي أشرنا إليه في هذه الآيات قوي، ووجه كونه مشكلاً ظاهرًا لأنَّه تعالىٰ ذمَّهُم علىٰ دعواهم الأكِنَّة والوقر والحجاب في هذه الآية الكريمة من فصلت، وبيَّن في الآيات الأخرىٰ أنَّ ما ذمَّهم علىٰ ادِّعائه واقع منهم فعلاً، وأنَّه تعالىٰ هو الذي جعله فيهم. فيقال: فكيف يذمُّون علىٰ قول شيء، وهو حقٌّ في نفس الأمر. والتَّحقيق في الجواب عن هذا الإشكال، هو ما ذكرناه مرارًا، من أنَّ الله إنَّما جعل علىٰ قلوبهم أكنَّة، وطبع عليها وختم عليها، وجعل الوقر في آذانهم، ونحو ذلك من الموانع من الهدىٰ، بسبب أنَّهم بادروا إلىٰ الكفر، وتكذيب الرُّسل طائعين مختارين، فجازاهم الله علىٰ ذلك الذَّنب الأعظم، طمس البصيرة والعمىٰ عن الهدىٰ، جزاء وفاقًا. فالأكِنَّة والوقر والحجاب المذكورة إنَّما جعلها الله عليهم، مجازاة لكفرهم الأول. ومن جزاء السَّيئة، تمادي صاحبها في الضَّلال، ولله الحكمة البالغة في ذلك. والآيات المصرحة بمعنىٰ هذا كثيرة في القرآن، كقوله تعالىٰ: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾ **[النساء: 155]**. فقول اليهود في هذه الآية ﴿قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ﴾ كقول كفَّار مكَّة: ﴿قُلُوبُنَا﴾ ﴿فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾ لأنَّ الغلف، جمع أغلف وهو الذي عليه غلاف، والأكنَّة جمع كنان، والغلاف والكنان كلاهما بمعنىٰ الغطاء السَّاتر ...»[1].

إذًا فمن الممكن أن يغيب عنك الحقُّ فلا تستطيع إدراكه فترة من الزَّمن ولكن تظل في حالة بحث دائب حتىٰ تصل إليه، وعندما تصل إليه لا يمكن أن تفرط فيه أو أن تتنازل عنه ولو كيلت لك الدنيا بميزان الذَّهب والفضَّة، فأنت في هذه الحالة تقف علىٰ أرض صلبة، تمتد يداك يمينًا أو يسارًا فتجد الحقَّ طوع بنانك ولكن أن تصرخ بأعلىٰ صوتك وتجهر بكلمة الكفر وتصرح بها فتعلن أمام الملأ بأنَّ بينك وبين القرآن الكريم حجابًا مستورًا لا يمكن أن يلين له قلبك في يوم من الأيام لأنَّه قد غلِّف بطبقات بعضها فوق بعض من الكِبْر والتَّعالىٰ والفخر، فهي في الحقيقة ليست أغطية أو طبقات بل هي بتعبير القرآن الكريم ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا

(1) أضواء البيان 7/ 109، 110.

﴿فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور: 40]، فعندما أعلن المشركون ذلك وصرَّحوا به وكتبوا شهادة وفاتهم بأيديهم حكم الله ﷻ عليهم من فوق سبع سماوات وفي مواضع ثلاثة من قرآنه الكريم بحكمه الذي يتوافق مع طباعهم الخبيثة ونفوسهم اللئيمة التي أبت أن تؤمن أو علىٰ الأقل تسمع فتحكم، حتىٰ عندما سمعت فلم يكن الهدف منه الهداية وطلب الإيمان وإنَّما الضَّلالة والكفر فكتب الله عليهم الصَّدَّ والإعراض وعدم الفقه والعلم.

إذًا فدلالة (الأكِنَّة) في جميع المواضع تعني في السياق القرآني «أغطية وأغشية، لا يفقهون معها القرآن، بل يسمعونه سماعًا تقوم به عليهم الحُجَّة ... وإن سمعتها فليس في إمكانها الفقه الذي يصل إلىٰ القلب»[1].

فـ«الكنان: الغطاء؛ لأنَّه يكنُّ الشيء، أي يستره. وهي هنا تخييل لأنَّه شبهت قلوبهم في عدم خلوص الحقِّ إليها بأشياء محجوبة عن شيء. وأثبتت لها الأكِنَّة تخييلاً، وليس في قلب أحدهم شيء يشبه الكِنَان»[2].

إذًا فالهدف واحد وإن اختلفت أشكاله وتعدَّدت ألوانه، فما دام الكافر قد رضي بكفره واطمأنَّ به قلبه فلا غاية له إلا نشر الباطل ولا مجال عنده للفهم والتَّدبُّر؛ وذلك لأنَّ من سمته الإعراض بعد التذكُّر، لذلك فعلىٰ قلبه غطاء لا يستطيع معه أن يعقل أو يفهم وهي دلالة مجازية عن طريق الاستعارة، فكان التَّعبير بالأكِنَّة هو المناسب لهذه الحالة.

---

(1) تيسير الكريم الرحمن 459، 480.

(2) التحرير والتنوير 7/ 179.

## الشكل التاسع: مرض القلوب

يطير الحق بألف جناح يراه الصالحون من عباد الله فيقتنعون به فيعتنقوه، فالحقُّ له جلاله وقدره وعظمته ويكفيه أنَّه الحقُّ، فقد تكون يد الحقِّ ضعيفة في بعض الأحيان وإن امتلكت أسباب القوة بأساليب الحُجَّة والبرهان فتراه مهيض الجناح تقتنع به ولكن لا تستطيع أن تعتنقه فيتوارىٰ وراء الحجب، ولكن عندما يعود، يعود وبقوَّة، حتىٰ إذا ما دخل القلوب لا يمكن أن يخرج منها أبدًا حتىٰ وإن تكالبت عليه جميع قوىٰ الأرض -فالحقُّ أحقُّ أن يتبع-، وكم من شبهات أثيرت وفتن سيطرت علىٰ كثير من القلوب ولكن يظل للحق اليد الطولىٰ التي لا يمكن أن تقاوم.

وفي مواضع ثلاثة ترىٰ القرآن الكريم وجهًا لوجه أمام المنافقين يفضح سرائر وحقد قلوبهم:

### الحالة الأولىٰ: الأوامر والنواهي:

في هذه الحالة عندما تنزل السُّورة من القرآن الكريم وفي أهم حالة اختبار في حياة بني البشر ترىٰ قلوب المؤمنين في حالة استسلام كامل ملئ بالبِّشر والسَّعادة والسُّرور يزداد إيمانها ويقينها بالله ﷻ بخلاف قلوب المنافقين التي أصابها المرض فتزداد كفرًا وضلالاً وشكًّا وإثمًا، حيث يقول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ **[التوبة: 124، 125].**

ومرض القلوب قد توجه دلالته إلىٰ إحدىٰ الدَّلالات الأربع السابقة، حيث قيل: «﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك ونفاق ﴿فَزَادَتْهُمْ﴾ كفرًا إلىٰ كفرهم وضلالاً إلىٰ ضلالهم وشكًّا إلىٰ شكهم، وقال مقاتل: (إثمًا إلىٰ إثمهم)»[1].

---

(1) الكشف والبيان 5/ 113. وينظر: تفسير القرآن العظيم 4/ 239.

وقد حدث لهم هذا المرض «من حيث إنَّهم كفروا بها، وعاندوها وأعرضوا عنها. فازداد لذلك مرضهم وترامىٰ بهم إلىٰ الهلاك والطَّبع علىٰ قلوبهم، حتىٰ (ماتوا وهم كافرون) وهذا عقوبة لهم؛ لأنَّهم كفروا بآيات الله، وعصوا رسوله، فأعقبهم نفاقًا في قلوبهم إلىٰ يوم يلقونه»[1].

وهذا المرض في هذه الصُّورة قد خرج من معناه الحقيقي إلىٰ معناه المجازي المعنوي، حيث ظهر في صورة الشَّك والنِّفاق: «ومنه يقال: فلان يمرض في الوعد: إذا لم يصحِّحه، وأصل المرض: الضَّعف والفتور. فسمي الشَّكُّ في الدِّين والنِّفاق (مرض به) يضعف البدن وينقص قواه؛ ولأنَّه يؤدِّي إلىٰ الهلاك بالعذاب، كما أن المرض في البدن يؤدِّي إلىٰ الهلاك والموت»[2].

ولذلك قيل: «المرض: الخروج عن حد الاعتدال الخاصِّ بالإنسانيَّة، وذلك ضربان:

الأول: مرض جسمي، وهو المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ **[الفتح: 17]**.

وفي قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ **[التوبة: 91]**.

والثَّاني عبارة عن الرَّذائل، كالجهل، والجبن والبخل والنِّفاق وغيرهما من الرَّذائل الخُلُقِيَّة.

نحو قوله تعالىٰ: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ **[البقرة: 10]**.

وقوله: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟﴾ **[النور: 50]**.

وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ **[التوبة: 125]**.

وذلك نحو قوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ **[المائدة: 64]**.

---

(1) تيسير الكريم الرحمن 356.

(2) الكشف والبيان 1/ 154.

وشبه النِّفاق والكفر ونحوهما من الرَّذائل بالمرض -إما لكونها مانعة عن إدراك الفضائل كالمرض المانع للبدن عن التَّصرف الكامل، وإما لكونها مانعة عن تحصيل الحياة الأخروية المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ **[العنكبوت: 64]**. وإما لميل النَّفس بها إلىٰ الاعتقادات الرَّديئة ميل البدن المريض إلىٰ الأشياء المضرَّة»[1].

## الحالة الثانية: مشروعية الجهاد:

تأتي آية أخرىٰ وفي موقف آخر تكشف كذب هؤلاء المنافقين وادِّعائهم الإيمان؛ وذلك عندما يروا أنفسهم في مواجهة مباشرة أمام مشروعية الجهاد والتي تمنوها منذ زمن بعيد ولهجت ألسنتهم بذلك كثيرًا -كما زعموا- فترىٰ مرض قلوبهم مجسدًا في نظراتهم نظر المغشي عليه من الموت، «أي من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء»[2].

ولذلك يقول الله تعالىٰ معبرًا عن هذه الحال: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ **[محمد: 20]**.

فقد تشتاق إلىٰ الشيء ولكن عندما تواجه به تعرض عنه، وهذا هو الحال هنا «﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ استيثاقًا منهم إلىٰ الوحي وحرصًا علىٰ الجهاد ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ تأمرنا بالجهاد ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ بالأمر والنَّهي، قال قتادة: كل سورة ذكر فيها الجهاد، فهي محكمة، وهي أشدُّ القرآن علىٰ المنافقين ...﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يعني المنافقين ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ شزرًا، بتحديق شديد كراهة منهم للجهاد، وجبنًا منهم علىٰ لقاء العدو ﴿نَظَرَ﴾ كنظر ﴿ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ وعيد وتهديد»[3].

(1) المفردات في غريب القرآن (م. ر. ض) ص466.

(2) تفسير القرآن العظيم 7/ 317.

(3) الكشف والبيان 9/ 35.

وهذه الآية تشبه آيات أخرىٰ منها: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: 77].

## الحالة الثالثة: تلبيس إبليس:

إن كشف حقيقة المنافقين لا يحتاج إلىٰ دليل واحد بل إلىٰ عدَّة أدلة، وهذا دليل ثالث تثبت به الإدانة وتقوم به عليهم الحجَّة، فالرَّسول ﷺ يتلو آيات من القرآن الكريم أمام جمع من النَّاس فيدخل الشَّيطان في قراءته ما ليس منها فيميل إلىٰ تصديقها المنافقون الذين في قلوبهم مرض، حيث يقول تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [الحج: 52، 53].

فلم ينتبه المنافقون لهذا الاختبار الصَّعب وإنما نتاج قلوبهم ترجمته شائعات الكذب والبهتان التي أذاعوها بلسانهم، وهذا إن دلَّ علىٰ شيء فإنَّما يدلُّ علىٰ هذا المرض الذي أصاب قلوبهم، والذي يعني: «ضعف وعدم إيمان وتصديق حازم، فيؤثِّر في قلوبهم أدنىٰ شبهة تطرأ عليها، فإذا سمعوا ما ألقاه الشَّيطان، داخلهم الرَّيب والشَّك فصار فتنة لهم ...»[1].

وهنا تشابهت قلوب المنافقين التي أصابها المرض مع قلوب الكافرين القاسية قلوبهم، فالذين في قلوبهم مرض: «أي: شكٌّ وشركٌ وكفر ونفاق، كالمشركين حين فرحوا بذلك، واعتقدوا أنَّه صحيح، وإنَّما كان من الشَّيطان. قال ابن جريج: ﴿لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم: المنافقون ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾: المشركون. وقال

(1) تيسير الكريم الرحمن ص542.

مقاتل بن حيَّان: هم الكافرون واليهود ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: في ضلال ومخالفة وعناد بعيد أي: من الحَقِّ والصَّواب»[1].

وبهذا يتبيَّن لك كذب هؤلاء المدَّعين وزور باطنهم وظاهرهم، كلما فتحت بابًا من أبواب الخير أوصدوه، وكلما زيَّن لهم الشَّيطان السُّوء صدَّقوه وآمنوا به واتَّبعوه، يلبسون لباس التقوىٰ والإيمان، يتشبَّهون في طاعة الظَّاهر بملائكة الرَّحمن ولكن الآيات خير شاهد ودليل علىٰ هذا المرض الخبيث الذي أصاب قلوبهم والذي لا يرجىٰ معه الشِّفاء وليس له دواء.

فالمرض في هذه الصُّورة خاص بتلك القلوب التي استمعت لآيات القرآن الكريم حال نزولها فازداد ضلالها وإثمها، وكذلك حال فرضية الجهاد وتلبيس إبليس وإدخاله في قراءة النبي ﷺ ما ليس منها، فهم في حال الاختبار لا وجود لهم، تسمع كلماتهم وعباراتهم فتظن فيهم الصَّلاح ولكن في أرض الواقع ترىٰ أشباه الرجال الذين سيطر المرض علىٰ قلوبهم التي لم تستجب لدواء والتي عجز عن علاجها الأطباء.

(1) تفسير القرآن العظيم 5/ 445. وينظر: لباب التأويل 5/ 24.

# الخاتمة

أصيبت بعض قلوب بني البشر بداء الإعراض عن القرآن الكريم فتراها تسمع وكأنَّها لا تسمع، وإذا سمعت فلم يكن مقصدها الوصول إلىٰ الحقِّ وإنَّما الجدال بالباطل مع علمها واقتناعها بأنَّها علىٰ الباطل، وبعد رحلة استغرقت عدة شهور مع هذه القلوب في القرآن الكريم؛ وذلك بالوصف والشَّرح والتَّحليل والتَّصنيف والتَّوصيف، ومن خلال عنوان: (قلوب المعرضين عن القرآن في القرآن دلالات وحكم وأسرار) يمكن أن يخرج الباحث بعدة نتائج منها:

أولاً- بالحصر والإحصاء تبيَّن أن قلوب المعرضين عن القرآن في القرآن تسعة أنواع سيطر الكُفَّار واليهود والمنافقون عليها، وإن كان للمنافقين النَّصيب الأكبر.

ثانيًا- ترىٰ ران القلوب يُقَدِّم صورة حيَّة للكافر الذي وصف القرآن بأنَّه أساطير الأولين، حيث احتجبت عنه دلائل النقل والعقل فغطَّت الذُّنوب والمعاصي عليها فلم تبصر حقيقة الآيات البيِّنات.

ثالثًا- عندما ترىٰ انحرافًا عن الفطرة وضلالاً عن اتِّباع الصِّراط المستقيم وميلاً عن طريق الهداية والرَّشاد وتتبعًا للمتشابه من الآيات فهؤلاء هم الذين في قلوبهم زيغ.

رابعًا- الأصل أن تكون علىٰ الحقِّ وأن تفقه ما جاء عن الله ورسوله ولكن التَّحول عنه نتيجة حتميَّة لمن صرف قلبه عن اتِّباع الهدىٰ وصمَّم علىٰ الكفر بعد إذ هداه الله للإيمان.

خامسًا- عندما تتهم الحقَّ بالباطل والهدىٰ بالضَّلال وتستحسن المعاصي وتصبح لك طبع وسجيَّة فالطَّبع علىٰ القلوب أثر من آثار هذا الخلق الذَّميم.

سادسًا- تحكم علىٰ بصيرتك بالجهل والظُّلم والغفلة فتنأىٰ عن التفكُّر في آيات الله فأنت بذلك قد أزلت أثر الحقِّ الذي خلقت عليه واستمسكت بجميع

صور الباطل وعملت بعمل أهل الكفر المناقضة لعمل أهل الإيمان فأنت الآن في غمرة من غمرات القلوب.

سابعًا- قسوة القلوب مستعارة لعدم التأثُّر بما في القرآن الكريم من مواعظ وآيات فهي لا تلين ولا تتذكَّر وإنما تعرض وتُنْكر، وأقفال القلوب استعارة للرَّيب الذي منعهم من الإيمان.

ثامنًا- دعوة من القرآن الكريم للتفكُّر والتدبُّر ولكن جعلت بينك وبين ذلك حجابًا ومانعًا فأغلقت جانب الخير والحقِّ فأصبحت القلوب غير مهيئة للإيمان في هذا الباب المعروف بأقفال القلوب.

تاسعًا- عظيم أن تستمع لآيات القرآن الكريم ولكن عندما يكون الهدف تحقيق الباطل وعدم الفهم والتدبُّر والإعراض بعد التذكُّر ثم الرِّضا بالكفر صراحة فأبشر بأكِنَّة القلوب التي تعني الغطاء الذي لا يغني معه فهم ولا تدبُّر.

عاشرًا- عندما تصاب بعض القلوب بالضَّعف والمرض فتستمع لنداءات الشَّيطان وتعرض عن الجهاد في سبيل الله ﷻ فالكفر والضَّلال والشَّك علامة من علاماتها.

إحدىٰ عشر- قد يكون المخاطب واحدًا ولكن اختلاف المقام في كل صورة والتَّصنيف والتَّوصيف الخاص به من حيث المغزىٰ والهدف يجعل لكل لفظة عالمها الخاص الذي تنفرد به وبيتها الذي تأوي إليه.

ثاني عشر- كل داء من هذه الدَّاءات التي سيطرت علىٰ هذه القلوب يأتي نتيجة حتميَّة لما اتَّصفت به.

ثالث عشر- بعض أصناف هذه القلوب خاص بدائرة المنافقين كما في صرف القلوب وبعضها عام كما في زيغ القلوب.

رابع عشر- الأسباب مقدمات للنتائج وذلك كما في انصرفوا صرف الله قلوبهم.

خامس عشر- يبدو التَّقارب الدَّلالي واضحًا بين جميع أنواع هذه القلوب ولكن مع الفروق الدَّقيقة الخاصَّة بكل سياق.

سادس عشر- يبدو عند بعض علماء التفسير أن بعض هذه الأنواع ليس بينها فروق دلالية بدليل التَّعبير عن الطبع بالختم والعكس كذلك والرَّان بالطبع والختم والإقفال بالرَّين.

سابع عشر- بالبحث والتحليل تبيَّن أنَّ كل داء من هذه الدَّاءات يمثل مرحلة من المراحل فالختم مرحلة أعلىٰ من الرَّان والرَّان أيسر من الطبع والطبع أيسر من الإقفال والإقفال أشد من ذلك كله

ثامن عشر- أنواع هذه القلوب قد ترد في سور مكية تبرز حقيقة قلوب الكافرين فهي كالحجارة أو أشد قسوة، وقد ترد في سور مدنية تفضح من خلالها قلوب المنافقين، وقد تكون السُّورة مدنيَّة إلا الآيات التي وردت فيها هذه القلوب فنزلت بين مكَّة والمدينة كما في مرض القلوب في سورة الحج.

تاسع عشر- تارة يعبر عن الإعراض عن القرآن صراحة وتارة يعبر عن طريق الاستعارة مثل ذكر الله.

عشرون- أشكال هذه القلوب كلها معنويَّة وليست حسيَّة وإن كان بعض علماء التفسير يرىٰ أنَّها حقيقية.

وبعد، فالبيان هدف من أهداف التَّوجيه والنُّصح والإرشاد فإذا رأيت القلب في بعض اللحظات منصرفًا عن آيات الله فتذكَّر أنَّ هذا قد يكون بداية من بدايات الإعراض وسببًا من أسباب الانصراف عن الفقه والتَّدبُّر فعُد سريعًا قبل أن يصبح ذلك طبعًا وسجيَّة وتعلَّم الدَّرس من الآخرين فأنت الآن بين عدَّة طرق أنت فيها صاحب الاختيار تخيَّر منها ما يتناسب مع فطرتك قبل أن يكون ذهاب بلا عودة وسفر بلا رفيق.

# فهرس المصادر والمراجع

*** القرآن الكريم.**

1- إحياء علوم الدين. أبو حامد الغزالي. تحقيق. سيد بن إبراهيم ابن صادق بن عمران - دار الحديث - القاهرة - 1419هـ-1998م.

2- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. محمد بن الأمين الشنقيطي - مكتبة ابن تيمية - القاهرة - 1425هـ-1995م.

3- بحر العلوم. نصر بن محمد السمرقندي. تحقيق د. محمود مطرحي - دار الفكر - بيروت.

4- البحر المحيط. أبوحيان الأندلسي. تحقيق. عادل أحمد عبد الموجود وآخرين - دار الكتب العلمية - لبنان - بيروت - الطبعة الأولىٰ 1422هـ-2001م.

5- البحر المديد. أحمد بن محمد بن عجيبة - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثانية 1423هـ-2002م.

6- التحرير والتنوير. محمد الطاهر بن عاشور - دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس 1997م.

7- التسهيل لعلوم التنزيل. محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي - دار الكتاب العربي - لبنان - الطبعة الرابعة 1403هـ-1983م.

8- تفسير البيضاوي - دار الفكر - بيروت.

9- تفسير السراج المنير. محمد بن أحمد الشربيني شمس الدين - دار الكتب العلمية - بيروت.

10- تفسير العز بن عبد السلام. تحقيق د. عبد الله بن إبراهيم الوهيبي - دار ابن حزم - بيروت - الطبعة الأولىٰ 1416هـ-1996م.

11- تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. حققه. سامي بن محمد سلامة - دار طيبة للنشر والتوزيع - الطبعة الثانية 1420هـ-1999م.

12- تفسير القرآن. منصور بن محمد السمعاني. تحقيق. ياسر ابن إبراهيم، وغنيم بن عباس بن غنيم - دار الوطن - الرياض - السعودية - 1418هـ-1997م.

13- تفسير مقاتل بن سليمان. تحقيق. أحمد فريد - دار الكتب العلمية - لبنان - بيروت - الطبعة الأولىٰ 1424هـ-2003م.

14- تفسير النسفي. أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي. تحقيق. مروان محمد الشعار - دار النفائس - بيروت - 2005م.

15- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. المحقق. عبد الرحمن بن معلا اللويحق - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولىٰ 1420هـ-2000م.

16- جامع البيان في تأويل آي القرآن. محمد بن جرير الطبري. حققه. أحمد محمد شاكر - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولىٰ 1420هـ-2000م.

17- الجامع الصحيح المختصر. محمد بن إسماعيل البخاري. تحقيق د. مصطفىٰ ديب البغا - دار ابن كثير - اليمامة - بيروت - الطبعة الثالثة 1407هـ-1987م.

18- الجامع لأحكام القرآن. محمد بن أحمد القرطبي. تحقيق. هشام سمير البخاري - دار عالم الكتب - الرياض - المملكة العربية السعودية 1423هـ-2003م.

19- الجواهر الحسان في تفسير القرآن (تفسير الثعالبي). أحمد بن محمد الثعالبي - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت.

20- فتح القدير بين فني الرواية والدراية من علم التفسير. محمد بن علي الشوكاني - دار الفكر - بيروت.

21- في ظلال القرآن. سيد قطب - دار الشروق - الطبعة الشرعية السادسة عشرة - 1410هـ-1990م.

22- الكشف والبيان. أحمد بن محمد الثعلبي. حققه. أبو محمد بن عاشور - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان - الطبعة الأولىٰ 1422هـ-2002م.

23- لب التأويل في معاني التنزيل. علي بن محمد البغدادي الشهير بالخازن - دار الفكر - بيروت - لبنان - 1399هـ-1979م.

24- لسان العرب. ابن منظور الإفريقي. تحقيق. عبد الله علي الكبير وآخرين - دار المعارف.

25- مجاز القرآن. أبو عبيدة معمر بن معمر المثنىٰ.. علق عليه د. محمد فؤاد سزكين - مكتبة الخانجي بالقاهرة.

26- المحرر الوجيز. ابن عطية الأندلسي. تحقيق. عبد السلام عبد الشافي محمد - دار الكتب العلمية - لبنان - الطبعة الأولىٰ 1413هـ-1993م.

27- معالم التنزيل. الحسن بن مسعود البغوي. حققه. محمد عبد الله النمر وآخرون - دار طيبة للنشر والتوزيع - الطبعة الرابعة 1417هـ-1997م.

28- معاني القرآن للنحاس. تحقيق. محمد علي الصابوني - جامعة أم القرىٰ - مكة المكرمة - الطبعة الأولىٰ 1409هـ.

29- مفاتيح الغيب. فخر الدين الرازي - دار الكتب العلمية - بيروت - 1421هـ-2000م.

30- المفردات في غريب القرآن. الراغب الأصفهاني. تحقيق. محمد سيد كيلاني - دار المعرفة - لبنان.

31- مقاييس اللغة. ابن فارس. حققه. عبد السلام محمد هارون - دار الفكر - 1399هـ-1979م.

32- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. إبراهيم بن عمر البقاعي. تحقيق. عبد الرزاق غالب المهدي - دار الكتب العلمية - بيروت - 1415هـ-1995م.

33- النهاية في غريب الحديث والأثر. أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري. تحقيق. طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي - المكتبة العلمية - بيروت - 1399هـ-1979م.

# فهرس الموضوعات

**المقدمة** ........ **53**

**التمهيد:** قلوب المعرضين في الميزان ........ 57

**الشكل الأول:** ران القلوب ........ 60

**الشكل الثاني:** زيغ القلوب ........ 66

**الشكل الثالث:** صرف القلوب ........ 69

**الشكل الرابع:** طبع القلوب ........ 73

**الشكل الخامس:** غمرة القلوب ........ 79

**الشكل السادس:** قسوة القلوب ........ 83

**الشكل السابع:** أقفال القلوب ........ 88

**الشكل الثامن:** أكنة القلوب ........ 93

**الشكل التاسع:** مرض القلوب ........ 101

**الخاتمة** ........ **107**

**فهرس المصادر والمراجع** ........ **111**

# أوصاف الماء في القرآن الكريم

# بين

# الدلالة المعجمية والسياقية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

# مُقَدِّمَة

الحمد لله القائل في محكم التنزيل ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [**الأنبياء: 30**] فأحيا به الأبدان، كما أحيا أرواحنا بالقرآن، فبلغ الغاية في الإحسان، فله من عباده ﷻ جزيل الشكر والامتنان ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [**الرحمن: 60**]، والصلاة والسلام علىٰ مَنْ علَّمنا كيف نؤدي شكر نِعَم الرحمن، محمد بن عبد الله سيد ولد عدنان وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

**أما بعد:**

فمن أجلِّ النِّعَم وأعظمها علىٰ بني الإنسان نعمة الماء، حيث كانت ومازالت هي المصدر الوحيد لبقاء كل حيٍّ علىٰ ظهر هذه الأرض، وذلك بدليل أن الأحياء لو فقدوا نعمة الماء لحُرِمُوا نعمة الحياة.

ويشعر الإنسان بقيمة هذه النعمة عندما يكون صائمًا، وخاصة عندما تصل درجة الحرارة إلىٰ ذروتها حتىٰ تكاد أشعة الشمس أن تدنو من الرءوس، ولم يجد في فمه ريقًا يبلِّلُه حتىٰ يخفف من وعثاء هذا الهجير اللافح، فلم يَدُرْ بخلده آنذاك إلا شربة ماء تعيد إليه الحياة، فيتراءىٰ الماء أمام عينيه ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [**النور: 39**]، حتىٰ إذا أذن الله لهذا النهار السرمدي أن ينتهي أقبل علىٰ الماء يرتشف منه رشفات، فيبدأ كل عضو من أعضاء جسده يعود إلىٰ حالته الطبيعية ويعمل بصورة جيدة، وكأنَّه في هذه الحالة إنسان ضَلَّ بعيره في فلاة وعليه زاده فلم يعد أمامه إلا رحمة ربه فتداركته هذه الرحمة، فعندئذ يشعر بقيمة هذه النعمة.

فنعم الله ﷻ لا تعد ولا تحصىٰ، ولكن هذا السائل اللطيف الشفَّاف الذي منه العذب والملح وهو الماء[1] هو أجلُّ هذه النعم.

وقد ظهرت أمامي فكرة الحديث عن الماء بصورة عامة في بداية الأمر، ولكن بعد النظر في الآيات التي وردت فيها لفظة (الماء) في القرآن الكريم وجدت أن بعض الآيات تصف الماء كنعمة من نِعَم الله ﷻ علىٰ عباده، ولكن بعضها الآخر يأخذ اتجاهًا مغايرًا فيصفه كنقمة منه عليهم، ومن المعروف أن الماء في أصل خِلْقته من جملة النِّعَم التي أنعم الله بها علىٰ جميع مخلوقاته الحيَّة، فكان لابد من بحث هذه الحالة والردِّ علىٰ هذا الاستفهام: كيف تحوَّلت النِّعْمة إلىٰ نِقْمة؟.

ثم يأتي بعد ذلك دور أهل اللغة في هذا البحث، وذلك من خلال دلالة تلك الأوصاف في سياقها القرآني، ولكن بعد التقدمة للدلالة المعجمية، وذلك حتىٰ يأتي الردَّ علىٰ الاستفهام الثاني وهو: ما الفرق بين الدلالتين المعجمية والسياقية؟

ومن ثم ظهر البحث تحت عنوان: **(أوصاف الماء في القرآن الكريم بين الدلالة المعجمية والسياقية).**

وبمطالعة بعض كتب التفسير رأيت أن كل وصف من هذه الأوصاف له عالمه الخاص وطابعه المميز، فأثرت أن يكون البحث عبارة عن مشاهد، كل وصف منها يمثل مشهدًا خاصًّا به، وذلك من خلال الجانب التطبيقي تحت عنوان: (أوصاف الماء والدراسة الدَّلالية). فأثمرت النتيجة عن ثلاثة عشر مشهدًا، هي جملة ما في هذا البحث، وذلك بعد أن مَهَّدت له بتمهيد عرضت فيه لأمرين:

أ- الماء بين القرآن الكريم والعلم الحديث.

---

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية بالقاهرة (م. و. هـ) 2/ 1069 - الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث - 1410هـ-1990م.

ب- المفهوم الاصطلاحي للدَّلالة المعجمية والسياقية.

وعن طريق الترتيب الألفبائي المعروف تَمَّ عرض الألفاظ في هذه الدراسة بعد الاعتماد علىٰ جذورها اللغوية، مع ذكر الآية موطن الشاهد، ثم بَيان رقمها بعد اسم السورة، وأخيرًا بيان دلالة أوصاف الماء المعجمية والسياقية.

ثم كانت الخاتمة لتسجيل أهم نتائج البحث.

وإذا كانت دراسة الكلمة العربية بوجه عام لها وقعها الخاص في النفوس، وتأثيرها الملموس، فمما لا شك فيه أن الكلمة القرآنية أعظم تأثيرًا و أوفر حظًّا ونصيبًا، «فألفاظ القرآن هي لبُّ كلام العرب وزبدته، ووساطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء، والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذَّاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم، وما عدا وعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها، هو بالإضافة إليها كالقشور والنوىٰ بالإضافة إلىٰ أطايب الثمرة، وكالحثالة والتبن بالإضافة إلىٰ لبوب الحنطة»[1].

وبعد، فهذا جهد متواضع لفهم بعض أسرار دلالات الألفاظ في القرآن الكريم لعله يضيف لبنة في بناء هذا الصرح الشامخ الذي يخرُّ فيه المسلم ساجدًا أمام حسنه وبهائه، متمنيًا دخول عالمه، حالمًا الوقوف علىٰ أعتاب بابه، آملاً فتح الله عليه، راجيًا عفوه عنه.

﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ **[الممتحنة: 4].**

---

(1) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني - مقدمة الكتاب - مكتبة الأنجلو المصرية 1970م.
وينظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ص227، دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان - الطبعة الثالثة، ومن بلاغة القرآن. أحمد أحمد بدوي ص74، 79 - دار نهضة مصر - 1370هـ-1950م.

# تمهيد

## أ) الماء بين القرآن الكريم والعلم الحديث

من خلال ثلاث صور ظهر الماء في القرآن الكريم[1]، تعيش كلُّ صورة منها في عالمها الخاص، وذلك بما تحمله من مكونات وعناصر لا يستطيع إدراكها علىٰ وجه اليقين إلا الصانع الخبير سبحانه وتعالى.

فعند قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ **[الفرقان: 48]** تأتي الصورة الأولىٰ، علىٰ حين جمعت الصورة الثانية والثالثة في قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ **[الفرقان: 53]**.

وقد أكَّدت الدراسات الحديثة علىٰ أن الماء لا يخلو من هذه الصور الثلاث، وذلك بما قدَّمته من أبحاث وتجارب تبرهن علىٰ صحة ذلك، مما يثبت علىٰ وجه اليقين أن هذا الكتاب السماوي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ **[فصلت: 42]**.

وفي السطور الآتية كلمة القرآن الكريم والعلم الحديث عن هذه الصور الثلاث:

### الصورة الأولىٰ: ماء المطر (الماء الطهور)

إذا أردنا دعوة الفكر إلىٰ التأمل في بدائع صنع الله فليكن ماء المطر عنوان ذلك، حيث يشتمل هذا الماء علىٰ تركيبات وعناصر أثبتها العلم الحديث عن طريق معامله وتجاربه، وفي هذا إشارة إلىٰ قدرة الخالق العظيم سبحانه وتعالى.

ذكر المهندس/ عبد الدائم كحيل -باحث في إعجاز القرآن والسنة النبوية-:

---

(1) وردت لفظة (الماء) في القرآن الكريم في واحد وستين موضعًا.

ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي (م. و. هـ) ص684 - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان.

أن ماء المطر يعتبر ماء مقطرًا مائة بالمائة، فهو ناتج عن تبخر الماء من البحار وتكثفه علىٰ شكل غيوم ثم ينزل مطرًا، لذلك هو ماء نقيٌّ تمامًا، ومن فوائده أو خصائصه:

1- يستطيع نزع الأوساخ من علىٰ جلد الإنسان أكثر من الماء العادي، لذلك يعتبر هذا الماء مادة معقمة ومطهرة تستخدم في الطب.

2- هو خالٍ من الفيروسات والبكتريات.

3- يمتلك خاصية امتصاص المعادن والغازات والغبار، وأي مادة تصادفه بنسبة كبيرة، لذلك هو مادة مطهرة للجو أيضًا.

وبعد المعرفة بهذه الصفات نجد أنها تجتمع في كلمة واحدة هي التي عبر بها القرآن عن حقيقة ماء المطر في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [**الفرقان: 48**]، فكلمة (طهر) في اللغة تعني إزالة الأوساخ والنجاسات والتنزُّه عنها كما في القاموس المحيط[1].

4- يستطيع أن يحدد الخلايا في الجسم بشكل أكبر من الماء العادي.

5- يؤكد علماء الطاقة أن ماء المطر يمتلك أكبر كمية من الطاقة، وهذا ما ينعكس إيجابيًا علىٰ الحالة النفسية علىٰ الإنسان، وليس غريبًا أن نجد القرآن يحدِّثنا عن هذه الخصائص بشكل واضح في قوله تعالىٰ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [**الأنفال: 11**]. هذه الآية تتحدث عن ماء المطر من خلال قوله تعالىٰ: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، وتحدثنا عن خاصيَّة التطهير الموجودة في هذا الماء في قوله ﷻ: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾، وتحدثنا عن خاصيَّة الطاقة التي يمتلكها هذا الماء وتؤثر علىٰ الإنسان في إعطائه الدفع والقوة لتثبت قدماه عند لقاء العدو، أي الحديث هنا عن الطاقة

(1) **الطُّهر** - بالضم -: نقيض النجاسة كالطهارة ...**والتَطَهُّر**: التَّنَزُّه والكف عن الإثم. القاموس المحيط للفيروز آبادي (ط. هـ. ر) 2/ 78 - الهيئة المصرية العامة للكتاب - 1398هـ-1978م.

التي يستطيع الإنسان بواسطتها المواجهة أكثر، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾[1].

إذًا فهذا الماء هو سر الحياة علىٰ ظهر هذه الأرض، ولا يمكن لكائن حيٍّ أن يحيا بدونه، «فالحياة علىٰ هذه الأرض كلها تعيش علىٰ ماء المطر إما مباشرة، وإما بما ينشئه من جداول وأنهار علىٰ سطح الأرض، ومن ينابيع وعيون وآبار من المياه الجوفية المتسربة إلىٰ باطن الأرض منه، ولكن الذين يعيشون مباشرة علىٰ المطر هم الذين يدركون رحمة الله الممثلة فيه إدراكًا صحيحًا كاملاً، وهم يتطلعون إليه شاعرين بأن حياتهم كلها متوقفة عليه، وهم يترقبون الرياح التي يعرفونها تسوق السحب، ويستبشرون بها، ويحسُّون فيها رحمة الله، إن كانوا ممن شرح الله صدورهم للإيمان. والتعبير يبرز معنىٰ الطهارة والتطهير: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾، وهو بصدد ما في الماء من حياة ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ **[الفرقان: 49]** فيلقي علىٰ الحياة ظلاً خاصًا. ظلّ الطهارة. والله ﷻ أراد الحياة طاهرة نقية وهو يغسل وجه الأرض بالماء الطهور الذي ينشىء الحياة في الموات ويسقىٰ الأناسيّ والأنعام»[2].

**الصورة الثانية: الماء العذب الفرات**

ذكر أهل اللغة أن «البحر يقال في الأصل للماء الملح دون العذب.

قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ **[الفرقان: 53]**. إنما سُمِّىٰ العذب بحرًا لكونه مع الملح. كما يقال للشمس والقمر قمران»[3]. وذلك علىٰ سبيل التغليب.

---

(١) www.stop55.com

(2) في ظلال القرآن. سيد قطب 5/ 2570 – دار الشروق – الطبعة الشرعية السادسة عشرة – 1410هـ- 1990م.

(3) المفردات في غريب القرآن (ب. ح. ر) ص48، 49.

والعذب من الشراب والطعام: كل مستساغ، والعذب: الماء الطيب. والفرات: أشد الماء عذوبة[1].

ويقال: سُمِّىٰ الماء الحُلْوُ فُراتًا؛ لأنه يَفْرُت العطش، أي يَشُقُّه ويقطعه[2].

وقد سَمَّىٰ الله تعالىٰ ماء الأنهار والماء المختزن تحت الأرض والذي نشربه بالماء الفرات، أي المستساغ الطعم.

وقد نتساءل لم وصف الماء العذب بكلمة (فراتًا)؟ والجواب: كل المياه التي تراها علىٰ الأرض، سواء في الأنهار أو البحيرات، أو مياه الآبار جميعها تحوىٰ أملاحًا بنسبة لا تكاد نشعر بها، ولكنها لا تغيب عن الله تعالىٰ وهو خالقها! لذلك جاء البيان الإلهي بصفة ثانية وهي (فرات) أي مستساغ المذاق بسبب انحلال بعض المعادن والغازات فيه، والتي تعطي الماء طعمه المعروف.

ومن هنا نستطيع أن نلحظ الفرق بين ماء المطر، وماء النهر فالماء الذي نشربه من الأنهار والينابيع والآبار: ماء عذب مستساغ المذاق؛ لأنه يحوىٰ كمية كبيرة من المعادن مثل الحديد الذي يجعل طعم الماء حلوًا، وهذا يناسب كلمة (فراتًا) ... بينما الماء النازل من السماء هو ماء مقطر يمتلك خاصيَّة التعقيم والتطهير وليس له طعم، لذلك وصفه البيان الإلهي بكلمة (طهورًا). فالماء عندما ينزل من السماء يكون طهورًا، ثم يمتزج بالمعادن والأملاح في الأرض ليصبح فراتًا، وحتىٰ عندما يتحدث القرآن عن ماء الأنهار نجده يستخدم كلمة (فراتًا) ولا يستخدم كلمة (طهورًا)؛ لأن ماء النهر العذب يحتوىٰ علىٰ كثير من المعادن المحلولة فيه.

يقول تعالىٰ: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ **[فاطر: 12].**

---

(1) لسان العرب لابن منظور الإفريقي. تحقيق. عبد الله علىٰ الكبير وآخرين (ع. ذ. ب)، (ف. ر. ت) 4/ 2852، 3368 - طبعة دار المعارف.

(2) الدر المصون في علوم الكتاب المبين للسمين الحلبي. تحقيق. علىٰ محمد معوض وآخرين 8/ 490 - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولىٰ 1414هـ-1994م.

فالقرآن أول كتاب تحدث عن خاصيَّة التطهير الموجودة في ماء المطر أو الماء المقطر، وهذه الصفة كما قلنا لم تستخدم في القرآن إلا مع ماء السماء، بينما نجد كتب البشر لا تفرق بين الماء العذب والماء الطهور والماء الفرات، بينما القرآن ميَّز بينها ووضع كل كلمة في مكانها الدقيق[1].

ومن عجيب خلق الله ﷻ أن «تشكل البحار والمحيطات (97. 32%) من نسبة المياه علىٰ الأرض، غير أنه لا يمكن الاستفادة منها لملوحتها، ويخزن حوالي (2. 14%) من المياه علىٰ هيئة جبال ثلجية كمخزون إضافي للأرض. وتقوم حياة البشرية كلها علىٰ المياه العذبة التي تشكل أقل من (6.0) من مجموع المياه علىٰ الأرض والموجود علىٰ هيئة مياه جوفية وسطحية وأنهار، ولكن رحمة المولىٰ اقتضت تعويض الأرض بما تحتاجه من المياه بالقدر المناسب عن طريق الدورة المائية المعروفة بدورة المطر»[2].

ويكفىٰ أن نعلم أن إيجاد الطعام لمخلوقات الله تبدأ أول مراحله بصبّ الماء كما ذكر ذلك أحد الباحثين تعليقًا علىٰ قوله ﷻ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ [**عبس: 24-28**]، فقال: «ويستخلص من هذه الآيات أن إيجاد الطعام يمر بثلاث مراحل هي: مرحلة صبّ الماء (المرحلة الأولىٰ)، ثم مرحلة شقّ الأرض (المرحلة الثانية)، فمرحلة الإنبات (المرحلة الثالثة)، وهذه المرحلة تقتضي وجود طبقة سطحية تغطي الغلاف الصخري للأرض، تعتبر مهدًا للنباتات، وهي التربة»[3].

إضافة إلىٰ أن «عملية وجود الماء التي هي من قدرة الله ﷻ التي احتفظ بها لنفسه، وهي عندنا في الأرض تتم دون عمل من الإنسان، بل هي عطاء من الله بخار الماء يتصاعد من البحار والمحيطات، ويتكثف في طبقات الجو العليا وينزل

---

(١) www.stop55.com

(٢) www.nooran,org,0,7,(8)

(٣) www.nooran,org,120, 29%.

مطرًا، ولذلك يقول الله ﷻ: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ﴾ **[الواقعة 68-70]**»[1].

وكذلك «فالماء من أقوىٰ المذيبات، حيث يسهم بفعالية في إتمام عمليات الهضم وتجديد الدم والتخلص من المواد السَّامَّة (الفضلات) في أجسام الكائنات العضوية وغير العضوية علىٰ حد سواء. وبفضل هذه القدرة علىٰ الإذابة تستطيع الأنهار والمحيطات نقل الأملاح والمعادن من مكان لآخر علىٰ سطح الأرض»[2].

**الصورة الثالثة: الماء الملح الأجاج**

ذكرت معاجم اللغة أن المِلْح: خلاف العذب من الماء، وماء أجاج: أي مِلْح، وقيل: مُرٌّ، وقيل: شديد الملوحة؛ وقيل الأجاج: الشديد الحرارة، وكذلك الجمع. قال الله ﷻ: ﴿وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ﴾ وهو الشديد الملوحة والحرارة، مثل ماء البحر[3].

إذًا «الماء الأجاج: هو ماء البحر، وفي اللغة الفعل (أجَّج) يعني زاد عن الحد، وهذا ما نجده في مياه البحر التي تحتوىٰ علىٰ درجة ملوحة زائدة. وصف الله تعالىٰ ماء البحر بأنه (ملح أجاج)؛ لأن كلمة (ملح) وحدها لا تكفي، فالمياه العذبة تحتوىٰ علىٰ نسبة من الملوحة، ولكننا لا نحسُّ بها ... وقد سَمَّىٰ الله تعالىٰ ماء البحر بالأجاج للدلالة علىٰ ملوحته الزائدة»[4].

ومن هنا نرىٰ أن القرآن الكريم بإعجازه المعهود قد صَنَّف أنواع الماء هذه التصنيفات الثلاثة للدلالة علىٰ وجود الفروق الدقيقة بينها قبل أن يفكر العلم الحديث في تحليل أنواعها واستخراج هذه الفروق بينها، والذي يعدُّه العلماء ابتكارًا في عالم المعرفة.

---

(١) www.islamiyyat.com,alayat5.

(2) السابق.

(3) لسان العرب (أ. ج. ج)، (م. ل. ح) 1/ 31، 6/ 4224.

(٤) www.stop55.com

أليس ذلك دليلاً بَيِّنًا علىٰ قدرته وعظمته ﷻ؟ وأنه وحده المهيمن علىٰ هذا الكون والعالم بأسراره، وأن نعمه علىٰ مخلوقاته فوق الحصر والعدِّ ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [النحل: 18]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [ق: 37].

## (ب) المفهوم الاصطلاحي للدلالة المعجمية والسياقية

تتعدَّد الدلالات وتتنوَّع في عالم الألفاظ بين دلالة صوتية وصرفية ونحوية ومعجمية، والهدف من ذلك كله هو إعداد اللفظة وتهيئتها لوضعها في السياق المناسب لها حتىٰ يتسنىٰ إخراج ما يسمىٰ بالدلالة السياقية.

«ومن المعروف أن إجلاء المعنىٰ علىٰ المستوىٰ الوظيفي (الصوتي والصرفي والنحوي) وعلىٰ المستوي المعجمي فوق ذلك لا يعطينا إلا «معنىٰ المقال» أو «المعنىٰ الحرفي» كما يسمِّيه النقاد «أو معنىٰ ظاهر النص» كما يسمِّيه الأصوليون وهو -مع الاعتذار الشديد للظاهرية- معنىٰ فارغ تمامًا من محتواه الاجتماعي والتاريخي منعزل تمامًا عن كل ما يحيط بالنص من القرائن الحالية»[1].

ونحن نتعامل مع دلالات الألفاظ بوجه عام عند تقليب الصفحات في المعاجم اللغوية، حيث يحتمل المعنىٰ المعجمي مجموعة من الدَّلالات، فيفرز هذا التنوُّع الدلالي المعجمي ما اصطلح عليه في الساحة اللغوية بالمشترك اللفظي والأضداد والتطور الدلالي، ولكن في حالة إيقاف هذا السيل المفعم من الدلالات كان لابد من التعامل مع الدلالة السياقية، حتىٰ يتم تخصيص المعنىٰ وتحديده.

إذًا فللفظة مع دلالتها قراءتان، القراءة الأولىٰ تسمىٰ بالدلالة المعجمية وفيها يكثر المعنىٰ ويتعدد، والقراءة الثانية هي الدلالة السياقية وفيها تخصيص المعنىٰ وتقييده.

---

(1) اللغة العربية معناها ومبناها د. تمام حسان ص337، 338 – الهيئة المصرية العامة للكتاب 1979م.
وينظر: دراسة المعنىٰ عند الأصوليين د. طاهر سليمان حمودة ص217 – الدار الجامعية – 1403هـ–1983م.

### 1- الدلالة المعجمية

وهي تحديد المعنىٰ العام للكلمة، وما يمكن أن تحمله من المعاني الفرعية في الاستعمالات المختلفة، مع ضرب الأمثلة وإيراد الشواهد(1).

إذًا فالدلالة المعجمية أو المعنىٰ المعجمي: هو المعنىٰ الذي تسجله المعاجم للمفردة اللغوية مُراعىٰ فيه حروفُها بترتيبها وصيغتها -سواء كانت تلك المفردة في صورة لفظ مستقل بمعني- كما تقول: «النِّطاق (بوزن كِتاب): كل ما يَشُدُّ به المرءُ وَسطه، والقِطْف (بالكسر): العُنقود ساعة يُقْطَف، والقَطِيفة: كِساء له خَمْل ...»، أو كانت في صورة لفظ يختلف معناه حسب ما نسميه سياق إسناده، كما يقال قَصَفَ البعيرُ: صَرَفَ أنيابه (أي صوّت لها لما حَكّ بعضها ببعض)، وقَصَفَ العوَد الخشبة: كَسَره(2).

فالدلالة المعجمية تستقل عما يمكن أن توحيه أصوات هذه الكلمة أو صيغتها من دلالات زائدة علىٰ تلك الدلالة الأساسية(3).

فمن خلال ما سبق يتضح أن هناك «ثلاث خصائص للمعني المعجمي، تعد من أبرز خصائص هذا المعنىٰ، تلك هي أنه: 1- عام،2- تعدد، - غير ثابت.

فللكلمة معنىٰ عام في المعجم؛ وذلك لأنها ليست في سياق محدد، إذ السياق هو الذي يحدد هذا المعنىٰ ويقيده. وأما كون معنىٰ الكلمة متعدد في المعجم، ذلك لأنها تصلح للدخول في سياقات متعددة، فيعطيها كل سياق

---

(1) دراسات في فقه اللغة. محمد الأنطاكي ص287 - دار الشرق العربي - بيروت - الطبعة الرابعة 1389هـ-1969م.

(2) المعنىٰ اللغوي د. محمد حسن جبل ص170 - مكتبة الآداب - الطبعة الأولىٰ 1426هـ-2005م.
وينظر: علم الدلالة بين النظر والتطبيق د. أحمد نعيم الكراعين ص100 - المؤسسة الجامعية - الطبعة الأولىٰ 1413هـ-1993م، ولسان العرب (ن. ط. ق) 6/ 4462، (ق. ط. ف) 4/ 3681، (ق. ص. ف) 4/ 3654.

(3) دلالة الألفاظ د. إبراهيم أنيس ص48 - مكتبة الأنجلو المصرية - الطبعة الخامسة 1984م.
وينظر: علم الدلالة د. إبراهيم محمد أبو سكين ص85 - الطبعة الأولىٰ 1423هـ-2003م.

معنىٰ، ومن استخدامها في النصوص العربية القديمة والحديثة تكتسب هذا التعدد، وهو معنىٰ غير ثابت؛ لأن دلالة الكلمة تتعرض للتغير، فيصيبها التعميم أو التخصيص أو الانتقال، وقد تسمو دلالتها وقد تنحط وهذا التغير يدرسه علماء اللغة تحت ما يسمي بالتغير الدلالي»[1].

**2- الدلالة السياقية**

وهي تلك الدلالة التي يقصدها المتكلم ويفهمها السامع من خلال الحدث الكلامي تبعًا للظروف المحيطة. وقد عرف سبنس السياق بأنه وضع الكلمة داخل الجملة أو الحدث الذي تعبر عنه الكلمة داخل الجملة، مرتبطة بما قبلها وما بعدها، كما أنه في حالة الكلام يتمثل في العلاقة القائمة بين المتكلم والحالة، أو المقام الذي يتكلم فيه وتكوينه الثقافي[2].

إذًا فالسياق يعرف بأنه البيئة اللغوية المحيطة بالعنصر اللغوي المراد تحليله، أو هو ما يسبق أو يلحق ذلك العنصر، أو هو ردُّ أول الكلام علىٰ آخره وآخره علىٰ أوله[3].

أو بمعنىٰ آخر: هو ما يتلو المفردة التي يراد بيان معناها، أو يتقدمها من عبارات تقضي إما ببيان معناها، أو بتعيين المعنىٰ المراد من معانيها[4].

فعلىٰ وجه الإجمال فإن السياق «هو النظم اللفظي للكلمة وموقعها من ذلك النظم»، بأوسع معاني هذه العبارة. إن السياق علىٰ هذا التفسير ينبغي أن

(1) علم الدلالة دراسة نظرية وتطبيقية د. فريد عوض حيدر ص51 - مكتبة النهضة المصرية - الطبعة الأولىٰ 1998م.

(2) علم الدلالة بين النظر والتطبيق د. أحمد نعيم الكراعين ص100. وينظر: علم الدلالة د. إبراهيم محمد أبو سكين ص74.

(3) دلالة السياق د. ردة الله بن ضيف الله الطلحي ص8 - معهد البحوث العلمية - مكة المكرمة - الطبعة الأولىٰ 1424هـ.

(4) الدلالات القرآنية د. محمد حسن جبل ص46 - 1420هـ-1999م. وينظر: علم الدلالة دراسة وتطبيق د. نور الدين لوشن ص95 - المكتب الجامعي الحديث - الأسكندرية.

-لا يشمل الكلمات والجمل الحقيقية السابقة واللاحقة فحسب- بل والقطعة كلها والكتاب كله، كما ينبغي أن يشمل -بوجه من الوجوه- كل ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات، والعناصر غير اللغوية المتعلقة بالمقام الذي تنطق فيه الكلمة لها هي الأخرىٰ أهميتها البالغة في هذا الشأن. أما أن هذه العوامل جميعها لها تأثيرها المباشر علىٰ المعنىٰ الدقيق للكلمات فهذا أمر لم يعارض فيه أحد معارضة جدية»[1].

إذًا فنحن حين ننصرف من الكليات التي توردها الدلالة المعجمية إلىٰ الجزئيات التي تحددها الدلالة السياقية في هذه الحالة «حينما نقول بأن لإحدىٰ الكلمات أكثر من معنىٰ واحد في وقت واحد نكون ضحايا الانخداع إلىٰ حد ما. إذ لا يطفو في الشعور من المعاني المختلفة التي تدل عليها إحدىٰ الكلمات إلا المعنىٰ الذي يعيِّنه سياق النص. أما المعاني الأخرىٰ جميعها فتمحي وتبدّد ولا توجد إطلاقًا. فنحن في الحقيقة نستعمل ثلاثة أفعال مختلفة عندما نقول: «الخياط يقصّ الثوب» أو «الخبر الذي يقصه الغلام صحيح» أو «البدوي خير من يقصّ الأثر» ...»[2].

لذلك عندما تحدث العلماء عن قضية «الأضداد» في العربية وكيفية استعمال اللفظة الواحدة للدلالة علىٰ معنيين متضادين زالت الشبهة والشك بسياق النص

---

(1) دور الكلمة في اللغة. ستيفن أولمان. ترجمة د. كمال محمد بشر ص57 - مكتبة الشباب.
وينظر: الخصائص لابن جني. تحقيق. محمد علىٰ النجار 1/ 239 - الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة الثالثة 1407هـ-1987م، وفقه اللغة وخصائص العربية. محمد المبارك ص183 - دار الفكر 1421هـ-2000م، وفقه اللغة في الكتب العربية د. عبده الراجحىٰ ص167 - 1974م، وعلم اللغة د. إبراهيم محمد أبو سكين ص64 - دار الزهراء للطباعة بالزقازيق - الطبعة الأولىٰ 1418هـ-1997م، والظواهر اللغوية في أدب الكاتب لابن قتيبة د. مجدي إبراهيم محمد إبراهيم ص444 - مكتبة النهضة المصرية - الطبعة الأولىٰ 1421هـ-2000م.

(2) اللغة. فندريس - تعريب د. عبد الحميد الدواخلي، د. محمد القصاص ص228 - مكتبة الأنجلو المصرية - مطبعة لجنة البيان العربي 1950م. وينظر: علم الدلالة د. أحمد مختار عمر ص68 - عالم الكتب - الطبعة الرابعة 1993م.

الذي يحدد الدلالة ويعيِّنها عما سواها من دلالات أخري، فكما ذكر ابن الأنباري (ت 577هـ) أن «كلام العرب يصحح بعضه بعضًا، ويرتبط أوله بآخره، ولا يعرف معنىٰ الخطاب منه إلا باستيفائه، واستكمال جميع حروفه، فجاز وقوع اللفظة علىٰ المعنيين المتضادين؛ لأنه يتقدمها ويأتي بعدها ما يدل علىٰ خصوصية أحد المعنيين دون الآخر، ولا يراد بها في حال التكلم والإخبار إلا معنىٰ واحد؛ فمن ذلك قول الشاعر:

**كل شيء ما خلا الموت جللْ     والفتىٰ يسعىٰ ويلهيه الأملْ**

فدل ما تقدم قبل «جلل»، وتأخر بعده، علىٰ أن معناه كل شيء ما خلا الموت يسير، ولا يتوهم ذو عقل وتمييز أن الجلل هنا معناه (عظيم)»[1].

والسياق القرآني خير شاهد علىٰ ذلك: «قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ **[البقرة: 46]**. أراد الذين يتيقَّنون ذلك، فلم يذهب وهم عاقلٍ إلىٰ أن الله تعالىٰ يمدح قومًا بالشك في لقائه.

وقال تعالىٰ حاكيًا عن يونس: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ **[الأنبياء: 87]** أراد رَجَا ذلك وطَمع فيه. ولا يقول مسلم: تَيَقَّن يونس أن الله لا يقدر عليه»[2].

إذًا فمن يظن أن الدلالة المعجمية هي دلالة الحوار بين المتكلم والسامع فهو في منأىٰ عن الحقيقة «لأن «المعنىٰ القاموسي» أو «المعنىٰ المعجمي» ليس كل شيء

---

(1) الأضداد لابن الأنبارىٰ. تحقيق. محمد أبو الفضل إبراهيم ص2 – المكتبة العصرية صيدا – بيروت 1407هـ–1987م.

وينظر: المزهر في علوم اللغة للسيوطي. تحقيق. محمد جاد المولىٰ وآخرين 1/ 397، 398 – دار التراث – الطبعة الثالثة د. ت.

(2) المزهر 1/ 398، 399.

وينظر: إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا القرآن الكريم لأبي السعود العمادي 1/ 98، 6/ 82 – دار إحياء التراث العربي – بيروت.

في إدراك معنىٰ الكلام فثمة عناصر «غير لغوية» ذات دخل كبير في تحديد المعنىٰ، بل هي جزء أو أجزاء من معنىٰ الكلام: وذلك كشخصية المتكلم، وشخصية المخاطب، وما بينهما من علاقات، وما يحيط بالكلام من ملابسات وظروف ذات صلة به..»[1].

فتحديد دلالات الألفاظ لا يأتي إلا من خلال السياق، وكما ذكر الدكتور/ إبراهيم أنيس: «إن ألفاظ المعاجم ليست إلا جثثًا هامدة لا حياة فيها، ولا تكتسب الحياة إلا في أفواه الناس وعلىٰ ألسنتهم»[2].

فمن خلال السياق يتحدد المعنىٰ سواء أكان السياق مقامًا أم مقالاً، وبالإضافة إلىٰ أن الكلمة قد تثير منفردة كل المعاني المحتمل وقوعها إلا أن السياق هو الذي يفرض لها القيمة الحضورية المحددة[3].

وخير من مَثَّل قضية السياق وبلورها في أصدق عبارة هو الإمام عبد القاهر الجرجاني، وذلك من خلال قضية (النظم)، حيث نصَّ من خلالها علىٰ أنه «لا نظم في الكلام ولا ترتيب، حتىٰ يُعلَّق بعضها ببعض، ويُبْنَىٰ بعضها علىٰ بعض، وتُجْعَل هذه بسبب من تلك. هذا ما لا يجهله عاقل ولا يخفىٰ علىٰ أحد من الناس. وإذا كان لا يكون في الكَلِم نظم ولا ترتيب إلا بأن يُصْنَع بها هذا الصنيع ونحوه، وكان ذلك كله مما لا يَرْجع منه إلىٰ اللفظ شيء، ومما لا يُتَصَوَّر أن يكون فيه ومن صفته، بان بذلك أن الأمر علىٰ ما قلناه، من أن اللفظ تَبَعٌ للمعني في النظم، وأن الكلم تترتَّب في النطق بحسب ترتَّب معانيها في النفس، وأنها لو خلت من معانيها حتىٰ تتجرد أصواتًا

---

(1) علم اللغة مقدمة للقارىء العربي د. محمود السعران ص263 - دار الفكر العربي - 1412هـ-1992م.

(2) من أسرار اللغة د. إبراهيم أنيس ص283 - مكتبة الأنجلو المصرية - الطبعة السادسة 1978م.

(3) علم الدلالة دراسة و تطبيق د. نور الدين لوشن ص215.

وينظر: الكلمة دراسة لغوية معجمية د. حلمي خليل ص163 - دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية - الطبعة الثانية، ودراسات في الدلالة والمعجم د. رجب عبد الجواد إبراهيم ص18 - دار غريب - القاهرة.

وأصداءَ حروف، لما وقع في ضمير ولا هَجَس في خاطر، أن يجب فيها ترتيب ونظم، وأن يُجْعَل لها أمكنة ومنازل، وأن يجب النطق بهذه قبل النطق بتلك»[1].

وخلاصة القول أن علماء العربية قد قسَّموا معاني الألفاظ بحسب الاستعمال إلىٰ قسمين:

الأول: معان حقيقية أو وضعية وهي المفهومة بالمعاني عند الإطلاق وقد تسمي بالمعاني الأُوَل.

الثاني: معان مجازية أو معان ثانوية، وقد يطلق عليها «معاني المعاني» كما فعل عبد القاهر، وإذا كانت المعاني الحقيقية قد تستفاد من اللفظ مفردًا، فإن المعاني المجازية أو الثانوية لا تستفاد إلا من خلال التركيب. وقد يطلق عليها أغراض الكلام[2].

ومن هنا فإن «الكلمات في المعجم إذن ذات أبعاد دلالة متعددة تجعلها صالحة للدخول في أكثر من سياق، ومن ثبوت ذلك لها يأتي بالضرورة تعدُّد معناها، ومعني هذا أن الكلمة في حال انعزالها لا تدل إلا علىٰ دلالات عامة،

(1) دلائل الإعجاز للجرجاني - علَّق عليه. محمود محمد شاكر ص55، 56 - مكتبة الخانجي بالقاهرة - مطبعة المدني.

وينظر: مناهج البحث في اللغة د. تمام حسان ص237 - مطبعة دار الثقافة - الدار البيضاء - المغرب - 1400هـ-1979م. فنظرية السياق هي ما عرف عند علماء البلاغة بتلك المقالة المشهورة «لكل مقام مقال».

ينظر: مدخل إلي علم اللغة الحديث د. عبد الفتاح البركاوي ص168 - القاهرة - الطبعة الثانية - 1411هـ-1990م، ودراسات في الدلالة والمعجم د. رجب عبد الجواد إبراهيم ص18.

(2) دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث د. عبد الفتاح البركاوي ص23، 24 - دار المنار بالقاهرة - الطبعة الأولىٰ 1411هـ-1991م. فالحقيقة: ما أُقِر في الاستعمال علىٰ أصل وضعه في اللغة. والمجاز: ما كان بضد ذلك. الخصائص 2/ 444.

وينظر: الصاحبي في فقه اللغة العربية وسَنَن العرب في كلامها لابن فارس. تحقيق. السيد أحمد صقر ص321 - مطبعة دار إحياء الكتب العربية.

والذي يعيِّن قيمة الكلمة في كل الحالات إنما هو السياق، إذ أن الكلمة توجد في كل مرة تستعمل فيها في جو يحدد معناها تحديدًا مؤقتًا، والسياق هو الذي يفرض قيمة واحدة بعينها علىٰ الكلمة، بالرغم من المعاني المتنوعة التي في وسعها أن تدل عليها، والسياق أيضًا هو الذي يُخَلِّص الكلمة من الدلالات الماضية التي تدعها الذاكرة تتراكم عليها، وهو الذي يخلق لها قيمة حضورية»[1].

إذًا فللفظة العربية بطاقتا تعريف، كل بطاقة منها تسجل عليها بعض البيانات الخاصة بها، تحمل البطاقة الأولي دلالة الإجمال والعموم وهي الدلالة المعجمية، في حين تحمل البطاقة الثانية دلالة التخصيص والتقييد وهي الدلالة السياقية، وقد تنفرد هذه البطاقة ببعض الدلالات التي حاول العلماء استخراجها من سياق النص، والعرض التطبيقي لموضوع البحث خير شاهد علىٰ ذلك.

---

(1) اللغة. فندريس ص231.

# أوصاف الماء والدراسة الدَّلاليَّة

## المشهد الأول (باب الهمزة)

(أ. س. ن) (آسن) في قوله تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ **[محمد: 15]**.

### الدلالة المعجمية

ذكر ابن فارس أن الجذر اللغوي لهذه اللفظة تجتمع فيه دلالتان، دلالة التغير وتحمله لفظة (آسن) محور البحث، في حين تحمل لفظة (الآسان) دلالة السبب، حيث يقول: «الهمزة والسين والنون أصلان، أحدهما تغيُّر الشيء، والآخر السبب. فأما الأول فيقال: أَسَنَ الماء يأسِنُ ويأسُنُ: إذا تغيَّر. هذا هو المشهور، وقد يقال أَسِنَ. قال الله ﷻ: ﴿مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾. وأسِنَ الرّجُل: إذا غُشِيَ عليه من ريح البئر ... والأصل الآخر قولهم الآسانُ: الحبال ...»[1].

وقد ذكر ابن منظور لهذه المادة أربع دلالات وهي:

### الدلالة الأولىٰ: التغيُّر

الآسِنُ من الماء: مثل الآجن[2]. أَسَنَ الماءُ يأسِن ويأسُن أسْنًا وأسُونًا، وأَسِن -بالكسر- يأسَن أَسَنًا: تَغَيَّر غير أنه شَرُوب، وفي نسخة: تغيَّرت ريحه ... التهذيب: أسَنَ الماء يأسِن أسْنًا وأُسُونًا، وهو الذي لا يشربه أحد من نتنه ... قيل للرجل إذا دخل بئرًا فاشتدَّت عليه ريحها حتىٰ يُصيبه دُوار فَيَسْقُط: قد أَسِن ... قال ابن بَرِّيّ: أسِنَ الرجل من ريح البئر -بالكسر لا غير- ... وأَسِنَ الرجل أَسَنًا،

(1) مقاييس اللغة لابن فارس. تحقيق. عبد السلام محمد هارون 1/ 104، 105 - دار الجبل - بيروت - لبنان - الطبعة الأولىٰ 1411هـ-1991م.

(2) **الآجِن**: الماء المتغيِّر الطعم واللون. لسان العرب (أ. ج. ن) 1/ 34.

فهو أَسِنُ، وأَسِن يأسَنُ وَوَسِنَ: غشي عليه من خُبْثِ ريح البئر. وأسِن لا غير: اشتد رأسه من ريح تصيبه[1].

وذكر الجوهري: «أَسِن الرجل: إذا دخل البئر فأصابته ريح مُنْتِنَةٌ من ريح البئر أو غير ذلك فَغُشِيَ عليه أو دار رأسه»[2].

إذًا فدلالة التغيُّر عامَّة تَرِد مع فتح السين وكسرها في (أَسِن)، وينفرد الكسر بدلالة الإغماء خاصة، في حين تأتي الدلالات الآتية مع فتح السين فقط.

**الدلالة الثانية: الضرب بالقدم**

أَسَنَ الرجل لأخيه يأسِنُه ويأسُنُه: إذا كسعه برِجله.

**الدلالة الثالثة: الفطانة**

يقال: وما أَسَنَ لذلك يأسُنُ أَسْنًا: أي ما فطن.

**الدلالة الرابعة: الإثبات**

يقال: أَسَنَ الشيءَ: أثبته[3].

**الدلالة السياقية**

لم ترد هذه اللفظة في السياق القرآني إلا في هذا الموضع من سورة

---

(1) السابق 1 / 81.

وينظر: تهذيب اللغة للأزهري. تحقيق. محمد عوض مرعب 13/ 58 - دار إحياء التراث العربي - بيروت - الطبعة الأولىٰ 2001م، والمصباح المنير للفيومي ص6 - مكتبة لبنان، والمفردات في غريب القرآن ص20، والمعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية 1/ 19 - الطبعة الثالثة د. ت.

(2) تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري. تحقيق. أحمد عبد الغفور عطار 5 / 270 - دار العلم للملايين - الطبعة الثالثة 1404هـ-1984م.

وينظر: أساس البلاغة للزمخشري. تحقيق. عبد الرحيم محمود ص6 - دار المعرفة - بيروت - لبنان.

(3) لسان العرب 1/ 82.

محمد[1]، وإذا كانت الدلالة المعجمية قد رسمت لها تلك الدلالات الأربع إلا أنَّ ما يحيط بالنص القرآني الذي وردت فيه هذه اللفظة قد حدَّد معالمها بالدلالة الأولىٰ فقط وهي دلالة التغيُّر عامة[2] دون نظر إلىٰ الدلالات المعجمية الأخرىٰ.

ذكر الطبري أن «صفة الجنة التي وعدها المتقون، وهم الذين اتقوا في الدنيا عقابه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه (فيها أنهار من ماء غير آسن) يقول تعالىٰ ذكره في هذه الجنة التي ذكرها أنها من ماء غير متغير الريح .. ... قال أهل التأويل: من ماء غير منتن . . . قيل: بلغني أنه لا تمسُّه يده، وأنه يجيء الماء هكذا حتىٰ يدخل في فيه»[3].

فأعلم الله ﷻ أن أنهار الجنة لا تتغيَّر رائحة مائها، ولا يأسَن[4].

ولكن قد تظهر بعض الفروق الدلالية من خلال القراءتين السبعيتين لهذه

(1) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص34 - دار الحديث.

(2) أنتن الماء أو لم ينتن.
ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية. تحقيق. أحمد صادق الملاح 15/ 60 - القاهرة - 1394هـ-1974م.

(3) جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري. تحقيق. أحمد محمد شاكر 22/ 166 - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولىٰ 1420هـ-2000م.
وينظر: معاني القرآن للفراء. تحقيق. أحمد يوسف نجاتي، محمد علىٰ النجار 3/ 60 - طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة، وإعراب القرآن للنحاس - علَّق عليه. عبد المنعم خليل إبراهيم 4/ 121 - منشورات محمد علي بيضون - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولىٰ 1421هـ-2001م، والكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري 4/ 322 - دار الكتاب العربي، والجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) 8/ 520، 521 - دار الحديث - القاهرة، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (تفسير الألوسي) تحقيق د. السيد محمد السيد، إبراهيم عمران 13/ 277 - دار الحديث - القاهرة، وتفسير القاسمي المسمَّىٰ محاسن التأويل 8/ 470 - منشورات دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولىٰ 1418هـ-1997م.

(4) معاني القرآن وإعرابه للزجاج - تحقيق د. عبد الجليل شلبي 5/ 9 - دار الحديث - القاهرة - الطبعة الثانية 1418هـ-1997م.

اللفظة «حيث قرأ ابن كثير بالقصر، علىٰ وزن «فَعِل» وقرأ الباقون بالمدّ علىٰ وزن «فاعل» ...»[1].

فقراءة القصر تحمل دلاله الحال، في حين قد تحمل قراءة المد دلالة الاستقبال أو دلالة الحال كسابقتها، والمعني العام لهما هو التغيُّر، حيث ذكر مكي بن أبي طالب أن «حجة من قصر: أنه جعله اسم فاعل علىٰ «فَعِل»، لأنه غير متعدّ إلىٰ مفعول كحَذِر، وهو قليل، حكي أبو زيد وغيره «أَسِن الماء يأسَن: إذاتغيَّر. وأسِن الرجل يأسَن: إذا غُشِيَ عليه من ريح خبيثة». وأَسِن بالقَصْر للحال، فالمعنىٰ: غير متغير في حال جَريه، وحُكِي أن في بعض المصاحف «غير يسن» بالياء أُبدلت من الهمزة المفتوحة لانكسار ما قبلها، فهذا يدل علىٰ القصر فيه.

وحجة من مدّه: أنه بنىٰ اسم الفاعل علىٰ «فاعل»، وهو الأكثر في «فَعِل يَفعَل» نحو: جهِل يجهَل فهو جاهل، وعلم يعلم فهو عالم، فهو بناء لما يُستقبل. فالمعنىٰ من ماء لا يتغير علىٰ كثرة المُكث. وقد يكون للحال مثل الأول»[2].

## المشهد الثاني (باب الباء)

(ب. ر. ك) (مباركًا) في قوله تعالىٰ-: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ **[سورة ق: 9].**

---

(1) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها. مكي بن أبي طالب القيسي. تحقيق د. محيي الدين رمضان 2/ 277 - مؤسسة الرسالة - الطبعة الرابعة 1407 هـ-1987م.
وينظر: الحجة في القراءات السبع لابن خالويه. تحقيق د. عبد العال سالم مكرم ص328 - مؤسسة الرسالة - الطبعة الخامسة 1410هـ-1990م، ومعاني القراءات للأزهري. حققه. أحمد فريد المزيدي ص450، 451 - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولىٰ 1420هـ-1999م، والتيسير في القراءات السبع لأبي عمرو الداني ص162 - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولىٰ 1416هـ-1996م.

(2) الكشف 2/ 277. وينظر: المحرر الوجيز 15/ 61، والجامع لأحكام القرآن 8/ 521.

**الدلالة المعجمية**

ذكر أهل اللغة أن «البَركة: النَّماء والزِّيادة ... وبارك الله الشيء وبارك فيه وعليه: وضع فيه البركة ... والعرب تقول: باركك الله وبارك فيك. قال الأزهرىٰ: معنىٰ بركة الله عُلُّوه علىٰ كل شيء ... اللحياني: باركت علىٰ التجارة وغيرها: أي واظبت عليها»[(1)].

وذكر الراغب الأصبهاني أن «البَركة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء.

قال تعالىٰ: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾» [الأعراف: 96]. وسمىٰ بذلك لثبوت الخير فيه ثبوت الماء في البِركة. والمُبَارك: ما فيه ذلك الخير ... ولما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يحسُّ، وعلىٰ وجه لا يحصىٰ ولا يحصر، قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة، هو مبارك وفيه بَركة ...»[(2)].

**الدلالة السياقية**

وردت هذه اللفظة في كتاب الله عز وجل في اثني عشر موضعًا[(3)].

وقد اتصف ماء السحاب في الآية القرآنية بكونه (مباركًا)، والدلالة فيه عامة كما ذكر العلماء، حيث يقول الزجاج: «المُبارك: ما يأتي من قِبله الخير الكثير[(4)]».

---

(1) لسان العرب 1/ 265، 266.

وينظر: تهذيب اللغة 10/ 131، والصحاح 4/ 1575، والمعجم الوسيط 1/ 35.

(2) المفردات في غريب القرآن ص57، 58.

(3) بالنصب في أربعة مواضع وهي: سورة آل عمران. الآية 96، ومريم الآية 31، والمؤمنون الآية 29، إضافة إلىٰ هذا الموضع، وبالرفع في أربعة مواضع وهي: سورة الأنعام الآية 92، 155 والأنبياء الآية 50، وص الآية 29. وبالتأنيث (مباركة) في أربعة مواضع أيضًا وهي: سورة النور الآية 25، 61، والقصص الآية 30، والدخان الآية 3.

ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص118.

(4) معاني القرآن وإعرابه 2/ 306.

وكذا ذكر المفسرون أن كونه (مبارك) أي: كثير المنفعة[1]، أو كثير البركة[2].

في حين ذكر ابن عطية لهذه اللفظة في سياقها القرآني دلالتين، الدلالة الأولىٰ وافق فيها المفسرين وهي أن: «قوله تعالىٰ: ﴿مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ قيل: يعني جميع المطر، كله يتصف بالبركة وإن ضَرَّ بعضه أحيانًا، ففيه مع ذلك الضُّرُّ الخاص البَركة العامة»[3].

ثم ذكر الدلالة الأخرىٰ الخاصة بقوله: «وقال بعض المفسرين (ماء مباركًا) يريد به ماء مخصوصًا خالصًا للبركة ينزله الله كل سنة، وليس كل المطر يتصف بذلك.»[4].

والخلاصة أن الماء المُبَارك في هذا السياق القرآني إمَّا أن تكون دلالته عامة بمعني الخير الكثير، أو دلالة خاصَّة يريد به ماء مخصوصًا خالصًا للبركة، والآية فيها دعوة صريحة للتفكير في كون الله ومدىٰ رحمته ولطفه بعباده.

## المشهد الثالث: باب الثاء

(ث. ج. ج) (ثجاجًا) في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ **[النبأ: 14]**.

### الدلالة المعجمية

ذكر ابن فارس أن مادة (الثاء والجيم والجيم) تجمعها دلالة واحدة وهي (صَبُّ الشيء)، حيث يقول في كتاب الثاء في (باب الكلام الذي أوله ثاء في المضاعف والمطابق والأصم): «الثاء والجيم أصل واحد، وهو صَبُّ الشيء. يقال: ثَجَّ الماءَ: إذا صَبَّه؛ وماءٌ ثَجّاجٌ: أي صَبّابٌ ...»[5].

---

(1) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي 9/ 531 - دار الفكر - 1412هـ-1992م.
وينظر الكشاف 4/ 381، وتفسير القاسمي 9/ 8، وروح المعاني 6/ 447.

(2) الجامع لأحكام القرطبي 9/ 9.

(3) المحرر الوجيز 15/ 165

(4) السابق الجزء نفسه والصفحة.

(5) مقاييس اللغة 1/ 367.

وكذا ذكر ابن منظور، فـ «الثَّجُّ: الصَّبُّ الكثير، وخصَّ بعضهم به صَبَّ الماء الكثير. وفي الحديث: تمام الحج العَجُّ والثَّجُّ. العَجُّ: العجيج[1] في الدُّعاء. والثَّجُّ: سفك دماء البُدْن وغيرها. وسئل النبي ﷺ عن الحج، فقال: أفضل الحج العَجُّ والثَّجُّ[2]». الثَّجُّ: سيلان دماء الهَدْي والأضاحي. وفي حديث أمِّ مَعْبَد: فَحَلَبَ فيه ثَجًّا[3]: أي لبنًا سائلاً كثيرًا. والثَّجُّ: السَّيَّلان. ومطر مِثَجٌّ وثَجَّاجٌ وثَجِيجٌ.. وماء ثَجُوجٌ وثَجَّاجٌ: مَصْبُوب ... ودَمٌ ثَجَّاج: مُنْصَبّ مُصَوَّب ... ومَطَر ثَجَّاج: شديد الانصباب جدًّا»[4].

## الدلالة السياقية

لم ترد لفظة (ثَجَّاجًا) في كتاب الله ﷻ إلا في هذا الموضع من سورة (ق) فقط[5]، وفيه تتوافق دلالتها المعجمية مع دلالتها السياقية التي تحمل دلالة الانصباب المتتابع أو الانصباب بكثرة، ولا فرق بين الدلالتين فالمعني واحد

(1) العجيج: هو رفع الصوت بالتلبية. السابق (ع. ج. ج) الجزء نفسه والصفحة.

(2) لم يرد الحديث بعبارة (تمام الحج) وإنما ورد بعبارة (أفضل الحج) والحديث أخرجه الترمذي في سننه عن ابن عمر رضي الله عنه تحقيق. أحمد محمد شاكر وآخرين 5/ 225 (باب ومن سورة آل عمران)، وفي (باب ما جاء في إيجاب الحج بالزاد والراحلة). قال أبو عيسىٰ: هذا حديث حسن. وقد تكلم بعض أهل العلم في أحد رواته وهو إبراهيم بن يزيد الخوزي المكي. - دار إحياء التراث العربي - بيروت. والحديث في سنن ابن ماجة. تحقيق. محمد فؤاد عبد الباقي 2/ 967 (باب ما يوجب الحج) وأيضًا في: 2/ 975 (باب رفع الصوت بالتلبية). دار الفكر - بيروت. والحديث أيضًا في سنن الدارمي تحقيق فواز أحمد زمرلىٰ، خالد السبع العلمي في 2/ 49 (باب أي الحج أفضل) - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الأولىٰ 1407هـ، وفي المستدرك علىٰ الصحيحين للحاكم النيسابوري تحقيق. مصطفىٰ عبد القادر عطا 1/ 620 الحديث عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه (أول كتاب المناسك) - هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه-دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولىٰ 1411هـ-1990م.

(3) في المستدرك علىٰ الصحيحين (كتاب الهجرة) 3/ 10.

(4) لسان العرب 1/ 472. وينظر: الصحاح 1/ 302، والقاموس المحيط 1/ 180، والمعجم الوسيط 1/ 98.

(5) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص159.

في النهاية كما ذكر القرطبي أن دلالة «ماء ثَجَّاجًا»: صَبَّابًا متتابعًا؛ عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما. يقال: ثَجَجْت دمَه فأنا أَثُجُّه ثجًّا، وقد ثَجَّ الدَّمُ يثجُ ثجوجًا، وكذلك الماء، فهو لازم ومتعدّ. والثَّجَّاج في الآية المنصَبّ. وقال الزجاج: أي الصَّبَّاب، وهو متعد كأنه يثج نفسه أي يَصُبُّ ... وقال ابن زيد: ثجاجًا: كثيرًا. والمعنىٰ واحد»[1].

إذًا ف (ماءً ثَجَّاجًا) هنا تعني: ماء منصبًّا يتبع بعضه بعضًا كثجّ دماء البدن، وذلك سفكها[2].

وأضاف ابن دريد (ت321 هـ) لهذا الموضع دلالة التضمين، وإن كان يري أن استعماله في موضعه أولىٰ من التأويل، حيث يقول: «هذا مِمَّا جاء في لفظ فاعل، والموضع مفعول؛ لأن السَّحاب يَثُجُّ الماءَ، فهو مَثْجُوجٌ. وقال بعض أهل اللغة: ثَجَجْت الماء أَثُجُّه ثَجًّا: إذا أسالَهُ، وثَجَّ الماءُ نفسُه يَثُجُّ ثُجُوجًا: إذا انْصَبَّ. فإذا كان كذلك فأن يكون في ثَجَّاج في معنىٰ ثاجّ أحسن من أن يُتَكلَّفَ وضع الفاعل موضع المفعول، وإن كان ذلك كثيرًا ...[3]».

## المشهد الرابع (باب الحاء)

(ح. م. م) (حميمًا) في قوله تعالىٰ: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ **[محمد: 15]**.

### الدلالة المعجمية

أنتجت الدلالة المعجمية لهذا اللفظ العربي سبعة معانٍ لا ترابط بينها ولا توافق اللهم إلا في دلالة واحدة حُمِلت علىٰ سبيل التشبيه، مع ظهور بعض الدلالات التي تحمل ظاهرة الأضداد في العربية.

---

(1) الجامع لأحكام القرآن 10/ 144.

وينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج 5/ 272، والبحر المحيط 10/ 385، والدر المصون 6/ 463.

(2) جامع البيان 24/ 155. وينظر: روح المعاني 15/ 268.

(3) لسان العرب 1/ 472. وينظر: روح المعاني 15/ 268.

وهذا إن دلَّ علىٰ شيء فإنما يدل علىٰ تلك الذخيرة اللغوية التي يحملها اللفظ العربي، وذلك بما يتضمنه من دلالات مختلفة تتلاءم وتتواءم مع السياق المناسب له.

**الدلالة الأولىٰ: القريب**

ذكر أهل اللغة أن الحميم: القريب، والجمع أحِمَّاء، وقد يكون الحميم للواحد والجمع والمؤنث بلفظ واحد ... قال الليث: والحميم: القريب الذي تَوَدُّهُ ويَوَدُّك ... والحميم: القرابة، يقال: مُحِمٌّ مُقْرِبٌ. وقال الفراء في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: 10]. لا يَسْأَل ذُو قرابة عن قرابته، ولكنهم يعرفونهم ساعة ثم لا تعارُف بعد تلك الساعة. وذكر الجوهريٰ: حميمك: قريبك الذي تهتمُّ لأمره.

**الدلالة الثانية: الماء الحارّ**

الحميم والحميمة جميعًا: الماء الحارّ. وشَرِبت البارحة حميمة: أي ماء سُخْنًا ... والحميمة: الماء يُسَخَّنُ. يقال: أَحَمُّوا لنا الماء: أي أسْخَنُوا. وحَمَمْتُ الماء: أي سَخَّنْتُهُ أَحُمُّ -بالضم- ... وقد أَحَمَّهُ وحَمَّمَه: غسله بالحميم. وكل ما سُخِّنَ فقد حُمِّمَ ...

**الدلالة الثالثة: الماء البارد**

قال أبو العباس: سألت ابن الأعرابي عن الحميم في قول الشاعر:

**وساغ لي الشراب وكنت قِدْما[1] أكاد أغصُّ بالماء الحميم**

فقال: الحميم: الماء البارد؛ قال الأزهري: فالحميم عند ابن الأعرابي من الأضداد، يكون الماء البارد ويكون الماء الحار.

(1) البيت برواية (قَبْلاً) في تهذيب اللغة 4/ 11، وتاج العروس من جواهر القاموس. محمد مرتضى الحسيني الزبيدي. تحقيق - مجموعة من المحققين 32/ 12 - دار الهداية.

**الدلالة الرابعة: الجمر تَتَبَخَّر به**

حكي شَمِر عن ابن الأعرابي: الحميم إن شئت كان ماء حارًّا، وإن شئت كان جمرًا تَتَبَخَّر به.

**الدلالة الخامسة: مطر الصيف**

الحميم: المطر الذي يأتي في الصيف حين تَسْخُنُ الأرض؛ قال الهُذَلِيُّ:

**هنالك لو دَعَوْتَ أتاك منهم رجال مثل أرْمِيَة الحميم**[١]

وقال ابن سيده: الحميم: المطر الذي يأتي بعد أن يشتد الحرّ، لأنه حارٌّ.

**الدلالة السادسة: القيظ**

الحميم: القيظ، وهو شدة الحرّ أو الفصل الذي يسميه الناس الصيف[2].

**الدلالة السابعة: العرق**

الحميم: العرق: ...

وأنشد ابن بَرِّيِّ لأبي ذُؤَيب:

**تَأْبَىٰ بِدِرَّتها إذا ما استُكْرِهَتْ إلا الحميم فإنه يَتَبَضَّعُ**[٣]

فأما قولهم لداخل الحمام إذا خَرَج: طاب حميمك، فقد يُعْنَىٰ به الاستحمام، وهو مذهب أبي عبيد، وقد يُعْنَىٰ به العَرَق، أي طاب عَرَقُك؛ وإذا

---

(1) **الأرمِيَة**: السحاب الشديد الوقع واحدها رَمْيٰ، والحميم: مطر القيظ.
ينظر: تهذيب اللغة 4/ 12، 15/ 201، وتاج العروس (ح. م. م) 32/ 12، (رمیٰ) 38/ 185.

(2) المصباح المنير (ق. ي. ظ) ص199.

(3) وفي رواية: «تأبىٰ بدرتها إذا ما استغضبت». ومعناه أن الفرس الجواد إذا حركت للعدو أعطاك ما عنده، فإذا حملته علىٰ أكثر من ذلك فحركته بساق أو بضرب سوط حمله عزة نفسه علىٰ ترك العدو والأخذ في المرح، ثم ينسلخ من ذلك المرح حتىٰ يصير في العدو إلىٰ ما لا يدري ما قدره فتأبىٰ الفرس عند ذلك إلا أن تعرق عرقًا حارًّا كالحميم يتبصع: أي يسيل قليلاً قليلاً.
ينظر: تاج العروس 32/ 12.

دُعِيَ له بِطِيبِ عَرَقِهِ فقد دُعِي له بالصحة، لأن الصحيح يطيب عرقه. الأزهرىٰ: يقال: طاب حميمك وحِمَّتُك للذىٰ يخرج من الحَمَّام، أي طاب عَرَقُكَ.

وذكر الزمخشري أنه: يقال للمستحِمِّ: طابت حِمَّتُك وحَمِيمُك، وإنما يطيب العرق علىٰ المُعَافىٰ، ويَخْبُثُ علىٰ المبتلَىٰ، فمعناه أصح الله جسمَك، وهو من باب الكناية[1].

وذكر الراغب: أن العرق سُمِّىٰ حميمًا علىٰ التشبيه[2].

## الدلالة السياقية

وردت لفظة (حميم) في القرآن الكريم في عشرين موضعًا[3] تحمل دلالتين فقط من هذه الدلالات المعجمية المتعددة، إضافة إلىٰ دلالة ثالثة انفرد بها السياق القرآني، وهذه الدلالات هي:

### الدلالة الأولىٰ: الماء المغلي شديد الحرارة.

وهو شراب أهل الكفر والمعاصي، وذلك في أربعة عشر موضعًا[4].

---

(1) أساس البلاغة ص96.

(2) المفردات في غريب القرآن ص185.

وينظر الدلالات السبع في: لسان العرب 2/ 1007: 1009، وتهذيب اللغة 4/ 11، ومقاييس اللغة 2/ 23، والصحاح 5/ 1905، والقاموس المحيط 4/ 99، وتاج العروس 32/ 12، 38/ 185، والمعجم الوسيط 1/ 207.

(3) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص219.

(4) وذلك في سورة الأنعام من الآية (70)، ويونس الآية (4)، والحج الآية (19)، والصافات الآية (67)، وص الآية (57)، وغافر الآية (72)، والدخان الآية (46)، (48)، ومحمد الآية (15)، والرحمن الآية (44)، والواقعة الآيات (42)، (54)، (93)، والنبأ الآية (25).

ينظر: الجامع لأحكام القرآن 4/ 19، 617، 6 / 347، 8 / 77، 188، 282، 451، 452، 522، 9/ 147، 177، 178، 194، 10 / 149.

**الدلالة الثانية: الصديق**

وذلك في ستة مواضع فقط[1].

وبين الدلالتين تقارب، حيث ذكر القرطبي أن «الحميم: القريب والخاص، ومنه حامّة الرجل أي أقرباؤه، وأصل هذا من الحميم وهو الماء الحارّ، ومنه الحمّام والحُمّىٰ، فحامّة الرجل الذين يحرقهم ما أحرقه، يقال: وهم حُزانته أي يحزنهم ما يحزنه، ويقال: حُمّ الشيء وأَحَمّ: إذا قرب، ومنه الحُمّىٰ، لأنها تقرب من الأجل، وقال علي بن عيسىٰ: إنما سمىٰ القريب حميمًا؛ لأنه يَحْمَىٰ لغضب صاحبه، فجعله مأخوذًا من الحميّة، وقال قتادة: يذهب الله ﷻ يوم القيامة مودّة الصديق ورقة الحميم»[2].

**الدلالة الثالثة: دموع أعينهم**

ما أجمل تلك الدلالة التي استخرجها ابن زيد من السياق القرآني في قوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ **[سورة ص: 57]**، وقوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ: **24، 25**] .. فقال: «الحميم: دموع أعينهم، تجمع في حياض ثم يُسْقَونه»[3]..

وعند النظر في الدلالات الثلاث تأتي الآية محور البحث حاملة الدلالة الأولىٰ، حيث يؤيد سياقها القرآني ذلك، فقوله تعالىٰ: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ تحمل دلالة الماء المغلي شديد الحرارة، والذي أعدَّه الله ﷻ شرابًا لأهل الكفر والمعاصي والمكذِّبين بنعمته الضالِّين عن سواء السبيل، حيث ذكر القرطبي عند تفسير هذه الآية «﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾: أي حارًّا شديد الغليان، إذا أُدْنىٰ منهم

---

(1) وذلك في سورة الشعراء من الآية (101)، وغافر الآية (18)، وفصلت الآية (34)، والحاقة الآية (35)، والمعارج الآية (10). حيث ورد ذكرها في هذه الآية مرتين.
ينظر: الجامع لأحكام القرآن 7/ 109، 8/ 257، 306، 9/ 481، 490.

(2) السابق 7/ 109. وينظر: 9/ 481.

(3) الجامع لأحكام القرآن 8/ 188، 10/ 149.

شوىٰ وجوههم، ووقعت فروة رءوسهم، فإذا شربوه قطع أمعاءهم وأخرجها من دبورهم[1]».

## المشهد الخامس (باب الدال)

(د. ف. ق) (دافق) في قوله تعالىٰ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: 5، 6].

### الدلالة المعجمية

ظهرت هذه اللفظة علىٰ الساحة المعجمية وهي تحمل دلالتين:

### الدلالة الأولىٰ: صَبُّ الماء

ذكر ابن منظور: «دَفَقَ الماءُ والدَّمْعُ يَدْفِق ويَدْفُق دَفْقًا: انْصَبَّ، وقيل: انصبَّ بِمَرَّة، فهو دافق، أي مدفوق، كما قالوا: سر كاتِمٌ، أي مكتوم، لأنه من قولك: دُفِق الماءُ علىٰ ما لم يسم فاعله ... وكل مُراق دافق ومتدفق»[2].

قال الأزهرىٰ: «الدَّفْقُ في كلام العرب: صَبُّ الماء، وهو مجاوز: يقال: دَفَقْت الكُوزَ فاندفق وهو مدفوق[3]».

### الدلالة الثانية: الدعاء بالموت

يقال: دَفَقَ الله روحه: إذا دُعِيَ عليه بالموت[4].

ولكن جمع ابن فارس هاتين الدلالتين في دلالة واحدة فقال: «الدال والفاء

---

(1) السابق 8/ 522.

وينظر: الكشاف 4/ 322، ومفاتيح الغيب للفخر الرازي 27/ 273 - الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة الأولىٰ - 1401هـ-1981م، وروح المعاني 13/ 280، والتحرير والتنوير. محمد الطاهر ابن عاشور 26/ 97، 98 - دار سحنون - تونس 1997م.

(2) لسان العرب 2/ 1396. وينظر: الصحاح 4/ 1475، والمعجم الوسيط 1/ 299.

(3) تهذيب اللغة 9/ 52.

(4) الصحاح 4/ 1475. وينظر: تهذيب اللغة 9/ 52، ولسان العرب 2/ 1396، والمعجم الوسيط 1/ 299.

والقاف أصل واحد مطرد قياسه، وهو دفع الشيء قُدُمًا. من ذلك: دفَقَ الماء، وهو ماءٌ دافق. وهذه دُفْقَة من ماء. ويُحمَل قولهم: جاءوا دُفْقَةً واحدة، أي مرَّة واحدة ... ودفَقَ الله رُوحَه، إذا دُعِي عليه بالموت[1]».

**الدلالة السياقية**

لم ترد هذه اللفظة في كتاب الله ﷻ إلا في هذا الموضع من سورة الطارق[2]، فهي لفظة فريدة في بابها أدَّت دورها في إبراز الدَّلالة علىٰ أفصح ما يكون.

وإذا كانت الدلالة المعجمية قد تعددت بين (صَبِّ الماء) أو (الموت)، أو توحدت في دفع الشيء قُدُمًا كما ذكر ابن فارس إلا أنها قد تخصصت وقيِّدت في داخل السياق القرآني بدلالة (صَبِّ المنىٰ) خاصَّة.

ذكر الألوسي أن «الدفق صَبٌّ فيه دفع وسيلان بسرعة، وأريد بالماء الدافق المنىٰ[3]».

وقد وصف الماء بالدفق في الآية الكريمة لعدة اعتبارات «قيل: باعتبار أحد جزئيه وهو منىٰ الرَّجل، وقيل: باعتبار كليهما ومنىٰ المرأة دافق أيضًا إلىٰ الرَّحم، ويشير إلىٰ إرادة الممتزج علىٰ ما قيل ... وقيل: إن ذلك باعتبار أن الرجل والمرأة يصيران كالشيء الواحد، فكأن الصلب والترائب لشخص واحد[4]».

إذًا «فمنىٰ الرجل والمرأة لما امتزجا في الرحم واتحدا عبر عنهما بماء وهو مفرد[5]».

---

(1) مقاييس اللغة 2/ 286.

(2) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص260.

(3) روح المعاني 15 / 390. وينظر: تفسير القاسمي 9/ 451.

(4) روح المعانىٰ 15/ 391.

(5) البحر المحيط 10/ 451. وينظر: الكشاف 4/ 735، والجامع لأحكام القرآن 10/ 263.

وقد ظهرت علىٰ هذه اللفظة أمارات التضمين كما في لغة أهل الحجاز، حيث ذكر الفراء (ت 207هـ) عند هذه الآية أن: «أهل الحجاز أفعل لهذا من غيرهم، أن يجعلوا المفعول فاعلاً إذا كان في مذهب نعت كقول العرب: هذا سرٌّ كاتم، وهمٌّ ناصب، وليل نائم، وعيشة راضية. وأعان علىٰ ذلك أنها توافق رءوس الآيات التي هنّ معهنّ[1]».

إذًا فقوله تعالىٰ: ﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾: أي مصبوب في الرَّحِم[2].

ويوضِّح تلك الدلالة قراءة زيد بن علي (مدفوق) وكأنَّه فَسَّر المعنىٰ[3].

وقيل: إن هذه اللفظة تحمل دلالة النَّسَب، حيث «قال الخليل وسيبويه: «هو علىٰ النسب، أي ذي دفق. والدفق: دفق الماء بعضه إلىٰ بعض، تدفق الوادي والسَّيل، إذا جاء يركب بعضه بعضًا، ويصح أن يكون الماء دافقًا، لأنه بعضه يدفع بعضًا، فمنه (دافق) ومنه (مدفوق)[4]».

ودلالة النسب تصدق علىٰ الفاعل والمفعول[5].

وقيل: هو اسم فاعل وإسناده إلىٰ الماء مجاز، وأسند إليه ما لصاحبه من مبالغة، أو هو استعارة مكنية وتخييلية كما ذهب إليه السكاكي، أو مصرحة بجعله دافقًا لأنه لتتابع قطراته كأنه يدفق أي يدفع بعضه بعضًا[6].

---

(1) معاني القرآن للفراء 3/ 255.

وينظر: جامع البيان 24/ 353، وتهذيب اللغة 9/ 52، والجامع لأحكام القرآن 10/ 263، ولسان العرب 2/ 1396، وروح المعاني 15/ 390، وتفسير القاسمي 9/ 451.

(2) الجامع لأحكام القرآن 10/ 263.

(3) الدر المصون 6/ 506. وينظر: البحر المحيط 10/ 451.

(4) المحرر الوجيز 16/ 276.

وينظر: معاني القرآن وإعرابه 5/ 311، والكشاف 4/ 735، وأساس البلاغة ص132، والجامع لأحكام القرآن 10/ 263، وتفسير القاسمي 9/ 451.

(5) روح المعاني 15/ 390.

(6) السابق الجزء نفسه والصفحة.

وذكر عن عكرمة عن ابن عباس: (دافق): لَزِج[1].

ولكن هذه الدلالة تحمل طابع الوصف كما ذكر أبو حيان تعليقًا علىٰ ذلك: «وكأنَّه أطلق عليه وصفه لا أنه موضوع في اللغة لذلك[2]».

## المشهد السادس (باب السين)

(س. ك. ب) في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآءٍ مَّسۡكُوبٍ﴾ **[الواقعة: 31]**.

### الدلالة المعجمية

ذكر علماء اللغة إحدىٰ عشرة دلالة للفظة (السَّكْب) في العربية وهي:

### الدلالة الأولىٰ: الصَّبُّ

السَّكْب: صَبُّ الماء. سَكَب الماء والدَّمْعَ ونحوهما يَسْكُبُه سَكْبًا وتَسْكابًا، فَسَكَبَ وانْسَكَبَ: صَبَّهُ فانْصَبَّ. وسَكَبَ الماءُ بنفسه سُكُوبًا وتَسْكابًا، وانسكب بمعنىٰ. قال الجوهري: سَكَبْتُ الماء سَكْبًا: أي صببته.

### الدلالة الثانية: الجريان علىٰ وجه الأرض

قال الجوهري: وماء مسكوب: أي يجرىٰ علىٰ وجه الأرض من غير حفر ... وماء سَكْب: أي مسكوب، وصف بالمصدر، كقولهم: ماء صَبٌّ وماء غَوْرٌ.

### الدلالة الثالثة: الهطلان الدائم

قال اللحياني: السَّكْب والأُسْكُوب: الهطلان الدائم.

### الدلالة الرابعة: الآذان

في الحديث عن عُرْوَة عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ كان يُصَلِّي فيما بين العشاء إلىٰ انصداع الفجر، إحدىٰ عشرة ركعة، فإذا سَكَبَ المُؤَذِّنُ بالأولىٰ من

(1) الجامع لأحكام القرآن 10/ 264.

(2) البحر المحيط 10/ 451.

صلاة الفجر قام فركع ركعتين خفيفتين[1]؛ قال سُوَيْد: سَكَبَ يريد: أَذَّن، وأصله من سَكْب الماء، وهذا كما يقال: أخَذَ في خُطْبة فَسَحَلها. قال ابن الأثير: أرادت: إذا أذَّنَ، فاستعير السَّكْبُ للإفاضة في الكلام، كما يقال: أفْرَغ في أُذني حَدِيثًا، أي ألقىٰ وصَبَّ.

**الدلالة الخامسة: الجواد كثير العدو**

فرس سَكْبٌ: جوادٌ كثير العَدْو ذَرِيع[2]، مثل حَتٍّ[3].

**الدلالة السادسة: فرس رسول الله ﷺ**

السَّكْبُ: فَرَسُ سيدنا رسول الله ﷺ، وكان كُمَّيْتًا[4] أغَرَّ مُحَجَّلاً مُطْلَقَ اليُمْنَىٰ، سُمِّىٰ بالسَّكْب من الخيل؛ وكذلك فَرَسٌ فَيْضٌ وبَحْرٌ وغَمْرٌ.

**الدلالة السابعة: خفة الرُّوح**

غلام سَكْب: إذا كان خَفيف الرُّوح نشيطًا في عمله.

---

(1) في الصحيحين بعبارة: (إذا سكت المؤذن بالأولىٰ).
ينظر: الجامع الصحيح للبخارىٰ - تحقيق د. مصطفىٰ ديب البغا 1/ 225 - (باب من انتظر الإقامة) - دار ابن كثير - اليمامة - بيروت - الطبعة الثالثة 1407هـ-1987م، وصحيح مسلم تحقيق. محمد فؤاد عبد الباقي 1/ 508 - (باب صلاة الليل وعدد ركعات النبي ﷺ وأن الوتر ركعة وأن الركعة صلاة صحيحة) - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(2) **الذريع**: السريع وزنًا ومعني. المصباح المنير (ذ. ر. ع) ص79.

(3) حتَّ الرَّجل الورق وغيره حتًّا من باب قتل: أزاله.
قال الأزهري: الحتُّ أن يُحَك بطرف حجر أو عود والقرص أن يُدَلك بأطراف الأصابع والأظفار دلكًا شديدًا ويصبّ عليه الماء حتىٰ تزول عينه وأثره. السابق (ح. ت. ت) ص46.

(4) **الكُمَّيت**: من الخيل بين الأسود والأحمر.
قال أبو عبيد: ويفرَّق بين الكميت والأشقر بالعُرْف والذَّنَب، فإن كانا أحمرين فهو أشقر، وإن كانا أسودين فهو الكميت. السابق (ك. م. ت) ص206.

**الدلالة الثامنة: اللزوم**

يقال: هذا أمر سَكْبٌ: أي لازم. ويقال: سُنَّةٌ سَكْبٌ.

**الدلالة التاسعة: النُّحاس أو الرُّصاص**

السَّكْب: النُّحاس عن ابن الأعرابي، أو الرُّصاص عنه أيضًا.

**الدلالة العاشرة: ضرب من الثياب رقيق**

السَّكْبُ: ضرب من الثياب رقيق ... وفي التهذيب: السَّكْب: ضرب من الثياب رقيق، كأنه غُبارٌ من رِقَّته، وكأنه سَكْب ماء من الرِّقَّة.

**الدلالة الحادية عشرة: ضرب من النبات**

قيل السَّكْب: ضرب من النَّبات[1].

وبالرغم من تعدُّد هذه الدلالات المعجمية إلا أنَّ ابن فارس قد أعادها إلىٰ حظيرة واحدة، وهي دلالة الصَّبّ فقط، حيث يقول: «السين والكاف والباء أصل يدل علىٰ صبّ الشيء». تقول: سكب الماء يسكبه. وفرس سَكْبٌ، أي ذريع، كأنه يسكُبُ عدْوَه سكبًا، وذلك كتسميتهم إياه بحرًا»[2].

فالصَّبُّ هو عنوان الدلالة المعجمية، وأما باقي الدلالات فتحمل علىٰ وجه المجاز.

يقول الزمخشري: «ومن المجاز: ماء سَكْب، و فرس سَكْب وأُسكوبٌ: ذريع ... وهذا أمر سكب، وسُنَّة سكب: حتم. قال لَقِيط بن زَرارة لأخيه مَعْبَدٍ وقد طلب إليه حين أُسِرَ أن يَفْديه بمائتين من الإبل: ما أنا بِمُنْطٍ عنك شيئًا

(1) ينظر: تهذيب اللغة 10/ 49، 50، والصحاح 1/ 148، والمفردات في غريب القرآن ص345، ولسان العرب 3/ 2045، 2046، والقاموس المحيط 1/ 82، وتاج العروس 3/ 65، 66، والمعجم الوسيط 1/ 454.

(2) مقاييس اللغة 3/ 88.

يكون علىٰ أهل بيتك سُنَّة سَكْبًا، ويَدْرَبُ له الناسُ بنا دَرْبًا[1]».

## الدلالة السياقية

إذا كانت الدلالة المعجمية للفظة (السَّكْب) في العربية قد تعددت بين الدلالة الحقيقية والدلالة المجازية، إلا أن الدلالة السياقية قد خصصت وقيَّدت تلك الدلالة في الآية القرآنية بالجريان، فـ «(ماء مسكوب) أي جارٍ لا ينقطع. وأصل السَّكْب: الصبّ، يقال: سكبه سكبًا، والسُّكُوب انصبابه، يقال: سَكَب سُكُوبًا، وانْسَكَب انسكابًا، أي ماء مصبوب يجرىٰ الليلُ والنهار في غير أُخدود لا ينقطع عنهم، وكانت العرب أصحاب بادية وبلاد حارة، وكانت الأنهار في بلادهم عزيزة لا يصلون إلىٰ الماء إلا بالدَّلو والرَّشاء فوعدوا في الجنة خلاف ذلك، ووصف لهم أسباب الترهة المعروفة في الدنيا، وهي الأشجار وظلالها، والمياه والأنهار واطّرادها»[2].

ولكن ذكر الرازي للفظة (السَّكْب) في الآية ثلاث دلالات مرجِّحًا الرأي الأول بقوله: «(وماء مسكوب) فيه وجوه:

**الأول**: مسكوب من فوق، وذلك لأن العرب أكثر ما يكون عندهم الآبار والبرك فلا سكب للماء عندهم بخلاف المواضع التي فيها العيون النابعة من الجبال الحاكمة علىٰ الأرض تسكب عليها.

**الثاني**: جار في غير أخدود، لأن الماء المسكوب يكون جاريًا في الهواء ولا نهر هناك، كذلك الماء في الجنة.

---

(1) أساس البلاغة ص215.

(2) الجامع لأحكام القرآن 9/ 174، 175.

وينظر: معاني القرآن للفراء 3/ 125، ومعاني القرآن وإعرابه 5/ 112، وجامع البيان 1/ 578، والكشاف 4/ 461، والمحرر الوجيز 15/ 368، والبحر المحيط 10/ 82، والدر المصون 6/ 259، وروح المعاني 14/ 186.

**الثالث**: كثير وذلك الماء عند العرب عزيز لا يسكب، بل يحفظ ويشرب. فإذا ذكروا النِّعَم يعدون كثرة الماء ويعبرون عن كثرتها بإراقتها وسكبها، والأول أصح»[1].

وفي الختام فإنَّ ما نراه أقرب للقبول هو دلالة (السَّكْب) في الآية علىٰ (الجريان)؛ لأن «سكب الماء: صبَّه، وأطلق هنا علىٰ جريه بقوة يشبه السَّكْب وهو ماء أنهار الجنة[2]».

## المشهد السابع (باب الصاد)

(ص. د. د) في قوله تعالىٰ: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَكِدِيدٍ﴾ [**إبراهيم: 16**].

### الدلالة المعجمية

لم يذكر أهل اللغة لهذه اللفظة سوىٰ دلالة واحدة ذكرها الجوهري بقوله: «وصَديد الجُرح: ماؤه الرقيق المختلط بالدم قبل أن تَغْلُظُ المِدَّةُ، تقول: أصَدَّ الجُرْحُ: إذا صارت فيه المِدَّة[3]».

وذكر الراغب أن «الصديد: ما حال بين الرحم والجلد من القيح. وضرب مثلاً لمطعم أهل النار[4]».

### الدلالة السياقية

لم ترد هذه اللفظة في كتاب الله ﷻ إلا في هذا الموضع من سورة إبراهيم[5]، وإذا كانت الدلالة المعجمية لهذه اللفظة قد توحَّدت ألاَّ أن الدلالة

(1) مفاتيح الغيب 29/ 279، 280.

(2) التحرير والتنوير 27/ 300.

(3) الصحاح 2/ 496. وينظر: مقاييس اللغة 3/ 282، ولسان العرب 4/ 2410، والقاموس المحيط 1/ 304، والمعجم الوسيط 1/ 528.

(4) المفردات في غريب القرآن ص407.

(5) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص403.

السياقية قد تشعبت وتعددت، ولكن تشعبها يعود بها إلىٰ حظيرة الدلالة المعجمية.

ذكر علماء التفسير أن دلالة (الصَّدِيد) في الآية يحمل علىٰ الوجوه الآتية:-

**الدلالة الأولىٰ:**

التشبيه، وذلك من ماء مثل الصديد، كما يقال للرجل الشجاع أسد، مثل الأسد، وهو تمثيل وتشبيه. فيكون بذلك نعتًا علىٰ إسقاط أداة التشبيه كما تقول: مررت برجل أسد، التقدير: مثل صديد.

وذكر ابن عطية أنه «ليس بماء، لكنه لما كان بدل الماء في العرف عندنا عد ماء، ثم نعته بـ (صديد) كما تقول هذا خاتم حديد[1]».

فعلىٰ قول ابن عطية هو نفس الصديد وليس بماء حقيقة، وعلىٰ هذا القول لا يكون صديدًا ولكنه ما يشبه الصديد[2].

وذكر الرازي: «ويسقىٰ من ماء كالصديد. وذلك بأن يخلق الله تعالىٰ في جهنم ما يشبه الصديد في النتن والغلظ والقذارة[3]».

**الدلالة الثانية:**

هو ما يسيل من أجسام أهل النار من القيح والدم كما ذكر مجاهد وقتادة والضحاك.

**الدلالة الثالثة:**

هو غسالة أهل النار، وذلك ماء يسيل من فروج الزناة والزواني كما ذكر محمد بن كعب القرظي والربيع بن أنس.

---

(1) المحرر الوجيز 10/ 73.

(2) البحر المحيط 6/ 419.

(3) مفاتيح الغيب 17/ 313.

**الدلالة الرابعة:**

صديد بمعنىٰ مصدود عنه، أي لكراهته يصد عنه، فيكون مأخوذًا عنه من الصَّدِّ[1].

عن عبد الله بن بسر عن أبي أمامة عن النبي ﷺ في قوله ﷻ: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَكِدِيدٍ ۝١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ قال: «يقرب إليه فيتكرهه، فإذا أدني منه شوىٰ وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شرب قطَّع أمعاءه حتىٰ يخرج من دبره. يقول الله: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ **[محمد: 15]**، ويقول الله ﷻ: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ **[الكهف: 29]**»[2].

وهذه الدلالات الأربع هي صورة من الدلالة المعجمية، فالصَّديد هو القيح والدَّم علىٰ الدلالات الثلاث الأولىٰ، ولكراهته يُصَدُ عنه فتأتي الدلالة الرابعة.

وهذه الدلالات صورة لما أعدَّه الله للكافر في جهنم؛ «لأن سياق الكلام يدل علىٰ أنَّ هذا من أحوال الكافر في جهنم»[3].

## المشهد الثامن: (باب الطاء)

(ط. هـ. ر) (طهورًا) في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ **[الفرقان: 48]**.

**الدلالة المعجمية**

ذكر ابن فارس أن «الطاء والهاء والراء أصل واحد صحيح يدل علىٰ نقاءٍ

---

(1) ينظر الدلالات الأربع في: معاني القرآن وإعرابه 3/ 157، والمحرر الوجيز 10/ 73، والكشاف 2/ 546، ومفاتيح الغيب 17/ 313، والجامع لأحكام القرآن 5/ 318، والبحر المحيط 6/ 419، وروح المعاني 7/ 258، 259، وتفسير القاسمي 7/ 308.

(2) المستدرك علىٰ الصحيحين 2/ 382، 400، 496 - (تفسير سورة إبراهيم ﵇). وهذا حديث صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه.

(3) البحر المحيط 6/ 420.

وزوال دَنَس. ومن ذلك الطهر: خلاف الدّنس. والتطهُّر: التنزه عن الذَّم وكل قبيح. وفلان طاهر الثياب: إذا لم يدنس ... والطَّهور: الماء. قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾. وسمعت محمد بن هارون الثَّقفي يقول: سمعت أحمد بن يحيىٰ ثعلبًا يقول: الطَّهور: الطاهر في نفسه، المُطَهِّر لغيره»[1].

وذُكر في لسان العرب أن «اسم الماء الطَّهُور. وكل ماء نظيف طَهُور، أي يُتَطَّهرُ به، وكل طَهُور طاهر، وليس كل طاهر طَهُورًا. قال الأزهري: وكل ما قيل في قوله ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾، فإن الطَّهور في اللغة هو الطَّاهر المُطَهَّرُ، لأنه لا يكون طَهُورًا إلا وهو يُتَطَّهرُ به، كالوَضُوء هو الماء يُتَوَضأ به، والنَّشُوق ما يْستَنْشَقُ به، والفَطُور ما يُفْطَر عليه من شراب أو طعام. وسئل رسول الله ﷺ عن ماء البحر، فقال: «**هو الطَّهُور ماؤه، الحِلُّ مَيْتَتُهُ**»[2]؛ أي المُطَهِّرُ، أراد أنه طاهر يُطَهَّرُ.

وقال الشافعي رضي الله عنه: كل ماء خلقه الله نازلاً من السماء، أو نابعًا من عَيْن في الأرض، أو بحر لا صنعة فيه لآدمي غير الاستقاء، ولم يُغَيَّرْ لونه شيء يخالطه، ولم يتغير طعمه منه، فهو طَهُور، كما قال الله ﷻ.

قال ابن الأثير: الطُّهُور -بالضم: التَّطهُر، وبالفتح: الماء الذي يُتَطَهَّر به، كالوَضوء والوُضوء، والسَّحُور والسُّحُور، وقال سيبويه: الطَّهور -بالفتح-: يقع علىٰ الماء والمصدر معًا ... والمراد بهما التَّطهُرُ. والماء الطَّهُورُ -بالفتح-: هو الذي يرفع الحَدَث ويُزيل النَّجُس، لأنَّ فَعُولاً من أبنية المبالغة، فكأنه تناهىٰ في الطهارة، والماء الطاهر غير الطَّهُور، وهو الذي لا يرفع الحدث ولا يزيل النجس، كالمستعمل في الوُضُوء والغُسْل»[3].

---

(1) مقاييس اللغة 3/ 428.

(2) سنن أبي داود 1/ 31 (باب الوضوء بماء البحر) دار الكتاب العربي - بيروت.

(3) لسان العرب 4/ 2712، 2713. =

إذًا فالدلالة المعجمية للفظة (الطَّهُور) -بفتح الطاء-: هو الماء الذي يدل علىٰ نقاء وزوال دَنَس، فهو الذي يرفع الحدث ويزيل النَّجس، ولكن دلالته الصرفية تتعدد كما ذكر أبو حيان ف «الطَّهَور: فعول: إمّا للمبالغة كنؤوم فهو معدول عن طاهر، وإما أن يكون اسمًا لما يتطهر به كالسحور والفطور، وإما مصدرًا لتطَهَّر جاء علىٰ غير المصدر حكاه سيبويه»[1].

**الدلالة السياقية**

من خلال موضعين وردت لفظة (طَهُورًا) في السياق القرآني[2]، وفيها تأتي الدلالة السياقية بما يتوافق مع الدلالة المعجمية، فتحمل (طهورًا) دلالة (النقاء) مع المبالغة في (الحدث)، حيث ذكر أبو حيان. أن «الظاهر في قوله (ماء طهورًا) أن يكون للمبالغة في طهارته، وجهة المبالغة كونه لم يشبه شيء، بخلاف ما نبع من الأرض ونحوه فإنه تشوبه أجزاء أرضية من مقره أو ممره أو مما يطرح فيه، ويجوز أن يوصف بالاسم والمصدر. وقال ثعلب: هو ما كان طاهرًا في نفسه مطهرًا لغيره»[3].

فإن كان ما قاله شرحًا لمبالغته في الطهارة كان سديدًا، ويعضده: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ **[الأنفال: 11]**، وإلا فليس فعول من التفعيل في شيء[4].

ومن استعمال (طهور) للمبالغة قوله تعالىٰ: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾[5].

= وينظر: تهذيب اللغة 6/ 100، والصحاح 2/ 727، والمفردات في غريب القرآن ص459، 460، والقاموس المحيط 2/ 78، والمعجم الوسيط 2/ 589.

(1) البحر المحيط 8/ 115. وينظر: الكشاف 3/ 284.

(2) الموضع الثاني في سورة الإنسان الآية 21. ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص429.

(3) البحر المحيط 8/ 115. وينظر: المحرر الوجيز 12/ 28، 29.

(4) الكشاف 3/ 284.

(5) البحر المحيط 8/ 116.

ومن هنا فإن دلالة «(ماء طهورًا): يتطهر به، كما يقال: وضوء للماء الذي يتوضأ به، وكل طهور طاهر، وليس كل طاهر طهورًا، فالطَّهور -بفتح الطاء- الاسم، وكذلك الوَضوء والوَقود، وبالضم المصدر، وهذا هو المعروف في اللغة، قاله ابن الأنباري، فبيّن أن الماء المنزل من السماء طاهر في نفسه مطَهِّر لغيره، فإن الطهور مبالغة في طاهر، وهذه المبالغة اقتضت أن يكون طاهرًا مطهرًا، وإلىٰ هذا ذهب الجمهور[1].

## المشهد التاسع: (باب الغين)

(غ. د. ق) (غدقا) في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾ **[الجن: 16]**.

### الدلالة المعجمية

أجمل ابن فارس دلالة هذه المادة بقوله «الغين والدال والقاف أصل صحيح يدل علىٰ غُزْر وكثرة ونَعْمَة. من ذلك الغَدَق، وهو الغزير الكثير ... والغَدَق والغَيْدَاق: الناعم من كل شيء. ويقال: غَدِقت عين الماء تَغْدَق غَدَقًا ...»[2].

ولكن ابن منظور فَصَّل تلك الدلالة وفَرَّعها إلىٰ عدة فروع وهي:

1) الغَدَق: المطر الكثير العام. وقد غَيْدَق المطر: كَثرُ (عن أبي العميثل الأعرابي) ... وفي حديث الاستسقاء: اسْقِنا غَيْثًا غَدَقًا مُغْدِقًا؛ الغَدَق -بفتح الدال-: المطر الكبار القطر.

2) الغَدَق: الماء الكثير، وإن لم يك مطرًا ... وقال الزجاج: الغَدَق المصدر، والغَدِق اسم الفاعل، يقال: غَدِق يَغْدَق غَدَقًا فهو غَدِق، إذا كَثُرَ الندىٰ في المكان أو الماء، قال: ويقرأ ماء غَدِقًا.

(1) الجامع لأحكام القرآن 7/ 39.

(2) مقاييس اللغة 4/ 415.

3) أرض غَدِقة: في غاية الرَّىٰ، وهي النَّدِيَّة المُبْتَلَّة الرُّبَىٰ الكثيرة الماء، وعُشْبُها غَدِق، وغَدَقُه: بَلَلُه ورِيُّه، وكذلك عُشْب غَدِق بَيِّن الغَدَق: مُبْتَلّ رَيَّان (رواه أبو حنيفة وعزاه إلىٰ النضر).

4) غَدَقَتْ الأرض غَدَقًا و أغْدَقَتْ: أخْصَبَتْ. وغَدِقَتِ العَيْنُ غَدَقًا، فهي غَدِقَة.

5) غَدِقَتْ عَيْن الماء -بالكسر: أي غَزُرَتْ.

6) في الحديث ذكر بئر غَدَق -بفتحتين[1]-: بئر معروفة بالمدينة[2].

## الدلالة السياقية

لم ترد لفظة (غدقًا) في كتاب الله ﷻ إلا في هذا الموضع من سورة الجن[3]، وتكاد تتفق كلمة العلماء في أن الدلالة السياقية لهذه اللفظة هي (التوسعة في الزرق)، بالرغم من اختلاف آرائهم في عود الضمير في لفظة (استقاموا) إلىٰ القاسطين، أو المسلمين، أو الخلق كلهم. وتفصيل ذلك علىٰ النحو الآتي:-

### 1- الخطاب للقاسطين

ذهب الفراء إلىٰ أن (الطريقة) في الآية الكريمة لوفسرت بالكفر «﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ يكون زيادة في أموالهم ومواشيهم، ومثلها قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ **[الزخرف: 33]**. يقول نفعل ذلك بهم ليكون فتنة عليهم في الدنيا، وزيادة في عذاب الآخرة»[4].

وقد يكون المعنىٰ «(وألو استقاموا علىٰ الطريقة) التي هم عليها من الكفر

---

(1) النهاية في غريب الحديث والأثر لأبن الأثير. تحقيق. طاهر أحمد الزاوي، د. محمود محمد الطناحي 3/ 346 - المكتبة العلمية - بيروت - 1399هـ-1979م.

(2) لسان العرب 5/ 3218. وينظر: تهذيب اللغة 6/ 158.

(3) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص496.

(4) معاني القرآن للفراء 3/ 193، 194. وينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج 5/ 235.

فكانوا كلهم كفارًا لوسَّعنا أرزاقهم مكرًا لهم واستدراجًا حتىٰ يفتتنوا بها، فنعذبهم بها في الدنيا والآخرة ... واستدلوا بقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ **[الأنعام: 44]**»[1].

وإن فسرت الطريقة بالهدي أو الإسلام كما ذكر الزجاج: «(لأسقيناهم ماء غدقًا)، والغَدَق: الكثير، ودليل هذا التفسير قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ **[الأعراف: 96]**، وكقوله: ﴿**لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم**﴾ **[المائدة: 66]**[2]».

والذي رجَّحه أهل التفسير أن تفسير الطريقة بالهدىٰ أقرب إلىٰ القبول، حيث ذكر الزجاج أن «الذي يختار وهو أكثر التفسير أن يكون يعني بالطريقة: طريق الهدىٰ؛ لأن الطريقة مُعَرَّفة بالألف واللام، والأوجب أن يكون طريق الهدىٰ»[3].

إضافة إلىٰ «أن استعارة الاستقامة للكفر قلقة[4]».

## 2- الخطاب للمسلمين

ذكر ابن عطية أن «الضمير في قوله (استقاموا): عائد علىٰ قوله (من أسلم) **[الجن: 14]**، و (الطريقة) طريقة الكفر، لو كفر من أسلم من الناس (لأسقيناهم) إملاءً لهم واستدراجًا[5]».

## 3- الخطاب للجنّ

ذكر الزمخشرىٰ أن توجيه الضمير في (استقاموا) قد يعود إلىٰ الجن، وفي هذه الحالة قد يحتمل المعنىٰ: «وأوحي إلىٰ أن الشأن والحديث لو استقام

(1) الجامع لأحكام القرآن 10/ 18. وينظر: جامع البيان 23/ 662، والمحرر الوجيز 16/ 138.

(2) معاني القرآن وإعرابه 5/ 235.

وينظر: جامع البيان 23/ 662، والمحرر الوجيز 16/ 138، والبحر المحيط 10/ 299.

(3) معاني القرآن وإعرابه 5/ 235.

(4) المحرر الوجيز 16/ 138. وينظر: البحر المحيط 10/ 299.

(5) المحرر الوجيز 16/ 138. وينظر: الجامع لأحكام القرآن 10/ 18، والبحر المحيط 10/ 299.

الجن علىٰ الطريقة المثلىٰ، أي: لو ثبت أبوهم الجانّ علىٰ ما كان عليه من عبادة الله والطاعة، ولم يستكبر عن السجود لآدم، ولم يكفر وتبعه ولده علىٰ الإسلام، لأنعمنا عليهم ولوسَّعنا رزقهم. وذكر الماء الغدق وهو الكثير -بفتح الدال وكسرها-، وقرىء بهما؛ لأنه أصل المعاش وسعة الرزق ... ويجوز أن يكون معناه: وأن لو استقام الجن الذين استمعوا علىٰ طريقتهم التي كانوا عليها قبل الاستماع ولم ينتقلوا عنها إلىٰ الإسلام لوسَّعنا عليهم في الرزق مستدرجين لهم ...»[1].

**4- الخطاب للخلق كلهم**

والدلالة في هذه الحالة علىٰ اعتبار «(وألو استقاموا علىٰ الطريقة) طريق الحق والإيمان والهدي وكانوا مؤمنين مطيعين ﴿لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾ أي كثيرًا ... وقال عمر في هذه الآية: أينما كان الماء كان المال، وأينما كان المال كانت الفتنة. فمعنىٰ (لأسقيناهم) لوسّعنا عليهم في الدنيا؛ وضَرَب الماء الغَدَق الكثير لذلك مثلاً؛ لأن الخير والرزق كله بالمطر يكون، فأقيم مقامه، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ **[الأعراف: 96]**، وقوله تعالىٰ: ﴿**وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ**﴾ **[المائدة: 66]** أي بالمطر[2]».

إذًا فالدلالة السياقية قد أخذت فرعًا من فروع الدلالة المعجمية وهو (التوسعة في الرزق)، «وإنما تجوَّز بالماء الغدق وهو الكثير، عن ما ذكر؛ لأنه أصل المعاش وسعة الرزق، ولعزة وجوده بين العرب، أو لأن غيره يعلم منه بالأولىٰ»[3].

## المشهد العاشر (باب الفاء)

(ف. ر. ت) (فراتًا) في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا﴾ **[المرسلات: 27]**.

---

(1) الكشاف 4/ 628، 629.

(2) الجامع لأحكام القرآن 10/ 18. وينظر: البحر المحيط 10/ 299.

(3) تفسير القاسمي 9/ 334. وينظر: البحر المحيط 10/ 299.

## الدلالة المعجمية

ذكر ابن فارس أن «الفاء والراء والتاء كلمة واحدة، وهي الماء الفُراتُ، وهو العذب. يقال: ماء فرات، ومياه فُراتٌ»[1].

في حين ذكر لها ابن منظور دلالتين:

### الدلالة الأولىٰ: العذوبة

الفُراتُ: أشَدُّ الماء عُذُوبةً. وفي التنزيل العزيز: ﴿وَهُوَ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ **[الفرقان: 53]**. وقد فَرُتَ الماءُ يَفْرُتُ فُرُوتَةً: إذا عَذُبَ، فهو فُراتُ.

### الدلالة الثانية: علم علىٰ نهر

الفُراتُ: اسم نَهْر الكوفة، معروف[2].

## الدلالة السياقية

وردت لفظة (فراتًا) في كتاب الله ﷻ في ثلاثة مواضع[3]، والدلالة السياقية فيها تتفق مع الدلالتين المعجميتين، وهما:

### 1- دلالة التخصيص

ذكر الطبري أن (الفرات) في الآية الكريمة يحمل علىٰ دلالة التخصيص بأربعة أنهار معينة، حيث روىٰ «عن ابن عباس (وأسقيناكم ماء فراتًا) قال: من أربعة أنهار: سيحان وجيحان، والنيل، والفُرات[4]، وكل ماء يشربه ابن آدم، فهو

---

(1) مقاييس اللغة 4/ 498.

(2) لسان العرب 5/ 3368.

وينظر: الصحاح 1/ 259، 260، والمفردات في غريب القرآن ص564، والقاموس المحيط 1/ 153، والمعجم الوسيط 2/ 703.

(3) والموضعان الآخران قي سورة الفرقان من الآية 53، وسورة فاطر من الآية 12.

ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص514.

(4) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**سيحان وجيحان والنيل والفرات وكل من أنهار الجنة**» مسند أحمد بن حنبل 2/ 289 - مؤسسة قرطبة - مصر.

من هذه الأنهار[1]، وهي تخرج من تحت صخرة من عند بيت المقدس، وأما سيحان فهو ببلخ، وأما جيحان فهو بدجلة، وأما الفرات ففرات الكوفة، وأما النيل فهو بمصر»[2].

**2- دلالة التعميم**

أجمع المفسِّرون علىٰ أن (الفرات): هو الماء العذب، حيث ذكر القرطبي: «(وأسقيناكم ماء فراتًا) أي وجعلنا لكم سُقْيا. والفُرَات: الماء العذب يشرب ويسقىٰ منه الزرع. أي خلقنا الجبال وأنزلنا الماء الفرات. وهذه الأمور أعجب من البعث. وفي بعض الحديث قال أبو هريرة: في الأرض من الجنة الفرات والدّجلة ونهر الأردن. وفي صحيح مسلم: سيحان وجيحان والنيل والفُرات كلّ من أنهار الجنة[3]»[4].

وذكر ابن عطية أن: «(الفرات) الصافي العذب، ولا يقال للملح فرات، وهىٰ لفظة تجمع ماء المطر ومياه الأنهار، وخص النهر المشهور بهذا تشريفًا له وهو نهر الكوفة[5]».

## المشهد الحادي عشر (باب الميم مع الهاء واللام)

(م. هـ. ل) (المهل) في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف: **29**].

### الدلالة المعجمية

تعدَّدت الدلالة المعجمية حول بيان ماهية هذا اللفظ، حيث ذكر ابن منظور

(1) وفي هذا بُعْد. ينظر: المحرر الوجيز 16/ 201.

(2) جامع البيان 24/ 125.

(3) أخرجه مسلم 4/ 2183 (كتاب الجنة وصفة نعيمها)، (باب ما في الدنيا من أنهار الجنة).

(4) الجامع لأحكام القرآن 10/ 135.

وينظر: معاني القرآن وإعرابه 5/ 267، ومفاتيح الغيب 31/ 112، وروح المعاني 15/ 247.

(5) المحرر الوجيز 16/ 201. وينظر: جامع البيان 24/ 125.

أن «المُهْل: اسم يجمع مَعْدِنِيَّات الجواهر. والمُهْل: ما ذاب من صُفْر أو حديد ... والمُهْل والمُهْلة: ضرب من القَطِران ما هِيٌّ رقيق يُشْبه الزَّيت، وهو يَضْرِب إلىٰ الصُّفْرة من مهاوَتِه، وهو دَسِم تُدْهَنُ به الإبل في الشتاء؛ ... والقَطِران الخاثِرُ لا يَهْنَأ به، وقيل: هو دُرْدِي الزَّيْت، وقيل: هو العكر المُغْلَي، وقيل: هو رقيق الزَّيْت، وقيل: هو عامَّتُهُ ... وقالت العامرية: المُهْل عندنا: السُّمُّ. والمُهْل: الصَّديد والدَّم يخرج فيما زعم يونس. والمُهْل: النُّحاس الذائب ... والمُهْل: ما يتحاتُّ عن الخُبْزَة من الرَّماد ونحوه إذا أُخرجت من المَلَّة. قال أبو حنيفة: المُهْل: بقية جَمْر في الرَّماد تبَيِّنُه إذا حَرَّكته. ابن شُمَيْل: المُهْل عندهم المَلَّة إذا حَمِيَتْ جِدًّا رأيتَها تموج. والمُهْل: صديد الميت.

وفي الحديث عن أبي بكر ﵁: أنَّه أوصىٰ في مرضه فقال: ادفنوني في ثَوْبَيَّ هذين، فإنما هما للمُهْل والتراب[1]؛ قال أبو عبيدة: المُهْل في هذا الحديث الصديد والقيح، قال: والمُهْل في غير هذا كلُّ فِلزٍّ أذيب. قال: والفِلزِّ جواهر الأرض من الذهب والفضة والنحاس، وقال أبو عمرو: المُهْل في شيئين، هو في حديث أبي بكر ﵁: القَيْح والصديد، وفي غيره دُرْدِي الزَّيْت، لم يعرف منه إلا هذا»[2].

ومن هنا فقد ذكر ابن منظور لهذه اللفظة ثلاث عشرة دلالة، ويبدو فيها التقارب كما هو واضح.

## الدلالة السياقية

ثلاثة مواضع هي عنوان لفظة (المهل) في كتاب الله ﷻ[3]، والدلالة السياقية

(1) النهاية في غريب الحديث والأثر 3/ 375.

(2) لسان العرب 6/ 4288، 4289.

وينظر: الصحاح 5/ 1822، والمفردات في غريب القرآن ص723، وأساس البلاغة ص438، والمعجم الوسيط 2/ 952.

(3) والموضعان الآخران في سورة الدخان من الآية 45، وسورة المعارج من الآية 8.

ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص678.

في الآية الكريمة تتفق مع معظم مفردات الدلالة المعجمية، وذلك من خلال احتمال هذه اللفظة للدلالات الآتية:

1) عن ابن عباس المهل: ماء غليظ مثل دُردِيّ الزَّيْت.

2) عن مجاهد: القيح والدَّم الأسود.

3) عن الضحاك: ماء أسود، وإن جهنم لسوداء، وماؤها أسود، وشجرها أسود وأهلها سود.

4) قال أبو عبيدة: هو كل ما أذيب من جواهر الأرض من حديد ورَصاص ونُحاس وقَزْدير، فتموج بالغليان، فذلك المهل، ونحوه عن ابن مسعود.

5) قال سعيد بن جُبير: هو الذي قد انتهىٰ حَره.

6) قال سعيد بن جُبير: ضرب من القَطِران؛ يقال: مَهلت البعير فهو ممهول.

7) قيل: هو السُّمُّ[1].

8) عن الحسن: أنه الرَّماد الذي ينفط إذا خرج من التنور[2].

9) قال القاشانيّ: هو من جنس الغسّاق[3] والغِسْلين[4]، أي المياه المتعفنة التي تسيل من أبدان أهل النار، مسوّدة يغاثون بها، أو غسالتهم القذرة، ويؤيده قوله تعالىٰ: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝ يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ **[إبراهيم: 16، 17]**[5].

---

(1) الجامع لأحكام القرآن 5/ 716.

(2) البحر المحيط 7/ 169.

وينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج 3/ 282، والكشاف 2/ 719، ومفاتيح الغيب 19/ 303، 304، والدر المصون 4/ 451، وروح المعاني 8/ 360، 361.

(3) **الغسّاق** - بالنخفيف والتشديد -: ما يسيل من صديد أهل النار وغسالتهم، وقيل: ما يسيل من دموعهم. وقيل: هو الزمهرير. النهاية في غريب الحديث والأثر (غ. س. ق) 3/ 366.

(4) **الغِسْلِين**: ما ينغسل من أبدان الكفار في النار - والياء والنون زائدتان -. المصباح المنير (غ. س. ل) ص170.

(5) تفسير القاسمي 7/ 31.

والمعنىٰ في هذه الأقوال متقارب كما ذكر القرطبي[1].

## المشهد الثاني عشر (باب الميم مع الهاء والنون)

(م. هـ. ن) (مهين) في قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: 8].

وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: 20].

### الدلالة المعجمية

من خلال خمس دلالات معجمية ذكر أهل اللغة مفهوم هذه اللفظة وهي:

### الدلالة الأولىٰ: الضعيف

المَهِينُ من الرجال: الضعيف ... ورجل مَهِين من قوم مُهَناءَ: أي ضعيف.

### الدلالة الثانية: الحقير والصغير

في صفته ﷺ: (ليس بالجافي ولا المهين)[2]، يُرْوَىٰ بفتح الميم وضمها، فالضم من الإهانة، أي لا يُهين أحدًا من الناس، فتكون الميم زائدة، والفتح من المَهَانة: الحَقَارة والصُّغْر فتكون الميم أصلية.

وذكر الزمخشري: مَهُن مهانة: حَقُر فهو مَهِين[3].

### الدلالة الثالثة: الفاجر

في التنزيل العزيز: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم: 10]؛ وقال الفراء: المَهِين ههنا: الفاجر.

---

(1) الجامع لأحكام القرآن 5/ 716.

(2) في حديث أبي هالة التميمي. غريب الحديث لابن قتيبة. تحقيق. عبد الله الجبوري 1/ 488 - مطبعة العاني - بغداد - الطبعة الأولىٰ 1397هـ.

(3) أساس البلاغة ص438.

**الدلالة الرابعة: القليل**

قال أبو إسحاق: هو فعيل من المهانة وهي القِلَّة، قال: ومعناه ههنا القِلَّة في الرأي والتمييز.

**الدلالة الخامسة: الفحل الذي لا يلقح**

قال ابن بَرِّيّ: المهين فِعْلُه مَهُنَ -بضم الهاء-، والمصدر المَهَانة. وفَحْل مَهِين: لا يُلْقَح من مائه، يكون في الإبل والغنم، والفِعْل كالفِعْل[1].

ولكن ابن فارس أجمل هذه الدلالات وأعادها إلىٰ باب واحد وهو الحقارة في الشيء، وهو مصيب في ذلك، حيث يقول: «الميم والهاء والنون أصل صحيح يدل علىٰ احتقار وحقارة في الشيء. منه قولهم: مَهِين، أي حقير. والمَهانة: الحَقَارة، وهو مَهِين بَيِّنُ المَهانة. ومن الباب المهْن: الخِدمة، والمِهْنة. والماهِن: الخادم. ومَهَنْت الثوب: جذبته. وثوب مَمْهُون. وربما قالوا: مَهَنْتُ الإبل: حلبتُها»[2].

**الدلالة السياقية**

حددت الدلالة السياقية هذه الدلالات المعجمية، وذلك في جميع المواضع الأربعة التي وردت فيها هذه اللفظة في كتاب الله ﷻ[3]، وقد أشار بها ﷻ في هذا السياق القرآني إلىٰ إحدىٰ مراحل خلق الإنسان، فقال: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾، فلفظة الماء تعبيرًا عن منيِّ الرجل والمرأة أو النطفة، والمهين هو الضعيف الممتهن الذي لا يعتنىٰ به. وفي هذا إجماع بين أهل التفسير.

---

(1) لسان العرب 6/ 4290.

وينظر: الصحاح 6/ 2209، وأساس البلاغة ص438، والقاموس المحيط 4/ 268.

(2) مقاييس اللغة 5/ 283.

(3) والموضوعان الآخران في سورة الزخرف من الآية 52، وسورة القلم من الآية 10، وسورة المرسلات من الآية 20.

ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص678.

ذكر الطبري أن «قوله: (ماء مهين) يقول: من نطفة ضعيفة قذرة ... عن مجاهد (من ماء مهين) قال: ضعيف نطفة الرجل، ومهين: فعيل من قول القائل: مهن فلان، وذلك إذا زلّ وضعف[1]».

وقال الزجاج: «(من ماء مهين): ضعيف، وقال غيره: (مهين) لا خطر له عند الناس[2]». والدلالة واحدة كما ترىٰ.

إذًا فقد أشارت الدلالة السياقية إلىٰ إحدىٰ مفردات الدلالة المعجمية من باب تخصيص العام.

واعلم أن دلائل الآفاق أدل علىٰ كمال القدرة كما قال تعالىٰ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ﴾ **[غافر: 57]**، ودلائل الأنفس أدل علىٰ نفاذ الإرادة فإن التغيرات فيها كثيرة، وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾ **[السجدة: 8]** ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ **[السجدة: 9]** أي كان طينًا فجعله منيًّا ثم جعله بشرًا سويًّا[3].

## المشهد الثالث عشر (باب الهاء)

(هـ. م. ر) (منهمر) في قوله تعالىٰ: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ **[القمر: 11]**.

### الدلالة المعجمية

ذكر أهل اللغة أن لفظة (منهمر) في العربية تحمل سبع دلالات وهي:

### الدلالة الأولىٰ: الصَّبُّ والسيلان

الهَمْر: صَبّ الدَّمع والماء والمطر. هَمَر الماءُ والدَّمْعُ يَهْمر هَمْرًا: صَبَّ.

(1) جامع البيان 20/ 172.

وينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج 4/ 205، والمحرر الوجيز 13/ 33، ومفاتيح الغيب 24/ 545، والبحر المحيط 10/ 376، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير 3/ 599 - مؤسسة الريان - دار اليقين - الطبعة الثانية 1417هـ-1996م، وروح المعاني 11/ 161، 15/ 246، وتفسير القاسمي 8/ 39.

(2) الجامع لأحكام القرآن7/ 407. وينظر: إعراب القرآن للنحاس 3/ 200.

(3) مفاتيح الغيب 24/ 545.

قال ساعدة بن جُؤَيَّةَ:

**وجاء خليلاهُ إليها كلاهُما   يفيض دموعًا لا يَرِيثُ هُمُورُها**[١]

وانْهَمَرَ كَهَمَر، فهو هامِرٌ، ومنهمر: سال. وهمرَ الماءَ والدَّمعَ وغيره يَهْمِرُه هَمْرًا: صَبَّه.

**الدلالة الثانية: الإكثار في الكلام**

هَمَر الكلام يَهْمِرُهُ هَمْرًا: أكثر فيه. وذكر الزمخشري: همر في كلامه: أكثر[2].

**الدلالة الثالثة: شدَّة العدْو**

الهَمْر: شدة العدْو. وهَمَر الفرسُ الأرضَ يَهْمِرُها هَمْرًا، واهتمرها: وهو شدَّة ضَرْبه إيَّاها بحَوافره؛ وأنشد[3]:

**عَزَازَةٌ ويَنْهَمِرن ما انْهَمَرَ**

**الدلالة الرابعة: الحَلْب**

هَمَر ما في الضَّرْع: أي حلبه كله.

**الدلالة الخامسة: العطاء**

هَمَر له من ماله: أي أعطاه.

**الدلالة السادسة: الجَهْد**

هَمَر الغُزْرُ النَّاقة يَهْمِرُها هَمْرًا: جَهَدَها[4].

---

(1) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده. تحقيق د. عبد الحميد هنداوي 4/ 315 - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولىٰ 2000م.

(2) أساس البلاغة ص487.

(3) أي العجاج. ينظر: تهذيب اللغة 6/ 158.

(4) لسان العرب 6/ 4697. =

**الدلالة السابعة: الهدم**

هَمَره يَهْمِره -بالكسر لا غير- فانهمر: أي هدمه فانهدم نقله الصاغاني ... انْهَمَرت الشجرة: انْحَتَّت عند الخبط نقله الصاغاني[1].

وقد ذكر ابن فارس بعض هذه الدلالات وهي: الإكثار في الكلام والعطاء وأعادها إلىٰ دلالة واحدة عامة وهي (الصَّبُّ والسَّيلان)، حيث يقول: «الهاء والميم والراء: أصل واحد يدل علىٰ صَبٍّ وانصباب. وهَمَر دمعه. وهَمَر الدَّمع وانهمر: سال ... وهَمَر في كلامه: أكثر. وهو مِهْمَار، أي كثير الكلام، وهَمَر له من ماله، كأنه صَبَّه له صَبًّا[2]».

ونحن مع ابن فارس في أنَّ هذه الدلالات التي ذكرها تعود إلىٰ دلالة واحدة وهي دلالة (الصَّب والسَّيلان)، إضافة إلىٰ أن باقي الدلالات التي ذكرها أهل اللغة تعود أيضًا إلىٰ هذه الدلالة العامَّة، ولكن استخدمت علىٰ سبيل المجاز أو الاستعارة.

**الدلالة السياقية**

لم ترد لفظة (منهمر) في كتاب الله ﷻ إلا في هذا الموضع من سورة القمر[3]، ودلالتها السياقية تتفق مع دلالتها المعجمية العامَّة وهي (الصَّبُّ والسَّيلان)، حيث ذكر الرازي أنَّ «الانهمار: الانسكاب والانصباب صبًّا شديدًا. والتحقيق فيه أنَّ المطر يخرج من السَّماء التي هي السَّحاب خروج مترشح

---

= وينظر: الصحاح 2/ 855، 856، وأساس البلاغة ص487، والمفردات في غريب القرآن ص795، والقاموس المحيط 4/ 160، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآباذي. تحقيق. عبد العليم الطحاوي 5/ 342 - القاهرة - 1421هـ-2000م، وتاج العروس 14/ 441: 443، والمعجم الوسيط 2/ 1034.

(1) تاج العروس 14/ 443.

(2) مقاييس اللغة 6/ 65.

(3) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص738.

من ظرفه، وفي ذلك اليوم كان يخرج خروج مرسل خارج من باب[1]». وفيه استعارة تمثيلية، بتشبيه تدفع المطر من السحاب بانصباب أنهار انفتحت لها أبواب السماء، وشق لها أديم الخضراء[2].

وروي عن ابن عباس: ففتحنا أبواب السماء بماء (منهمر) من غير سحاب لم يقلع أربعين يومًا[3].

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أنه قال: لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده إلا من السَّحاب، وفتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم فالتقىٰ الماءان، وفي رواية: لم تقلع أربعين يومًا[4].

وذكر بعض المفسرين أن «(بماء منهمر) أي كثير؛ قاله السَّدّي.

قال الشاعر:

**أعيني جودا بالدَّموع الهَوَامر    علىٰ خير بادٍ من مَعَدٍّ وحاضِرِ»[٥].**

وتكاد الدلالة أن تكون واحدة، لأن الصَّبَّ يحمل بين طياته دلالة الكثرة.

---

(1) مفاتيح الغيب 29/ 69.

وينظر: معاني القرآن وإعرابه 5/ 87، وجامع البيان 22/ 577، والكشاف 4/ 434، والجامع لأحكام القرآن 9/ 112، والدر المصون 6/ 131.

(2) تفسير القاسمي 9/ 91.

(3) الجامع لأحكام القرآن 9/ 112. وينظر: الكشاف 4/ 434، والبحر المحيط 10/ 38.

(4) روح المعاني 14/ 108.

(5) الجامع لأحكام القرآن 9/ 112.

وينظر: جامع البيان 22/ 577، والمحرر الوجيز 15/ 298، 299، والبحر المحيط 10/ 38، والدر المنثور للسيوطي 7/ 675 - دار الفكر - بيروت 1993م، وفتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني 5/ 122 - دار الفكر - بيروت، وروح المعاني 14/ 108.

# الخاتمة

بعد تلك الرحلة البحثية التي قضاها الباحث مع (أوصاف الماء في القرآن الكريم بين الدلالة المعجمية والسياقية) والإبحار من خلالها في كتب اللغة والتفسير حتىٰ خرج البحث بهذه الصورة، كان لابد من إتمام الفائدة حتىٰ يتمَّ البناء إن كان ما صنعه يستحق هذا الوصف.

وإتمام الفائدة يأتي عن طريق إبراز أهم نتائج البحث، وذلك بصورة إجمالية علىٰ النحو الآتي:-

1) إذا كانت لفظة (الماء) قد وردت في القرآن الكريم في واحد وستين موضعًا، فإن أوصاف الماء قد انحصرت في ثلاثة عشر موضعًا، مَثَّل كل وصف منها مشهدًا من مشاهد الدلالة في القرآن الكريم.

2) من خلال تسعة مواضع ظهرت أوصاف الماء في الربع الأخير من القرآن الكريم، في حين لم تأت الأوصاف الأخرىٰ إلا في أربعة مواضع فقط، وذلك في سورة إبراهيم والكهف والفرقان والسجدة.

3) حملت الدلالة المعجمية طابع العموم والتعدد، بخلاف الدلالة السياقية فقد حملت في الغالب طابع التخصيص والتقييد.

4) من خلال تعدُّد الدلالة المعجمية ظهر ما يسمىٰ في عرف أهل اللغة بـ (المشترك اللفظي)، وهو دلالة اللفظ علىٰ أكثر من معنىٰ، سواء أظهر التضاد بينها أم لا، فالتضاد كما في دلالة لفظة (الحميم) علىٰ الماء الحار والبارد، وعدم التضاد كما في بقيَّة الدلالات الأخرىٰ.

5) ظهرت الدلالة المعجمية في غالب أوصاف الماء للدلالة علىٰ معانٍ متعددة، وذلك في تسعة ألفاظ وهي (آسن)، و (حميم)، و (دافق)، و (مسكوب)، و (غدق)، و (فرات)، و (المهل)، و (مهين)، و (منهمر)، ولم تتوحد الدلالة المعجمية إلا في أربعة ألفاظ وهي: (مبارك)، و (ثجاج)، و (صديد)، و (طهور).

6) وردت بعض أوصاف الماء في القرآن الكريم في أكثر من موضع لدلالات أخرىٰ، وذلك في ستة ألفاظ هي: (مبارك)، و (حميم)، و (طهور)، و (فرات)، و (المهل)، و (مهين)، و غالب الأوصاف لم يرد إلا للماء فقط وذلك في سبعة ألفاظ وهي: (آسن)، و (ثجاج)، و (دافق)، و (مسكوب)، و (صديد)، و (غدق)، و (منهمر).

7) انفردت الدلالة السياقية في بعض الأحيان ببعض الدلالات التي لم تذكرها الدلالة المعجمية مثل لفظة (حميم) عندما فسَّرها ابن زيد بأنها دموع أعينهم.

8) قد تحمل بعض الدلالات السياقية طابع المجاز أو الاستعارة كما وصف الماء بأنه (منهمر).

9) تتعدد دلالات أوصاف الماء في القرآن الكريم وتتنوع إلىٰ ثلاثة أنواع:

أ- مقام النعمة من الخالق ﷻ تفضلاً منه وتكرُّمًا علىٰ عباده كما في وصف الماء بأنه (مبارك)، و (ثجاج)، و (مسكوب)، و (طهور)، و (غدق)، و (فرات).

ب- مقام النقمة، وذلك من جملة العذاب الذي أعدَّه الله لهؤلاء الخارجين عن حدوده كما في وصف الماء بأنه (حميم)، و (صديد)، و (كالمهل)، و (منهمر).

وهنا قد تحوَّلت النِّعَم إلىٰ نِقَم، والصورة الطيبة إلىٰ خبيثة بسبب ذنوب بني آدم وما قدمته أيديهم جزاء وفاقًا، فأصبح الماء (حميمًا)، و (صديدًا)، و (كالمهل)، و (منهمرًا) بعد أن كان (مباركًا)، و (ثجاجًا)، و (مسكوبًا)، و (طهورًا)، و (غدقًا)، و (فراتًا).

ج- التذكير بحقيقة خلق الإنسان وأصله حتىٰ لا تأخذه العزة بالإثم كما وصف الماء بأنه (دافق)، و (مهين).

وبعد، فإن كان النقص عنوان هذا البحث فالله أسأل أن يعفو ويصفح، وإن كان التوفيق فله الحمد والثناء علىٰ ما أنعم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

# فهرس المصادر والمراجع

## القرآن الكريم

1) إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا القرآن الكريم لأبي السعود العمادي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

2) أساس البلاغة للزمخشري. تحقيق. عبد الرحمن محمود - دار المعرفة - بيروت - لبنان.

3) الأضداد لابن الأنباري. تحقيق. محمد أبو الفضل إبراهيم - المكتبة العصرية - صيدا - بيروت - 1407هـ-1987م.

4) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي - دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان - الطبعة الثالثة.

5) إعراب القرآن للنحاس. علق عليه. عبد المنعم خليل إبراهيم - منشورات محمد علي بيضون - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولىٰ 1421هـ. 2001م.

6) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي - دار الفكر - 1412هـ-1992م.

7) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزابادي. تحقيق. عبد العليم الطحاوي - القاهرة 1421هـ-2000م.

8) تاج العروس من جواهر القاموس المحيط. محمد مرتضىٰ الحسين الزبيدي. تحقيق. مجموعة من المحققين - دار الهداية.

9) تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري. تحقيق د. أحمد عبد الغفور عطار - دار العلم للملايين - الطبعة الثالثة 1404هـ-1984م.

10) التحرير والتنوير. محمد الطاهر بن عاشور - دار سحنون - تونس 1997م.

11) تفسير القاسمي المسمّىٰ محاسن التأويل - منشورات دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولىٰ 1418هـ-1997م.

12) تفسير القران العظيم لابن كثير - مؤسسة الريان - دار اليقين - الطبعة الثانية 1417هـ-1996م.

13) تهذيب اللغة للأزهري. تحقيق. محمد عوض مرعب - دار إحياء التراث العربي - بيروت - الطبعة الأولىٰ 2001م.

14) التيسير في القراءات السبع لأبي عمر والداني - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولىٰ 1416هـ-1996م.

15) جامع البيان في تأويل آي القران للطبري. تحقيق. أحمد محمد شاكر - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولىٰ 1420هـ-2000م.

16) الجامع الصحيح للبخاري. تحقيق د. مصطفىٰ ديب البغا - دار ابن كثير - اليمامة - بيروت - الطبعة الثالثة 1407هـ-1987م.

17) الجامع لأحكام القران (تفسير القرطبي) - دار الحديث - القاهرة.

18) الحجة في القراءات السبع لابن خالويه. تحقيق د. عبد العال سالم مكرم - مؤسسة الرسالة - الطبعة الخامسة 1410هـ-1990م.

19) الخصائص لابن جني. تحقيق. محمد علي النجار - الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة الثالثة 1407هـ-1987م.

20) دراسات في الدلالة والمعجم - د. رجب عبد الجواد إبراهيم - دار غريب - القاهرة.

21) دراسات في فقه اللغة. محمد الأنطاكي - دار الشرق العربي - بيروت - الطبعة الرابعة 1389هـ-1969م.

22) دراسة المعنىٰ عند الأصوليين - د. طاهر سليمان حمودة - الدار الجامعية - 1403هـ-1983م.

23) الدر المصون في علوم الكتاب المبين للسمين الحلبي. تحقيق. علي محمد معوض وآخرين - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولىٰ 1414هـ-1994م.

24) الدر المنثور للسيوطي - دار الفكر - بيروت 1993م.

25) دلائل الإعجاز للجرجاني. علَّق عليه. محمود محمد شاكر - مكتبة الخانجي بالقاهرة - مطبعة المدني.

26) دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث د. عبد الفتاح البركاوي - دار المنار بالقاهرة - الطبعة الأولىٰ 1411هـ-1991م.

27) دلالة السياق د. ردة الله بن ضيف الله الطلحي - معهد البحوث العلمية - مكة المكرمة - الطبعة الأولىٰ 1424هـ.

28) دلالة الألفاظ د. إبراهيم أنيس - مكتبة الأنجلو المصرية - الطبعة الخامسة 1984م.

29) الدلالات القرآنية د. محمد حسن جبل - 1420هـ-1999م.

30) دور الكلمة في اللغة. ستيفن أولمان. ترجمة د. كمال محمد بشر - مكتبة الشباب.

31) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (تفسير الألوسي). تحقيق د. السيد محمد السيد، إبراهيم عمران - دار الحديث - القاهرة.

32) سنن ابن ماجه. تأليف. محمد بن يزيد أبي عبد الله القزويني. تحقيق. محمد فؤاد عبد الباقي - دار الفكر - بيروت.

33) سنن أبي داود. تأليف. سليمان بن الأشعث السجستاني - دار الكتاب العربي - بيروت.

34) سنن الترمذي. تحقيق. أحمد محمد شاكر وآخرين - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

35) سنن الدارمي. تحقيق. فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الأولىٰ 1407هـ.

36) الصاحبي في فقه اللغة العربية وسَنَن العرب في كلامها لابن فارس. تحقيق. السيد أحمد صقر - مطبعة الحلبي - دار إحياء الكتب العربية.

37) صحيح مسلم. تحقيق. محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

38) الظواهر اللغوية في أدب الكاتب لابن قتيبة. د. مجدي إبراهيم محمد إبراهيم - مكتبة النهضة المصرية - الطبعة الأولىٰ 1421هـ-2000م.

39) علم الدلالة بين النظر والتطبيق د. أحمد نعيم الكراعين - المؤسسة الجامعية - الطبعة الأولىٰ 1413هـ-1993م.

40) علم الدلالة. د. إبراهيم محمد أبو سكين - الطبعة الأولىٰ 1423هـ-2003م.

41) علم الدلالة. د. أحمد مختار عمر - عالم الكتب - الطبعة الرابعة 1993م.

42) علم الدلالة دراسة نظرية وتطبيقية د. فريد عوض حيدر - مكتبة النهضة المصرية - الطبعة الأولىٰ 1998م.

43) علم الدلالة دراسة وتطبيق. د. نور الدين لوشن - المكتب الجامعي الحديث - الأسكندرية.

44) علم اللغة د. إبراهيم محمد أبو سكين - دار الزهراء للطباعة بالزقازيق - الطبعة الأولىٰ 1418هـ-1997م.

45) علم اللغة مقدمة للقارىء العربي د. محمود السعران - دار الفكر العربي 1412هـ-1992م.

46) غريب الحديث لابن قتيبة. تحقيق. عبد الله الجبوري - مطبعة العاني - بغداد - الطبعة الأولىٰ 1397هـ.

47) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني - دار الفكر - بيروت.

48) فقه اللغة في الكتب العربية. د. عبده الراجحي - 1974م.

49) فقه اللغة وخصائص العربية. محمد المبارك - دار الفكر - 1421هـ-2000م.

50) في ظلال القرآن. سيد قطب - دار الشروق - الطبعة الشرعية الحادية عشرة - 1410هـ-1990م.

51) القاموس المحيط للفيروزابادي - الهيئة المصرية العامة للكتاب - 1398هـ-1978م.

52) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري - دار الكتاب العربي.

53) الكشاف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها. مكي بن أبي طالب القيسي - تحقيق د. محيي الدين رمضان - مؤسسة الرسالة - الطبعة الرابعة - 1407هـ-1987م.

54) الكلمة دراسة لغوية معجمية د. حلمي خليل - دار المعرفة الجامعية - الأسكندرية - الطبعة الثانية.

55) لسان العرب لابن منظور الإفريقي. تحقيق. عبدالله علي الكبير وآخرين - طبعة دار المعارف.

56) اللغة. فندريس. تعريب د. عبد الحميد الدواخلي، د. محمد القصاص - مكتبة الأنجلو المصرية - مطبعة لجنة البيان العربي 1950م.

57) اللغة العربية معناها ومبناها. د. تمام حسان - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1979م.

58) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده. تحقيق د. عبد الحميد هنداوي - دار الكتب العربية - بيروت - الطبعة الأولى 2000م.

59) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية. تحقيق. أحمد صادق الملاح - القاهرة 1374هـ-1974م.

60) مدخل إلىٰ علم اللغة الحديث. د. عبد الفتاح البركاوي - القاهرة - الطبعة الثانية 1411هـ-1990م.

61) المزهر في علوم اللغة للسيوطي. تحقيق. محمد جاد المولىٰ وآخرين - دار التراث - الطبعة الثالثة د. ت.

62) المستدرك علىٰ الصحيحين للحاكم النيسابوري. تحقيق. مصطفىٰ عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولىٰ 1411هـ-1990م.

63) مسند أحمد بن حنبل - مؤسسة قرطبة - مصر.

64) المصباح المنير للفيومي - مكتبة لبنان.

65) معاني القراءات للأزهري. حققه. أحمد فريد المزيدي - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولىٰ 1420هـ-1999م.

66) معاني القرآن للفراء. تحقيق. أحمد يوسف نجاتي، محمد علي النجار - طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة.

67) معاني القرآن وإعرابه للزجاج. تحقيق د. عبد الجليل شلبي - دار الحديث - القاهرة - الطبعة الثانية 1418هـ-1997م.

68) معجم ألفاظ القرآن الكريم. مجمع اللغة العربية بالقاهرة - الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث - 1410هـ-1990م.

69) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان - دار الحديث.

70) المعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية بالقاهرة - الطبعة الثالثة د. ت.

71) المعنىٰ اللغوي. د. محمد حسن جبل - مكتبة الآداب - الطبعة الأولىٰ 1426هـ-2005م.

72) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني - مكتبة الأنجلو المصرية 1970م.

73) مفاتيح الغيب للفخر الرازي - الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة الأولىٰ 1401هـ-1981م.

74) مقاييس اللغة لابن فارس. تحقيق. عبد السلام محمد هارون - دار الجيل - بيروت - لبنان - الطبعة الأولىٰ 1411هـ-1991م.

75) مناهج البحث في اللغة. د. تمام حسان - مطبعة دار الثقافة - الدار البيضاء - المغرب - 1400هـ-1979م.

76) من أسرار اللغة. د. إبراهيم أنيس - مطبعة الأنجلو المصرية - الطبعة السادسة 1978م.

77) من بلاغة القرآن. أحمد أحمد بدوي - دار نهضة مصر - 1370هـ-1950م.

78) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير. تحقيق. أحمد طاهر الزاوي، د. محمود محمد الطناحي - المكتبة العلمية - بيروت 1399هـ-1979م.

## مراجع الإنترنت

- www.islaiyyat.com/alayat5
- www.nooran.org70/7/(8)
- www.nooran.org120/12/0/29%.
- www.stoop55.com

# فهرس الموضوعات

**المقدمة** ........ **119**

**التمهيد** ........ **123**

الماء بين القرآن الكريم والعلم الحديث ........ 123

المفهوم الاصطلاحي للدلالة المعجمية والاصطلاحية ........ 129

أوصاف الماء والدراسة الدلالية ........ 137

**المشهد الأول**: باب الهمزة (ماء غير آسن) ........ 137

**المشهد الثاني**: باب الباء (ماء مباركًا) ........ 140

**المشهد الثالث**: باب الثاء (ماء ثجاجًا) ........ 142

**المشهد الرابع**: باب الحاء (ماء حميمًا) ........ 144

**المشهد الخامس**: باب الدال (ماء دافق) ........ 149

**المشهد السادس**: باب السين (ماء مسكوب) ........ 152

**المشهد السابع**: باب الصاد (ماء صديد) ........ 156

**المشهد الثامن**: باب الطاء (ماء طهورًا) ........ 158

**المشهد التاسع**: باب الغين (ماء غدقًا) ........ 161

**المشهد العاشر**: باب الفاء (ماء فراتًا) ........ 164

**المشهد الحادي عشر**: باب الميم مع الهاء واللام (ماء كالمهل) ........ 166

**المشهد الثاني عشر**: باب الميم مع الهاء والنون (ماء مهين) ........ 169

**المشهد الثالث عشر**: باب الهاء (ماء منهمر) ........ 171

**الخاتمة** ........ **175**

**فهرس المصادر والمراجع** ........ **177**

# الفروق الدلالية
# في
# مصنفات ابن مالك الصوتية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

# مُقَدِّمَة

الحمد لله ربِّ العالمين، يحب من أحبَّ العربيَّة؛ لأنَّها لغة كتابه ولغة نبيِّه، والصَّلاة والسَّلام علىٰ خير البريَّة محمد بن عبد الله ﷺ وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

**أما بعد:**

فإذا قلنا بأنَّ ابن مالك رائد من رواد الدراسات النَّحوية فنحن بذلك لم نقدِّم جديدًا للقارئ العربي ولم نضف إلىٰ معلوماته شيئًا؛ وذلك لأنَّ مصنَّفاته في هذا المجال حديث السَّاعة في كل زمان ومكان، وآية من آيات ذكاء الفكر وجمال البيان، ولكن إذا تحدَّثنا عن ريادته في مجال اللغة وخاصَّة في باب الصوتيَّات العربيَّة ليس فقط من خلال آرائه المبثوثة في الأبواب الصَّرفيَّة وإنَّما من خلال المصنَّفات الخاصَّة بهذا الجانب ربَّما ظنَّ بعض الدارسين أنَّ هذا من باب المبالغة أو الغلو في تمجيد شخصية هذا العالم الجليل ولكنَّها حقيقة العدل والإنصاف يشهد بها الدَّرس اللغوي الحديث؛ وذلك بما استفاد منه من آراء وتوجيهات، وكأنَّ ابن مالك من خلالها قد انتقل بفكره وقلمه من القرن السَّابع إلىٰ القرن الخامس عشر كعلامة بارزة وشمس ساطعة في سماء لغتنا العربيَّة.

وقد أدرك ابن مالك إدراكًا تامًّا قيمة الصَّوت اللغوي وما يحمله من دلالات خاصَّة علىٰ مستوىٰ التَّراكيب والسِّياقات، أو ما يعرف في علم اللغة الحديث بـ«الفونولوجي» أو «علم الأصوات الخاص»، ليس فقط من خلال صفحات بل من خلال مصنَّفات سواء من خلال تبادل الحروف أم الحركات.

وليس معنىٰ ذلك أن فكرة التَّبادل بين الأصوات تؤدِّي عنده في كل حال إلىٰ اختلاف الدَّلالات بل في بعض الأحيان قد تتوحَّد الدَّلالات؛ وذلك كما يبدو في مصنَّفه (منظومة فيما ورد بالواو والياء)، أو في تلك الصَّفحات التي تحمل

عنوان (ما يهمز وما لا يهمز والمعنىٰ واحد)، أو (المثلث المتفق المعنىٰ)، ولكن الغالب والشَّائع أن الصَّوت اللغوي كما أنَّ له صورته النطقيَّة الخاصَّة به وعالمه الخاص به فكذلك له خصوصيته الدَّلاليَّة، تؤكِّد علىٰ ذلك بعض مصنَّفاته التي تحمل عنوان (الاعتماد في نظائر الظَّاء والضَّاد)، أو بعض أبواب من مصَنَّفَاته والتي تحمل عنوان (ما يهمز وما لا يهمز والمعنىٰ مختلف) في كتابه: (القول الأوجز في ما يهمز وما لا يهمز)، أو (المثلث المختلف المعنىٰ) في كتابه: (إكمال الإعلام بتثليث الكلام) وما جمع فيها من مفردات؛ وذلك لإيمانه كما توافقت معه الدِّراسات الحديثة بأن كل صوت أو فونيم له وظيفة دلاليَّة واستبداله بآخر يذهب به بالتَّالي إلىٰ دلالة أخرىٰ حتىٰ وإن توافقت معه جميع الحروف في الكلمة الواحدة.

ومن هنا استمدَّ الباحث فكرة بحثه وعنون لها بـ **(الفروق الدَّلاليَّة في مصَنَّفَات ابن مالك الصَّوتيَّة)**.

وقد قدَّم الباحث هذا البحث في تمهيد وثلاثة مباحث معتمدًا علىٰ المنهج الوصفي، فالتمهيد عنوانه **(ابن مالك: تعريف وتصنيف ودلالة)**، وأما المباحث الثلاثة فكل مبحث منها يحتوي علىٰ مصنَّف من مصنَّفات ابن مالك الصوتيَّة الخاصَّة بتبادل الأصوات واختلاف الدَّلالة سواء علىٰ مستوىٰ الحروف أم الحركات، يعرض منها لبعض النماذج، ثم يقوم بالتَّحليل والتعليق وفق الدَّرس اللغوي الحديث، مع تقديم جميع الشَّواهد اللغوية التي اعتمد عليها ابن مالك في هذه المُصَنَّفات في توثيق الدَّلالة اللغوية، وذلك من خلال عرض بعضها في كل مبحث حتىٰ تتكامل في نهاية البحث، ثم خاتمة وفيها تسجيل لأهم النتائج.

**المبحث الأول**: اختلاف المادة والدَّلالة في الاعتماد في نظائر الظَّاء والضَّاد.

**المبحث الثاني**: اختلاف المادة والدَّلالة في شرح القول الأوجز في ما يهمز وما لا يهمز.

**المبحث الثالث**: اختلاف الحركة والدَّلالة في إكمال الإعلام بتثليث الكلام.

وبعد، فهذا باب عظيم من أبواب اللغة ثري النفع والفائدة قوامه آداء المعنىٰ المناسب بالصَّوت المناسب نلتمس به بعضًا من أسرار العربيَّة نؤكِّد من خلاله علىٰ عبقريَّة ابن مالك وجهوده في هذا المجال، وهذا يعني أن الرِّيادة ليست بإطلاق الشِّعارات، وعبارات التَّمجيد والتَّبجيل ليست بمنطق البيان وحلاوة اللسان وإنما بجهود جبَّارة واصلت الليل بالنَّهار، اقتطعت كثيرًا من وقتها بل لا أكون مبالغًا إذا قلت كل وقتها من أجل لغة الضَّاد فأنارت الدُّروب المظلمة، وفتحت العقول والقلوب المغلقة، ووضعت النِّقاط علىٰ الحروف فلهجت الألسنة بالدُّعاء لها والثَّناء عليها.

﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ **[الممتحنة: 4]**.

# تمهيد

## ابن مالك (تعريف وتصنيف ودلالة)

إن جفت الأقلام عن الكتابة، وصمت اللسان عن النطق فلايمكن أن تنسىٰ الأجيال عبر تاريخها ابن مالك وما أودعه من مصَنَّفَات وما استنبطه من أسرار ودلالات في عالم اللغة العربية، ولذلك سأكتفي في التعريف به في سطور وأحيل لمن يريد المزيد والتَّفصيل.

فهو جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك الطَّائي الجيَّاني، ولد سنة ستمائة وتوفي سنة ستمائة واثنتين وسبعين من الهجرة النَّبويَّة، له مصَنَّفَات متعدِّدة المجالات أقتصر منها علىٰ التَّصنيف الصَّوتي ومنه: الاعتداد في الفرق بين الزَّاي والصَّاد، والاعتضاد في الفرق بين الظَّاء والضَّاد وشرحه، والاعتماد في نظائر الظَّاء والضَّاد، وإكمال الإعلام بتثليث الكلام، والنظم الأوجز في ما يهمز وما لا يهمز وشرحه، ومنظومة فيما ورد من الأفعال بالواو والياء، والوفاق في الإبدال.

وقد آمن ابن مالك بقيمة الصَّوت وأهميته وأثره في بيان الفروق الدَّلاليَّة خاصة في حالة التَّركيب وعلم أن «كل فونيم مقابل استبدالي لآخر، فتغيُّره أو استبداله بغيره لابد أن يعقبه اختلاف في المعنىٰ كما تقول في العربيَّة: نفر ونفذ، فبمجرد استبدال الرَّاء بالذَّال يتغيَّر معنىٰ الكلمة بصورة آلية، وهذا مايسميه فيرث «الوظيفة الصَّوتية الصُّغرىٰ أو القاصرة» مقابل الوظائف الكبرىٰ: المعجمية والصَّرفيَّة والنَّحويَّة ووظيفة سياق الحال الدَّلاليَّة»، وعليه كل حرف أو حركة في اللغة العربية يمكن أن يكون مقابلاً استبداليًا، فالحروف في تبادلها ذات وظيفة فونيميَّة»[1].

(1) الدلالة اللغوية عند العرب د. عبد الكريم مجاهد ص166. د. ت.

وينظر: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي د. محمود السعران ص302، 303 - دار الفكر العربي - القاهرة 1412هـ-1992م.

وعلىٰ ذلك فليس التَّغيير في جميع أشكال الكلمة العربيَّة هو الحكم الوحيد والقول الفصل فيها من حيث اختلاف الدَّلالة بل قد يكون الصَّوت الواحد أثرًا من هذه الآثار واستبداله بغيره يؤدِّي إلىٰ هذه النَّتيجة.

## المبحث الأول

## اختلاف المادة والدَّلالة في الاعتماد في نظائر الظَّاء والضَّاد

عندما تطرق بابًا جديدًا من أبواب العلم يسري نفعه علىٰ البشرية جمعاء تكون بذلك قد سطَّرت مجدًا وحقَّقت نصرًا وفتحت فتحًا تشهد لك به الدُّنيا ويسجل باسمك في سجلات التاريخ، والشَّاهد في ذلك أنَّ ابن مالك وإن كان مسبوقًا في مجال التَّدوين والتَّسجيل في هذا الباب الخاص بتلك الكلمات المتفقة المبنىٰ المختلفة المعنىٰ إلا أن ما بكتابه المسمَّىٰ (الاعتماد في نظائر الظَّاء والضَّاد) من الحكم والأسرار ما جعله يتصدَّر المُصَنِّفين في هذا المجال؛ وذلك لأنَّه استطاع بأسلوبه الفريد وتعبيراته الدَّقيقة أن يزيل شُبَه الالتباس ويفكَّ شفرات أثر هذا الاختلاف بالأدلة والبراهين المعتمدة لدىٰ جمهور العلماء، وذلك بالتَّوثيق لها بالشَّاهد القرآني والنَّبوي بما فيه أقوال الصحابة[1]، ثم بالشِّعر العربي وأقوال أئمة اللغة، ثم بأمثال العرب، وهذه المصادر -كما نعلم- لها القول الفصل في الإثبات أو النفي.

ونحن في هذا الباب مع صوتين لكل صوت منهما شخصيته المخرجيَّة المستقلة، فصوت الضَّاد من تلك الأصوات التي اختلف في بيان مخرجها القدامي والمحدثون، فيري القدامي أنَّ هذا الصَّوت يخرج من بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس[2]، إلا أنَّك إن شئت تكلفتها من الجانب الأيمن وإن شئت

(1) فالحديث: هو ما أضيف إلىٰ النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خَلْقية أو خُلُقية. وقد يراد به ما أضيف إلىٰ صحابي أو تابعي، ولكن الغالب أن يقيد ما أريد به غير النبي ﷺ. السنة قبل التدوين. محمد عجاج الخطيب ص22 - القاهرة - الطبعة الأولىٰ 1383هـ-1963م.

(2) كتاب سيبويه. تحقيق. عبد السلام محمد هارون4/ 433 - دار الجيل - بيروت - الطبعة الأولىٰ 1411هـ-1991م.

من الجانب الأيسر[1]، ولكنَّه عند المحدثين يلتقي مع مخرج أصوات التَّاء والدَّال والطَّاء[2]، أي من بين طرف اللسان وأصول الثنايا[3]، فيتمُّ نطقُ هذا الصَّوت بخروج الهواء مارًّا بالحنجرة، فيهتز الوتران، وفي الفم يحدث تضييق بين مؤخر اللسان وأقصىٰ الحنك -من أجل الإطباق- فيمر الهواء، ثم يحدث غلق محكم بين مقدم اللسان واللثة وأصول الثنايا العليا، وبانفجار أعضاء النطق يحدث صوت الضَّاد[4].

ومن هنا فصوت الضَّاد عند القدامىٰ صوت رخو بخلاف المحدثين فهو عندهم صوت شديد أو مغلق -علىٰ حسب تعبيرهم-؛ «لأنَّ الضَّاد التي ننطق بها الآن في مصر لاتختلف عن الدَّال في شيء سوىٰ أنَّ الضَّاد أحد أصوات الإطباق»[5].

ويبدو أن القدامىٰ كانوا يتحدثون عن ضاد غير التي نعرفها ونمارسها نطقًا اليوم في جمهورية مصر العربيَّة[6].

وأما صوت الظَّاء فلا خلاف بين القدامىٰ والمحدثين في بيان مخرجه، فهو عند القدامىٰ مما بين طرف اللسان وأطراف الثَّنايا يلتقي مع صوت الذَّال والثَّاء في المخرج نفسه[7]، وعند المحدثين هو صوت من الأصوات الأسنانية أو مما بين

---

(1) سر صناعة الإعراب لابن جني. تحقيق. مصطفىٰ السقا وآخرين 1/ 52 - مصطفىٰ الحلبي - الطبعة الأولى 1374هـ-1954م.

(2) علم اللغة العام (القسم الثاني «الأصوات» ) د. كمال محمد بشر ص104 - دار المعارف بمصر 1969م.

(3) الكتاب 4/ 433. وينظر: سر صناعة الإعراب 1/ 53.

(4) علم الصوتيات د. عبد الله ربيع، د. عبد العزيز علام ص324 - المكتبة التوفيقية.
وينظر: الأصوات اللغوية د. إبراهيم أنيس ص48 - دار الأنجلو المصرية - الطبعة الخامسة 1979م، وعلم اللغة مقدمة للقارئ العربي د. محمود السعران ص155.

(5) الأصوات اللغوية ص48.

(6) علم اللغة العام (القسم الثاني «الأصوات») ص105.

(7) سر صناعة الإعراب 1/ 52. وينظر: كتاب سيبويه 4/ 433.

الأسنان[1]، أي أنَّ هذا الصوت يتكون بأن يوضع طرف اللسان بين أطراف الثَّنايا، بحيث يكون هناك منفذ ضيق للهواء فيتذبذب الوتران الصَّوتيَّان، ثم إنَّ اللسان يتخذ نفس الشَّكل الذي يتخذه في نطق الضَّاد[2].

وعلىٰ ذلك وجب الفصل بين كلا الصوتين كما يقول الزمخشري: «وإتقان الفصل بين الضَّاد والظَّاء واجب، ومعرفة مخرجيهما مما لابد منه للقارئ، فإنَّ أكثر العجم لا يفرقون بين الحرفين، وإن فرَّقوا ففرقًا غير صواب، وبينهما بون بعيد، فإنَّ مخرج الضَّاد من أصل حافة اللسان ومايليها من الأضراس من يمين اللسان أو يساره، وكان عمر بن الخطاب ﷺ أضبط يعمل بكلتا يديه، وكان يخرج الضَّاد من جانبي لسانه وهو أحد الأحرف الشَّجرية أخت الجيم والشِّين، وأما الظَّاء فمخرجها من طرف اللسان وأصول الثَّنايا العليا، وهي أخت الأحرف الذولقية أخت الذَّال والثَّاء. ولواستوىٰ الحرفان لما ثبت في هذه الكلمة قراءاتان اثنتان واختلاف بين جبلين من جبال العلم والقراءة، ولما اختلف المعنىٰ والاشتقاق والتَّركيب[3]. فإن قلت: فإن وضع المصلِّي أحد الحرفين مكان صاحبه: قلت: هو كواضع الذَّال مكان الجيم، والثَّاء مكان الشِّين؛ لأنَّ التَّفاوت بين الضَّاد والظَّاء كالتَّفاوت بين أخواتهما»[4].

وإذا كان ابن مالك في هذا الكتيب الصَّغير قد استشهد علىٰ توثيق الدَّلالة اللغوية بجميع مصادر الاحتجاج لم يدع منها شاردة ولاواردة إلا أنَّ الدَّرس في هذا المبحث يقتصر علىٰ مصدرين فقط وهما القرآن الكريم بقراءاته والحديث النبوي الشريف بما فيه أقوال الصحابة تاركين الفرصة للمصادر الأخرىٰ في المباحث الآتية طلبًا للإيجاز ورغبة في الاختصار.

---

(1) علم اللغة العام (القسم الثاني «الأصوات») ص89، 90.

(2) ينظر: الأصوات اللغوية ص48، 47، وعلم اللغة مقدمة للقارئ العربي ص173، 174.

(3) وهو بذلك يشير إلىٰ قراءة (بظنين) في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ وسيأتي التعليق عليها.

(4) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري 4/ 713 - دار الكتاب العربي.

والشاهد القرآني -دائمًا وأبدًا- له أهميته وقيمته وصدارته في توثيق الدَّلالة اللغوية سواء عن طريق أشهر القراءات في العالم الإسلامي وهي قراءة حفص عن عاصم، أم عن طريق القراءات الأخرىٰ -متواترة وشاذَّة علىٰ حدٍّ سواء- وذلك بلا خلاف بين العلماء؛ وذلك لأنَّ به من الحكم والأسرار ما عجز عن إدراكه الفصحاء والبلغاء، فلم يدانيه أو يصل إلىٰ مرتبته أسلوب، ولم تكن معانيه في طوع من امتلكوا ناصية البيان بعد أن وصلت إلىٰ حد الإعجاز الذي يفوق الوصف والخيال، حيث «بهرت بلاغته العقول وظهرت فصاحته علىٰ كل مقول، وتظافر إيجازه وإعجازه، وتظاهرت حقيقته ومجازه، وتقارن في الحسن مطالعه ومقاطعه، وحوت كل البيان جوامعه وبدائعه، قد أحكم الحكيم صيغته ومبناه ...»[1].

ومع اختلاف القراءات القرآنية لا تجد مجالاً للتَّناقض أو التَّعارض في الأحكام أو المعاني، فـ «مع كثرة هذا الاختلاف وتنوعه لم يتطرق إليه تضاد ولا تناقض ولا تخالف، بل كله يصدق بعضه بعضًا، ويبين بعضه بعضًا، ويشهد بعضه لبعض علىٰ نمط واحد، وأسلوب واحد، وما ذاك إلا آية بالغة، وبرهان قاطع علىٰ صدق من جاء به ﷺ»[2].

فهذا التَّعدد في تلك القراءات القرآنية يعد جانبًا من جوانب إعجازه؛ وذلك «لأنَّ من جوانب إعجازه -وما أكثرها- أن تقرأ كثيرًا من كلماته وجمله بوجوه مختلفة، وتظل الأحكام والمعاني مؤتلفة، فلا نجد تناقضًا في الأحكام، ولا تعارضًا في المعاني، مما جعلني أقول مع القائلين: عندما تختلف القراءات وتختلف دلالاتها فكل قراءة تعتبر كأنها آية أخرىٰ، بسبب المعنىٰ الخاص الذي تؤدِّيه وحدها إلينا، وغيرها لايؤدِّيه، وذلك أحد سمات الإعجاز لهذا الكتاب

(1) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ص74 - الطبعة الثالثة - دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان.

(2) النشر في القراءات العشر لابن الجزري 1/ 52 - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

العزيز، لأنَّه تأدية الكثير من المعاني بالقليل من المباني»[1].

ثم يأتي الحديث النَّبوي الشَّريف في المرتبة الثانية في الاستشهاد في توثيق الدَّلالة اللغوية بعد القرآن الكريم؛ وذلك لمكانته ومكانة من نطق به وشهادة ربِّه والأمَّة جميعًا له ﷺ بأنَّه أفصح العرب قاطبة بلا منازع، فـ «إذا كان كلام العربي الخالص يستشهد به ويعتمد عليه، فكلام أفصح العرب أولىٰ بالاستدلال والاستشهاد، ونقل العربي عنه لايغض من قيمته ولا يجعله عرضة للطرح والاغفال»[2]، وكذلك يكون الحال مع الصَّحب الكرام فقد ورثوا الفصاحة والبلاغة من نبيِّهم ﷺ.

ومجموع ما عرض له ابن مالك في كتابه ثلاثة عشر حرفًا وذلك بحسب الترتيب الألفبائي المعروف ولكن مع الإيجاز في عرض الدَّلالات والاكتفاء ببعضها من خلال مجموعة من الكلمات ومشتقاتها يقف الباحث في عرضه وتحليله علىٰ نموذجين فقط منها:

## النموذج الأول: حرف الهمزة (أَضَل)، و (أَظَل)

يقول ابن مالك: «فأما (أَضَلَّ) -بالضَّاد- فأَضَلَّ فلانٌ فلانًا، إذا أَغواه، ضدّ هداه، وفي القرآن الكريم، جلَّ منزله: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ **[طه: 79]** ... وأضَلَّ الميتَ، إذا دفنه ووراه. وفي الحديث: «**لعلي أَضِلُّ الله**»[3]، **أي أخفىٰ عنه، من قوله تعالىٰ**: ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ **[السجدة: 10]**، أي خفينا. وأضَلَّ الشيء،

(1) الكشاف عما بين القراءات العشر من خلاف د. أحمد محمد إسماعيل البيلي ص14 - الدار السودانية للكتب - الطبعة الأولىٰ 1419هـ-1998م.

(2) شرح التسهيل لابن مالك. تحقيق د. عبد الرحمن السيد، د. محمد بدوي المختون 1/ 49 - الطبعة الأولىٰ - هجر للطباعة والنشر - 1410هـ-1990م.

(3) وقد ورد هذا الحديث فيمن قال ألقوني في النار برواية: «اسحقوني ثم ذروني في الرِّيح لعلي أَضِلُّ الله» أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده 5/ 4 - رقم الحديث 20051 - حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جدِّه رضي الله تعالىٰ عنه - مؤسسة قرطبة - القاهرة.

إذا أضاعه. وفي الحديث: «**لله أفرحُ بتوبة أحدكم مِن رجُل أضل ناقته بأرض فلاة ثم وجدها**»[1].

لا أدري كيف قام ابن مالك بذكر هذا النَّص الخاص بلفظة (أضَلَّ)، والنَّص التَّالي بلفظة (أظَلَّ) في هذا الباب مع أن الباب المسجل باسمهما في المعاجم العربية الخاصَّة بالترتيب الألفبائي المعروف هو حرف الضَّاد في الأولىٰ والظَّاء في الثانية.

والنَّاظر في النَّص السابق يجد أن لفظة (أضَلَّ) تحمل ثلاث دلالات مع أنَّها في المعاجم العربية وخاصَّة الموسوعيَّة منها تحمل أكثر من ذلك بكثير ولكن دعنا نقف مع تلك الحدود التي وقف عندها ابن مالك.

**الدَّلالة الأولىٰ: ضد الهدىٰ**

إذا كانت الضَّلالة في هذا المقام تمثل الجانب المضاد للهدىٰ وهو أصل من أصولها فهذا يعنىٰ أنها تمثل جانب الجهالة الذي يطبع علىٰ العقول والقلوب فلم تر صاحبها يبصر شيئًا وإن كان يتمتَّع بقوَّة البصر، فهي حالة من حالات التلبيس وتغيير المفاهيم وقلب الموازين؛ وذلك لأنَّ «الإضلال في كلام العرب ضد الهداية والرَّشاد. يقال أضللت فلانًا: إذا وجَّهته للضَّلال عن الطَّريق»[2].

وهذا هو المفهوم العام للضَّلال والذي يخبئ ورائه كل شر وينزع من دلالته كل خير إلا أنَّ التَّفصيل يعني أن ضلال فرعون في الآية مفهومه «بما زيَّن لهم من الكفر، وتهجين ما أتىٰ به موسىٰ، واستخفافه إياهم، وما هداهم

(1) الاعتماد في نظائر الظاء والضاد. حققه د. ناصر حسين علي ص24، 23 - المطبعة التعاونية بدمشق - الطبعة الأولىٰ 1409هـ-1989م. وهذا الحديث عن أبي هريرة برواية: «والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة». صحيح مسلم8/ 91 - كتاب التوبة - باب الحضِّ علىٰ التَّوبة والفرح بها - دارالجيل - بيروت.

(2) تهذيب اللغة للأزهري. تحقيق. محمد عوض مرعب 11/ 319 - دار إحياء التراث العربي - الطبعة الأولىٰ 2001م.

في وقت من الأوقات، فأوردهم موارد الغىٰ والضَّلال، ثم أوردهم موارد العذاب والنَّكال[1]».

إذًا فلفظة الإضلال واضحة المعالم بيِّنة المفاهيم سواء في جانبها العام المستعمل في اللغة أم في جانبها الخاصِّ والذي ترمز إليه الدَّلالة في الآية.

**الدَّلالة الثَّانية: الخفاء**

وهذه دلالة أخرىٰ تأتي بها لفظة الضَّلالة، يقول عنها الأزهري: «وللإضلال في كلام العرب معنىٰ آخر يقال أَضْللَت الميت إذا دفنته ... قال أبو عمرو: أصل الضَّلال الغيبوبة يقال ضَلَّ الماء في اللبن إذا غاب، وضَلَّ الكافر غاب عن الحُجَّة، وضَلَّ النَّاسي إذاغاب عنه حفظه.

قال الله تعالىٰ: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى﴾ **[طه: 52]** أي لايغيب عنه شيء ولا يغيب عن شيء، وقوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾ **[البقرة: 282]** أي تغيب عن حفظها أو يغيب حفظها عنها»[2].

وتوثيق هذه الدَّلالة يؤيِّده الحديث: «لعلي أَضِلُّ الله»: «يريد أَضِلُّ عنه. أي أفُوتُه ويَخْفَىٰ عليه مكاني، وقيل: لعلي أغيب عن عذابه. يقال: ضَلَلْتُ الشيء وضَلِلته: إذا جعلته في مكان ولم تدر أين هو[3]».

وهذه الدلالة مستنبطة من هذه الآية القرآنية: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ف «هذا قول منكري البعث؛ أي هلكنا وبطلنا وصرنا ترابًا. وأصله من قول العرب: ضلَّ الماء في اللبن: إذا ذهب»[4].

---

(1) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي. حقَّقه. عبد الرحمن بن معلا اللويحق ص510 – مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولىٰ 1420هـ–2000م.

(2) تهذيب اللغة 11/ 319: 321. وينظر: لسان العرب4/ 2601، 2602، 2604.

(3) لسان العرب 4/ 2602.

(4) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) حققه. هشام سمير البخاري14/ 90 – دار عالم الكتب – الرياض – المملكة العربية السعودية – 1423هـ–2003م.

ف «معناه أإذا متنا وصرنا ترابًا وعظامًا فضللنا في الأرض فلم يتبيَّن شيء من خلقنا»[1].

**الدَّلالة الثالثة: الضياع**

من خلال الحديث النبوي المعروف والمشهور قام ابن مالك بتوثيق هذه الدلالة المعروفة والمشهورة أيضًا عند أهل اللغة، حيث «يقال: ضَلَّ الشيء: إذا ضاع ... ويقال: أضللت الشيء: إذا ضاع منك، مثل الدَّابة والنَّاقة وما أشبهها، إذا انفلت منك»[2].

والتَّحقيق يثبت أن المعنىٰ الجامع والقاسم المشترك لهذه الدَّلالات هو ما ورد بنصِّه في الدَّلالة الثالثة، حيث يقول ابن فارس: «الضَّاد واللام أصل صحيح يدل علىٰ معنىٰ واحد، وهو ضياع الشيء وذهابه في غير حَقِّه»[3].

وفي الباب نفسه وذلك تحت دائرة (أَظَل) يقول ابن مالك: «وأَظَلَّ الحائط والشَّجر، إذا سترا بظلِّهما، وأَظَلَّ القوم، ساروا في الظِّلِّ، والظِّلُّ معروف: وهو مايكون في أول النَّهار، فإذا نسختْه الشَّمس، ثم رجع، فهو حينئذ فيْيء، ... والظِّل الظَّلِيلُ: الدَّائم الظِّل، الذي لا تنسخه الشَّمس، كظل ما بين طلوع الفجر إلىٰ غروب الشمس، قال الله جَلَّ ثناؤه: ﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾»[4].

يرىٰ ابن مالك أن دلالة الظَّليل في الآية تنصرف إلىٰ دلالتها اللغوية التي تعني السِّتر، وذلك تصديقًا لمذهب أهل اللغة، حيث يقول ابن فارس: «الظَّاء واللام أصل واحد، يدل علىٰ ستر شيء لشيء، وهو الذي يُسمَّىٰ الظِّل. وكلمات الباب

---

(1) تهذيب اللغة 11/ 319.

(2) لسان العرب 4/ 2604. وينظر: تهذيب اللغة 11/ 221.

(3) مقاييس اللغة لابن فارس. تحقيق. عبد السلام محمد هارون 3/ 356 – دار الجيل – بيروت – الطبعة الأولىٰ 1411هـ–1991م.

(4) النساء من الآية 57. الاعتماد في نظائر الظاء والضاد ص24.

عائدة إليه[1]»، ولكنه قد يكون علىٰ المبالغة أيضًا في مذهبهم، حيث قيل عن (الظَّليل) بأنَّه «الدَّائم الظِّل قد دامت ظلالته، وقولهم ظل ظليل يكون من هذا، وقد يكون علىٰ المبالغة كقولهم شعر شاعر»[2].

وحتىٰ تتضح الرؤية يأتي التَّفسير والتَّعليل للبيان والإيضاح، فـ«قوله: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ هو من تمام محاسن الجنَّات، لأنَّ الظِّل إنَّما يكون مع الشَّمس، وذلك جمال الجنَّات ولذَّة النعيم برؤية النُّور مع انتفاء حرِّه. ووصف بالظَّليل وصفًا مشتقًا من اسم الموصوف للدَّلالة علىٰ بلوغ الغاية في جنسه، فقد يأتون بمثل هذا الوصف بوزن فعيل: كما هنا، وقولهم داء دوي، ويأتون به بوزن أفعل: كقولهم: ليل أليل ويوم أيوم، ويأتون بوزن فاعل: كقولهم: شعر شاعر ونصب ناصب»[3].

وفي باب توثيق الدَّلالة اللغوية بالقراءات القرآنية نلحظ هذا الباب الذي عنون له ابن مالك في كتابه (حرف الضَّاد المعجمة بواحدة من فوق) فيقول عن كلمتي (الضَّن والظَّن): «فأما (الضَّن) -بالضَّاد- فمصدر: ضَّن بالشيء ضَنًّا وضِنًّا وضَنَانة، إذا بَخِلَ به وشَحَّ: والضَّنين: البخيل. وقرئ: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾»[4].

ثم يقول: «... والظِّنَّةُ -بكسر الطاء-: التُّهْمَة. وقرئ: «وما هو علىٰ الغيب بظَنين» أي بمتهم[5]. وكلاهما بالظَّاء والضَّاد متوجِّهان في حقِّ

(1) مقاييس اللغة 3/ 461.

(2) لسان العرب 4/ 2754.

(3) التحرير والتنوير. محمد الطاهر بن عاشور 5/ 90، 91 - دار سحنون 1997م.

(4) التكوير الآية 24. الاعتماد في نظائر الظاء والضاد ص39، 40.

(5) والقراءة بالضَّاد قراءة نافع وعبد الله بن عامر وعاصم وحمزة، والقراءة بالظَّاء قراءة ابن كثير وأبي عمرو والكسائي.

ينظر: السبعة في القراءات لابن مجاهد. تحقيق د. شوقي ضيف ص673 - دار المعارف - القاهرة 1400هـ، والحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي. حققه. بدر الدين قهوجي، وبشير جويجاتي 6/ 380 - دار المأمون للتراث - الطبعة الثانية 1413هـ-1993م.

النبي ﷺ لأنه ليس ببخيل ولا بِمُتْهَم»[1].

إذا ف «من قرأ بالضَّاد فمعناه بخيل أي لا يبخل بأداء ما ألقي إليه من الغيب، وهو الوحي، ومن قرأ بالظَّاء فمعناه متهم أي لا يتهم علىٰ الوحي، بل هو أمين عليه. ورجَّح بعضهم هذه القراءة بأنَّ الكفار لم ينسبوا محمدًا ﷺ إلىٰ البخل بالوحي بل اتهموه فنفىٰ عنه ذلك»[2].

والدلالتان محتملتان فـ: «الضِّنَّة والضِّن والمَضَنَّة والمَضِنَّة: كل ذلك من الإمساك والبخل. ورجل ضَنِين»[3].

و«الظَّنين: المتهم الذي تَظَنُّ به التُّهَمَة، ومصدره الظَّنَّة ... ورجل ظَنِين: متهم من قوم أَظِنَّاء بيِّني الظَّنَّة والظَّنَّانة»[4].

## النموذج الآخر: حرف العين المهملة (العَضْل والعَظْل)

يقول ابن مالك: «فأما (العَضْل) -بالضَّاد فمصدر-: عَضَلَ فلانٌ فلانًا عَضْلا، وأعضَلَ به، إذا صَلُبَ عليه، وضَيَّقَ في جميع أُموره، ومنعه مما يُحِبُّ ويريد ظلمًا. ومنه: عَضَلَ الأَيِّمَ، إذا منعها من التَّزويج، قال الله -جل ثناؤه-: ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ﴾ **[البقرة: 232]**، وكأنَّ منه: الدَّاء العُضال: وهو الذي أعيا الأطباء، وفي حديث عمر رضي الله عنه «أَعْضَلَ بي أهل الكوفة لا يرضون أميرًا ولا يرضىٰ بهم أمير»[5]،

(1) الاعتماد في نظائر الظاء والضاد ص40.

(2) التسهيل لعلوم التنزيل. محمد بن أحمد الغرناطي الكلبي 4/ 182 - دار الكتاب العربي - لبنان - الطبعة الرابعة 1403هـ-1982م.

وينظر: بحر العلوم. نصر بن محمد السمرقندي. تحقيق د. محمود مطرجي 3/ 531 - دار الفكر - بيروت.

(3) لسان العرب (ض. ن. ن) 4/ 2614.

وينظر: تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري. تحقيق د. أحمد عبد الغفور عطار 6/ 2156 - دار العلم للملايين - الطبعة الثالثة 1404 هـ-1984م.

(4) لسان العرب (ظ. ن. ن) 4/ 2763. وينظر: الصحاح 6/ 2160.

(5) هذا الحديث في كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال. علاء الدين الهندي. تحقيق. محمود عمر الدمياطي برواية: «أعضل بي أهل الكوفة ما يرضون بأميرولايرضاهم أمير»14/ 171رقم 38269 - =

معناه أعياني»[1].

ذهب ابن مالك مذهب أهل اللغة في أن دلالة (العضل) ومشتقاته تعني الشِّدَّة إجمالاً كما يقول ابن فارس: «العين والضاد واللام أصل صحيح يدل علىٰ شدَّة والتواء في الأمر»[2]، وتفصيلاً قيل: «عَضَّل عليه في أمره تعضيلاً: ضَيَّقَ من ذلك وحال بينه وبين ما يريد ظلمًا، وعَضَّلَ بهم المكان: ضاق. وعَضْلت الأرض بأهلها إذا ضاقت بهم لكثرتهم ... وقال شَمِر: الدَّاء العُضَال المنكر الذي يأخذ مبادهة ثم لا يلبث أن يقتل، وهو الذي يعيي الأطباء علاجه، يقال أمر عُضال ومُعْضِل، فأوله عضال فإذا لزم مُعْضِل. وفي حديث كعب: لما أراد عمر الخروج إلىٰ العراق قال له: وبها الدَّاء العُضَال[3]؛ قال ابن الأثير: هو المرض الذي يعجز الأطباء فلا دواء له»[4].

= دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولىٰ 1419هـ–1998م، وورد برواية أخرىٰ فيه أيضًا وهي: «غلبني أهل الكوفة ! أستعمل عليهم المؤمن فيضعف، وأستعمل عليهم الفاجر فيفجر. رقم 38270. وورد هذا الحديث بروايتيه في الفائق في غريب الحديث للزمخشري. تحقيق. عمر محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم 2/ 445 – دار المعرفة – لبنان – الطبعة الثانية،

وغريب الحديث لابن سلام. تحقيق د. محمد عبد المعيد خان 3/ 281 – دار الكتاب العربي – بيروت – الطبعة الأولىٰ 1396هـ،

وبالرواية الأولىٰ في النهاية في غريب الحديث والأثر. أبوالسعادات المبارك بن محمد الجزري. تحقيق. طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد طناحي3/ 495 – المكتبة العلمية – بيروت – 1399هـ–1979م،

وغريب الحديث لابن الجوزي. تحقيق د. عبد المعطي أمين 2/ 104 – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولىٰ1405هـ–1985م.

(1) الاعتماد في نظائر الظاء والضاد ص48.

(2) مقاييس اللغة 4/ 345.

(3) الحديث برواية: «لاتخرج إليها ياأمير المؤمنين فإن بها تسعة أعشار السِّحر وبها فسقة الجن وبها الدَّاء العُضَال». موطأ مالك بن أنس. المحقق. محمد مصطفىٰ الأعظمي 2/ 975 – مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان – الطبعة الأولىٰ 1425هـ–2004م.

(4) لسان العرب (ع. ض. ل) 4/ 2989.

وقد استشهد ابن مالك علىٰ توثيق هذه الدَّلالة بآية قرآنية وقول لصحابي جليل، فأما الآية فقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ﴾ ودلالة ذلك «يعني فلا تمنعوهن أن يراجعن أزواجهن»[1].

قال السهيلي: نزلت في معقل بن يسار كانت له أخت، فطلقها زوجها ثم أراد مراجعتها وأرادت هي مراجعته، فمنعها أخوها. وقيل نزلت في جابر بن عبد الله وذلك؛ أن رجلاً طلَّق أخته وتركها حتىٰ تمَّت عدَّتها، ثم أراد مراجعتها فمنعها جابر وقال: تركتها وأنت أملك لها، لا زَوَّجْتُكها أبدًا، فنزلت الآية[2].

وأما قول الصحابي عمر ﷺ عن أهل الكوفة: «أعضل بي أهل الكوفة لا يرضون أميرًا ولا يرضىٰ بهم أمير» فدلالة العَضْل هنا «أي ضَيَّقوا علي، وأوقعوا بي في أمر شديد»[3]. أو بمعنىٰ آخر «يعني بذلك حملوني علىٰ أمر ضَيِّق شديد لا أطيق القيام به. ومنه أيضًا الدَّاء العُضَال، وهو الذي لا يطاق علاجه، لضيقه عن العلاج، وتجاوز حد الأدواء التي يكون لها علاج»[4].

وأما عن (العَظْل) فيقول ابن مالك: «... والعِظال في القوافي: التَّضمين. ومنه حديث عمر ﷺ وقوله في زهير بن أبي سلمىٰ: «كان لا يعاظل في قوافيه[5]» .

---

(1) تفسير مقاتل بن سليمان. تحقيق. أحمد فريد1/ 122 - دار الكتب العلمية - لبنان - بيروت - 1424هـ-2003م. وينظر: التحرير والتنوير2/ 425.

(2) التسهيل لعلوم التنزيل 1/ 83.

(3) تفسير السمعاني. تحقيق. ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس بن غنيم 1/ 235 - دار الوطن - السعودية - الرياض 1418هـ-1997م.

(4) جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري. حققه. أحمد محمد شاكر 5/ 24 - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولىٰ 1420هـ-2000م.

(5) كان لا يعاظل بين الكلام ولا يتبع حوشيه ولا يمدح الرجل إلا بما فيه. رواه عيسىٰ بن يزيد بن دأب عن ابن عباس. طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي. تحقيق. محمود محمد شاكر 1/ 63 - دار المدني - جدة. =

والتَّضمين هو: أن يتعلق معنىٰ البيت الثاني بالأول، فكأنَّه يَرْكَبُه، كقول النابغة:

**وَهُمْ وَرَدُوا الجِفَار علىٰ تَميمٍ وَهُمْ أصحابُ يَومِ بُغاثَ إنِّي**
**شَهِدْتُ لهُمْ مَواطِنَ صالحاتٍ وَثِقْتُ لَهُم بِحُسْنِ الظَّنِّ مِنِّي»[1]**

ذكرت معاجم اللغة هذه الدَّلالة فقيل عنها: «والعِظَالُ في القوافي: التَّضْمين، يقال فلان لا يعاظل بين القوافي. وعاظَلَ الشَّاعر في القافية عِظَالا: ضَمَّن. ورُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنَّه قال لقوم من العرب: أشعر شعرائكم من لم يعاظل الكلام، ولم يتَّتبع حواشيه؛ قوله: لم يعاظل الكلام أي لم يحمل بعضه علىٰ بعض، ولم يتكلم بالرجيع من القول، ولم يكرر اللفظ والمعنىٰ؛ وحُوشِي الكلام: وحشيه وغريبه. وفي حديث عمر رضي الله عنه، أيضًا أنَّه قال لابن عباس: أنشدنا لشاعر الشعراء، قال ومن هو؟ قال: الذي لا يعاظل بين القول ولا يتتبع حوشي

= وينظر الحديث في: غريب الحديث لابن قتيبة. تحقيق د. عبد الله الجبوري 2/ 34 - مطبعة العاني - بغداد - الطبعة الأولىٰ 1397هـ، وغريب الحديث لابن الجوزي 2/ 106. وعيسىٰ بن يزيد كان إخباريًّا علامة نسَّابة لكن حديثه واه.

قال خلف الأحمر: كان يضع الحديث.

وقال البخاري وغيره: منكر الحديث.

وقال أبوحاتم: منكر الحديث. قيل توفي عيسىٰ بن دأب قبل مالك بن أنس. ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي. تحقيق. علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود 5/ 395 - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولىٰ 1995م.

(1) الاعتماد في نظائر الظاء والضاد ص49. (بحر الوافر) والرواية في ديوان النابغة: يوم عكاظ، وأتينهم بود الصدر مني. والجفار ماء لبني تميم. يوم عكاظ يوم كانوا فيه مع قريش. مواطن صادقات: أي كان لهم مواقف صادقة. ود الصدر: كناية عن الوفاء. قال هذه الأبيات لما قتلت بنو عبس نضلة الأسدي، وقتلت بنو أسد منهم رجلين، أراد عيينة عون بني عبس وأن يخرج بني أسد من حلف بني ذبيان.

ديوان النابغة الذبياني. شرح وتقديم د. عباس عبد السَّاتر ص138 - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الثالثة 1416هـ-1996م.

الكلام، قال: ومن هو؟ قال: زهير، أي لا يُعَقِّدَهُ ولا يوالي بعضه فوق بعض. وكل شيء ركب شيئًا فقد عاظله»[1].

إذًا فالتَّضمين عيب من عيوب نظم الشعر؛ لأنَّ «من وضع الألفاظ الوضع اللائق بها ألايكون الكلام شديد المداخلة يركب بعضه بعضًا وهذه هي المعاظلة»[2].

ومن هنا استطاع ابن مالك أن يضع كل لفظ في دائرته الخاصَّة به حتىٰ لا تتشابك أو تشتبه أو تتداخل الألفاظ والدَّلالات عندما ترىٰ صورة الضَّاد والظَّاء في الكلمات فيظن بينهما الاتِّفاق ولكن الحقيقة تثبت الاختلاف، فوضع اللفظ الدَّقيق والمناسب لما يقتضيه كل مقام بالحرف المناسب حتىٰ وإن بدا في ظاهره يشبه حرفًا آخر سمة من سمات إدراك بعض معطيات هذه اللغة، ومحاولة من محاولات الدُّخول في عالمها والكشف عن بعض أسرارها.

---

(1) لسان العرب (ع. ظ. ل) 4/ 3004.

(2) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص157 - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولىٰ 1402هـ-1982م.

## المبحث الثاني

## اختلاف المادة والدَّلالة

## في شرح القول الأوجز في ما يهمز وما لايهمز

قد تبدو فكرة هذا الكتاب يسيرة ولكنَّها دقيقة للغاية؛ وذلك لأنَّها تدخل في عالم اختلاف الجذور اللغوية وتحاول اقتحام أسراره والذي يترتب عليه اختلاف الدَّلالة أو اتِّفاقها، فيحتاج الأمر معه إلىٰ تقليب الصَّفحات وكدح زناد الفكر حتىٰ يمكن التمييز بين هذا الباب وذاك، فغالبًا تنتمي كل كلمة في هذا الكتاب إلىٰ مجال دلالي يختلف عن الأخرىٰ والنذر اليسير منها يدخل في دائرة التيسير في النُّطق كلون من ألوان اختلاف اللهجات العربية.

وعنوان الكتاب الذي بأعلىٰ الصفحة يضم هاتين الفكرتين، حيث «جاءت قصيدة ابن مالك «النظم الأوجز» في ثمانية عشر ومائتي بيت علىٰ وزن واحد من البحر الطويل، وضرب القصيدة مقبوض كعروضها وهي علىٰ قافية واحدة: دالية مفتوحة. واختلاف الكلمتين اللتين يأتي بهما المؤلف بالهمز فقط يترتب عليه إما اختلاف المعنىٰ بين الكلمتين، وإما أن تحمل اللفظتان معنىٰ واحدًا، كأن يكون حرف المد تسهيلاً للهمزة، أوتكون الهمزة وحرف المد مبدلين من بعضهما. وبناء علىٰ هذا جاءت القصيدة في بابين: الباب الأول: مايهمز وما لايهمز والمعنىٰ مختلف وهذا الباب يشمل القسط الأكبر من الكتاب، فقد نظمت أبياته في مائة وثمانية وثمانين بيتًا، وأشار المؤلِّف إلىٰ هذا القسم بقوله:

**حوىٰ البيت لفظين، اختلاف كليهما    بهمز، وترك في الدلالة أسنا**

فهو يأتي في البيت بلفظة مهموزة ثم ما يقابلها غير مهموز، ثم لفظة أخرىٰ مهموزة وما يقابلها، وقد خالف في أواخر الباب نظامه، فكان يأتي أحيانًا بأكثر من لفظين في البيت»[(1)].

---

(1) وزعت أبيات القصيدة علىٰ النحو التالي: سبعة أبيات للمقدمة، ومائة وثمانية وثمانين نظم فيها =

ولست في هذا القسم بصدد الحديث عن الشِّقِّ الثاني فقد أبرزته ووضَّحته كثير من المُصَنَّفات، سواء في مجال اللغة أو القراءات القرآنية -السَّبعيَّة والشَّاذة علىٰ حد سواء-، وإنَّما العنوان هنا خاص بمجال الفروق الدَّلالية بين تلك الكلمات التي وردت بصورة الهمزة حينًا وبالواو والياء حينًا آخر وإن كانت في بعض الأحيان تظهر بصورة الألف، وهذه لها دلالة وتلك دلالة أخرىٰ، سواء وضعنا الواو والياء في عالم الحروف أم في عالم الحركات، وسواء كان التَّبادل في الموضع نفسه أم في غيره، ونماذج الكتاب تؤيِّد ذلك وتعضده.

ولكن قبل العرض والتَّفصيل والتَّحليل نقول بأن الهمزة من الأصوات التي تنتمي إلىٰ دائرة الأصوات الصَّامتة أو الحروف؛ وذلك لأنَّها تندرج ضمن الأصوات التىٰ يحدث أثناء النُّطق بها اعتراض كامل في مجرىٰ الهواء ثم يحدث الانفراج الفجائي الذي تتسم به تلك الأصوات، فمخرجها من أقصىٰ الحلق كما يرىٰ القدامىٰ[1]، ومن الحنجرة كما يرىٰ المحدثون؛ وذلك لأنَّ صوت الهمزة يحدث عندما «تسد الفتحة الموجودة بين الوترين الصوتيين، وذلك بانطباق الوترين انطباقًا تامًّا فلا يسمح للهواء بالنَّفاذ من الحنجرة يضغط الهواء فيما دون الحنجرة، ثم ينفرج الوتران فينفذ الهواء من بينهما فجأة محدثًا صوتًا انفجاريًّا»[2].

= المؤلف الألفاظ المهموزة المختلفة المعاني، ثم بيت ختم به هذا الباب، وتسعة عشر بيتًا نظم فيها الألفاظ المتفقة المعاني، وثلاثة جعلها لخاتمة القصيدة. شرح النظم الأوجز في مايهمز وما لايهمز لابن مالك. تحقيق د. حسين علي البواب ص15، 16 - دار العلوم - الرياض - المملكة العربية السعودية - الطبعة الأولىٰ 1405هـ-1984م.

(1) ينظر: العين. الخليل بن أحمد الفراهيدي. تحقيق. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي 1/ 58 - مكتبة الهلال، وكتاب سيبويه 4/ 433، وسر صناعة الإعراب 1/ 52. وأيدهم في ذلك بعض المحدثين.

ينظر: فقه اللغة د. علي عبد الواحد وافي ص167 - دار نهضة مصر، ودراسات في فقه اللغة د. صبحي الصالح ص278 - دار العلم للملايين - الطبعة الحادية عشرة 1379هـ-1960م.

(2) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ص175.

وينظر: الأصوات اللغوية ص89، 90، ومناهج البحث في اللغة د. تمام حسان ص125 - طبعة =

أما الألف والواو والياء فباعتبارها حركات طويلة فهي تتعامل مع الهواء الخارج من الرئتين بطريقة أخرىٰ تختلف تمامًا عن صوت الهمزة، والألف لاتكون إلا كذلك في اللغة، فـ«الصفة التي تجمع بين كل أصوات اللين هي أنه عند النُّطق بها يندفع الهواء من الرِّئتين مارًّا بالحنجرة، ثم يتخذ مجراه في الحلق والفم في ممر ليس فيه حوائل تعترضه فتضيق مجراه كما يحدث مع الأصوات الرخوة، أو تحبس النفس ولا تسمح له بالمرور كما يحدث مع الأصوات الشَّديدة، فالصِّفة التي تختص بها أصوات اللين هي كيفية مرور الهواء في الحلق والفم وخلو مجراه من حوائل أو موانع»[1].

وأما صوتا الواو والياء باعتبارهما من الصوامت أو أشباه الصوائت فالأمر يختلف فيهما تمامًا عن صوت الهمزة، فالواو تخرج من الشَّفتين عند القدامىٰ، بينما تخرج من أقصىٰ اللسان كما يرىٰ المحدثون[2]، فعند النُّطق بها تتخذ أعضاء النطق الوضع المناسب لنوع من الضمة ثم تترك هذا الوضع بسرعة إلىٰ حركة أخرىٰ، وتضم الشفتان ويسد الطريق إلىٰ الأنف برفع الحنك اللين ويتذبذب الوتران الصوتيَّان[3]، وأما صوت الياء فهي تخرج من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلىٰ[4]، «تتكون الياء بأن تتخذ الأعضاء الوضع المناسب لنطق صائت من نوع

---

= دار الثقافة – الدار البيضاء – المغرب – 1400هـ–1979م، ودراسة الصوت اللغوي د. أحمد مختار عمر ص118 – عالم الكتب – 1411هـ–1991م، وعلم اللغة (القسم الثاني «الأصوات» ) ص112.

(1) الأصوات اللغوية ص26.

وينظر: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ص124، وعلم الأصوات العام (القسم الثاني «الأصوات») ص217.

(2) ينظر: كتاب سيبويه 4/ 433، وسر صناعة الإعراب 1/ 53، وعلم اللغة مقدمة للقارئ العربي ص180، وعلم اللغة العام (القسم الثاني «الأصوات») ص133.

(3) علم اللغة العام (القسم الثاني «الأصوات») ص133.

وينظر: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ص180.

(4) ينظر: كتاب سيبويه 4/ 433، وسر صناعة الإعراب 1/ 52.

الكسرة (i) ثم تنتقل منه بسرعة إلىٰ موضع صائت آخر أشد بروزًا». وهذا الانتقال السريع من الكسرة (i) هو الذي يكون الصَّامت المعروف بالياء.

ونستطيع أن نصف بدء هذا الصَّوت بأن نقول إن وسط اللسان يرفع عاليًا تجاه الحنك الصلب (=وسط الحنك) و«تكسر» الشفتان. يسد الطريق إلىٰ الأنف بأن يرفع الحنك اللين، يتذبذب الوتران الصوتيان»[1].

ومن هنا فـ«العلاقة بينهما وبين الهمزة -علىٰ أية حال- معدومة، سواء لاحظنا ما يربطهما بطبيعة الساكن، أم بطبيعة الحركة، فبين الجانبين مفارقات من عدة وجوه:

أولا- الهمزة من الحنجرة والواو من أقصىٰ اللسان، والياء من وسط اللسان، مع مايحاذي الموضوعين من الحنك الأعلىٰ.

ثانيًا- الهمزة صوت انفجاري (شديد)، وهما انطلاقيان (لينان).

ثالثًا- الهمزة ذو وجود صوتي وسياقي (فونوتيكي وفونولوجي)، أما هما فوجودهما انطلاقي سياقي (فونولوجي) فحسب مهما تكن أحوال وجودهما في المادة اللغوية.

رابعًا- الهمزة صوت مهموس أو لا هو بالمهموس ولا بالمجهور، وهما مجهوران إلا في حالة خاصَّة وهي حالة الوقف في مثل العَفْو، والسَّعْي حيث يمكن أن يتعرضا للهمس في هذا الموقع، وهو ما يقع أحيانًا لحركات أواخر الكلمات في حالة ما سماه القدماء بالرَّوم، وهي حالة من حالات الوقف»[2].

---

(1) علم اللغة العام مقدمة للقارئ العربي ص180، 181.

(2) القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث د. عبد الصبور شاهين ص48 - مكتبة الخانجي بالقاهرة 1966م.

وينظر: الأصوات اللغوية ص48، واللهجات العربية نشأة وتطورًا د. عبد الغفار حامد هلال ص210، 211 - الطبعة الثانية 1410هـ-1990م. وإن كان قد تبيَّن أن الهمزة صوت مجهور كما وصفها علماؤنا القدامي وأيَّدهم بعض المحدثين في ذلك.

وكما هي عادة ابن مالك في مصَنَّفَاته فقد استشهد في كتابه هذا علىٰ توثيق الدَّلالة اللغوية بكثير من مصادر الاحتجاج أقتصر في هذا المقام علىٰ الشِّعْر العربي وأقوال أئمة أهل اللغة، حيث كان للشِّعْر العربي مكانة عظيمة في نفوس العرب منذ العصر الجاهلي وإلىٰ الآن، وازدادت حاجتهم إليه بعد مجيء الإسلام، «وقد شعر العلماء، منذ الصَّدر الأول للإسلام، بحاجتهم إلىٰ الشِّعْر العربي، للاستعانة به، في فتح مغاليق الألفاظ، والأساليب العربية الموجودة في القرآن الكريم، والأحاديث النَّبوية الشَّريفة، فأكبوا عليه يروونه، ويحفظونه، ويدرسون أساليبه ومعانيه، وما يدور فيه من ذكر لأيام العرب ووقائعهم. ولولا هذا الباعث الديني، لاندثر الشِّعْر الجاهلىٰ ولم يصل إلينا منه شيء»[1].

ولا خلاف بين علماء اللغة في أن الشَّاهد الشعري يعد من أهم المصادر التي اعتمدت عليها اللفظة العربية في تخريج دلالاتها، فكما جرىٰ حفظ اللغة في دمائهم كان الشِّعْر العربي كذلك، حيث يعد عندهم من أهم سبل الاحتجاج في بناء الصَّرْح المعجمي، وما أكثر أن نقرأ كثيرًا من الألفاظ العربية الأصيلة ولكن لا ندري ما حقيقة دلالاتها فيأتي الشعر العربي لفك الرموز وتبيين الحقائق.

وقد كان ابن مالك من هؤلاء العلماء الذين التزموا بتلك الأصول والقواعد التي صرح بها أئمة اللغة من الالتزام بالاحتجاج بأصحاب الطبقات الثَّلاثة الأولىٰ من الشعراء الجاهليين والمخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، ثم الإسلاميين لتوضيح دلالة الألفاظ بدليل أنه لم يرد في كتابه هذا بيتًا واحدًا لتلك الطبقة التي تسمىٰ بطبقة المولدين أو المحدثين.

ثم يأتي شاهد آخر من شواهد توجيه الدَّلالة اللغوية يعتمد فيه ابن مالك علىٰ أقوال أئمة اللغة وأعلامها الذين يشار إليهم بالبنان في هذا المجال، عندما يعرض له ويقول قال الفراء أو الكسائي أو الأزهري علىٰ سبيل المثال ترىٰ الدروب

(1) فصول في فقه العربية د. رمضان عبد التواب ص111 - مكتبة الخانجي بالقاهرة - الطبعة السادسة 1420هـ-1999م.

المظلمة التي لا تبصر العين فيها شيئا مهما كان قوة إدراكها قد أضاءت، والفيافي القاحلة قد اتَّضحت معالمها وفكت رموز دروبها، وذلك لتزيل ما ران علىٰ العقول والقلوب من غموض أو إبهام، أو اختلاط الحقِّ بالباطل والصَّواب بالخطأ فلا تستطيع لذلك دفعًا أو ردًّا، ليس ذلك علىٰ سبيل عصمتهم من اللحن أو الخطأ بل علىٰ سبيل توثيق أهل العلم لهم، زد علىٰ ذلك تلك البيئة التي نشأوا وترعرعوا فيها وعصورهم التي اتَّسمت بالفصاحة والبلاغة.

## النَّموذج الأول من الشِّعْر العربي

هذا النَّموذج من الشِّعْر العربي يعرض لبعض الأبيات التي يستشهد بها ابن مالك علىٰ توجيه الدَّلالة اللغوية، وذلك عندما يدخل في هذا المجال الذي تتشابه فيه بعض الجذور اللغوية في مكوناتها مع وجود فارق وحيد بينها يكون سببًا في توجيه اختلاف الدلالة، فتجد حالة من حالات التركيز والجهد العقلي بين نَص يحتوي علىٰ جذر ما وله فيه دلالة خاصة ونَص آخر في مقابله يحتوي علىٰ جذر آخر ودلالة أخرىٰ فتحدث حالة من حالات المقارنة والموازنة حتىٰ تستطيع أن تقف علىٰ أبعاد كل نَص ومحتوياته، والشِّعْر العربي في هذه السُّطور من الشَّواهد التي تعين علىٰ معرفة ذلك، سواء أكانت تلك النَّماذج تعرض له في العصر الجاهلي أم في غيره.

أ- يقول ابن مالك: «والمُثْئِ: اسم فاعل من أَثْأَيت الخِرزَ وغيره: إذا أفسدته. وأَثْو فلانًا: أي جعله يثوي عندك، أي يقيم. يقال: أَنْزَلَني فلان فأثواني ثواء حسنًا. وأثوىٰ أيضًا بمعنىٰ ثوىٰ، قال الأعشىٰ:

**أثـوىٰ وقَـصَّـرَ لـيـلـه لـيُـزَوَّدا     فمضىٰ وأخلف من قُتَيْلة موعدا**»[1]

(1) شرح القول الأوجز ص54. (الكامل التام) ثوىٰ وأثوىٰ بمعنىٰ واحد، أي أقام. قَصَّر: توانىٰ. مضت: أي الليلة. أخلف فلانًا: وجد موعده خِلفًا - بكسر الخاء - أي مختلفًا. والمعنىٰ: عدل عن سفره فأقام، وتخَلَّف ليلة ليتزود من (قُتَيْلة) فمضت الليلة، وأخلفت قُتَيْلة الموعد. ديوان الأعشىٰ الكبير. محمد حسين. ص226، 227 - رسالة ماجستير 1950م.

نحن في هذا المقام أمام جذرين مختلفين من جذور اللغة كل منهما له دلالاته الخاصَّة به، والذي أدَّىٰ إلىٰ هذا الخلاف هو وجود صوت الهمزة في الجذر الأول وصوت الواو في الجذر الثاني وفي الموضع نفسه، حيث أشار الجذر الأول بالهمزة إلىٰ دلالة الإفساد، فقيل عن (ث أ ي): «الثَّأْي والثَّأَي جميعًا الإفساد كله؛ وقيل هي الجراحات والقتل ونحوه من الإفساد. وأَثْأَي فيهم: قتل وجرح. والثَّأْي والثَّأَي: خَرْم خُرَز الأديم ... وثَأَيْت الخَرْزَ: إذا خرمته. وقد ثَئِي الخَرْزُ يثأي ثأي شديدًا ... وأَثْأَيت في القوم إثاء أي جرحت فيهم، وهو الثَّأَي ... وقال الليث: إذا وقع بين القوم جراحات قيل عظم الثأي بينهم ... ابن الأنباري: الثَّأْي: الأمر العظيم يقع بين القوم؛ قال: وأصله من أَثْأَيت الخَرْزَ، ... وأصل الثَّأَي: خَرْم مواضع الخَرْز وفساده ...»[1].

في حين اتَّجهت دلالة الجذر الآخر بالواو إلىٰ الإقامة، وهذه لاصلة لها بالأولىٰ مطلقًا، حيث قيل: «الثَّواء: طول المقَام؛ ثَوَي يَثْوِي ثَوَاءً وثَوَيْتُ بالمكان وثَوَيْته ثِواء وثُوِيًّا مثل مضىٰ يمضِي مَضاء ومُضِيا (الأخيرة عن سيبويه)؛ وأثويت به: أطلت الإقامة به. وأثويته أنا وثويته (الأخيرة عن كراع): أَلْزمته الثَّواء فيه. وثوىٰ بالمكان: نزل فيه، وبه سُمِّي المنزل مَثْوىٰ ... وأثويت بالمكان لغة في ثويت؛ قال الشاعر:

**أثــوىٰ وقــصــر لــيــلــه لــيُــزَوَّدا ومضىٰ وأخلف من قُتَيْلة موعدا»[٢]**

فالشَّاهد الشِّعْري في هذا المقام لشاعر من شعراء العصر الجاهلي دليل واضح علىٰ توجيه الدلالة وتوثيقها ونفي ما قد يظنُّ بهذه اللفظة وجذرها اللغوي من دلالات أخرىٰ وذلك كما صنع عبدالله بن عباس رضي الله عنهما في مسائله المشهورة مع نافع بن الأزرق.

ب- يقول ابن مالك: «وأَبَّرَ النَّخْل: لقَّحها. ووبَّر الشيء: أخفاه.

---

(1) لسان العرب 1/ 467. والخرز: خياطة الأدم. السابق (خ. ر. ز) 2/ 1130.

(2) السابق 1/ 524.

قال جرير:

**وما عرفْتك كِنْدَة عَنْ يَقِينٍ وما وَبَّرْتُ في شعبي ارْتعابا**[1]

أي ما أخفيت أمرك اختيارًا، بل اضطرارًا. وأكثر ما يستعمل في إخفاء الوحش آثارها حتىٰ لاتتبع»[2].

هذا شاهد آخر من تلك الشَّواهد التي تعتمد فيه الدَّلالة علىٰ الشِّعْر ومن خلال نَص تجد الهمزة فيه في مقدمة الجذر الأول، في حين تجد صورة الواو في المقابل لها في الجذر الآخر فتجد مجالاً فسيحًا لاختلاف الدَّلالة بين الجذرين (أ. ب. ر)، و (و. ب. ر) حيث يشير الجذر الأول إلىٰ دلالة التَّلقيح، وهو معنىٰ معروف ومتداول، أَبَرَ النَّخْلَ والزَّرْعَ وأَبَّرَه: أَصْلَحَه، يقال: أَبَرْتُ النَّخْلَة وأَبَّرْتُها. فتأبير النخل يعني تلقيحه[3]، في حين يشير الجذر الآخر والذي يرمز له بحرف الواو (و. ب. ر) إلىٰ دلالة الخفاء، حيث يقال: «وَبَّرَ الرَّجُلُ: تشرَّد فصار مع الوَبْرِ في التَّوحُّشِ ... أبو زيد: يقال: وَبَّرَ فلان علىٰ فلان الأمر، أي عَمَّاه عليه»[4].

فالدَّلالة الأخيرة التي تشير إلىٰ الخفاء قد اعتمدت علىٰ الشِّعر العربي، إشارة إلىٰ أنَّه «ما أخفيت أمرك ارتعابًا أي اضطرابًا»[5].

وروي هذا البيت ارتغابًا -بالغين- «أي ما أخفيت أمرك فيها رغبة لكن اضطررت»[6].

---

(1) (الوافر التام) شعبي: موضع في بلاد بني فزارة. يريد أن مهجوه من أهل (شعبي) وهو دعي في كندة. وَبَّرت: صرت مع الوبر في الجبال. أراد أهل الوبر، سكان الخيام. ديوان جرير ص56 - دار بيروت - 1406هـ-1986م.

(2) شرح القول الأوجز ص91.

(3) لسان العرب 1/ 5.

(4) السابق6/ 4753.

(5) السابق الجزء نفسه والصفحة.

(6) أساس البلاغة للزمخشري ص664 - دار الفكر 1399هـ-1979م.

ج- يقول ابن مالك: «زنأت عليه: ضَيَّعْت، قال الراجز:

**لاهُمَّ إنَّ الحارث بن جَبَلَهْ زنَّا علىٰ أبيهِ ثم قَتَلَهْ**

أبدل همزته للضرورة. وزنَّيْت الرَّجلَ: نسبه إلىٰ الزِّنا»[1].

فهذا نصٌّ ثالث اختلفت فيه الدَّلالة بين صورة الهمزة في نهاية الجذر الأول وصورة الياء في نهاية الجذر الآخر، يعرض ابن منظور بالشَّرح والتَّوضيح لتوجيه اختلاف الدَّلالة بين هاتين الكلمتين في جذرين منفصلين كل جذر منهما ينتمي إلىٰ عالم آخر، فيذكر عن الجذر الأول: (ز. ن. أ): «وزنَّأ عليه: إذا ضَيَّق عليه، مثقلة مهموزة ... والزَّناء: الضَّيْقُ والضِّيق جميعًا، وكل شيء ضَيِّق زَناء ... وزَنَّأَ عليه تَزْنِئَةً: أي ضَيَّق عليه.

قال العَفِيف العَبْدي:

**لاهُمَّ إنَّ الحارث بن جَبَلَهْ زَنَّا علىٰ أبيه ثم قتله**
**وركِبَ الشَّادِخَةَ الُمحَجَّلَهْ وكان في جاراته لا عهد له**

وأي أَمْرٍ سَيِّئ لافعله. قال: وأصله زنَّأَ علىٰ أبيه، بالهمز. قال ابن السكيت: إنما ترك همزه ضرورة. والحارث هذا هو الحارث بن أبي شمر الغساني. فقال: إنَّه كان إذا أعجبته امرأة من بني قيس بعث إليها واغتصبها»[2].

ثم يقول عن الجذر الآخر (ز. ن. ي): «وزَنَّاه تَزْنِيَةً: نسبه إلىٰ الزِّنا وقال له يازاني ... وزَنَّىٰ عليه: ضَيَّق؛ قال: لاهُمَّ إنَّ الحارث بن جَبَلَهْ زنَّىٰ علىٰ أبيه ثم قتله. قال: وهذا يدل علىٰ أن همزة الزناء ياء»[3].

فهذا البيت من الشِّعْر قد روي بروايتين وكل رواية منهما تعطي معنىٰ مختلف عن الأخرىٰ، الرواية الأولىٰ بالهمزة والأخرىٰ بالياء، فاختلفت الدَّلالة من أجل اختلاف الرواية.

---

(1) شرح القول الأوجز ص31.

(2) لسان العرب 2/ 1868. يعني ركب فِعْلَة مشهورة قبيحة من قِبَلِ أبيه. السابق (ش. د. خ) 4/ 2213.

(3) السابق 2/ 1875، 1876.

**النموذج الآخر: أقوال أئمة اللغة**

فيما يلي من صفحات في هذا المبحث عرض لبعض النماذج من كتاب (شرح القول الأوجز في ما يهمز وما لا يهمز) والذي يحتوي علىٰ أقوال عدَّة نسبت لأئمة أهل اللغة وعلىٰ رأسهم الإمام الأزهري في كتابه (تهذيب اللغة)، فقد أكثر ابن مالك من الاستشهاد بأقواله ونسبها إليه صراحة، إضافة إلىٰ ندرة الأقوال الأخرىٰ التي نسبت إلىٰ غيره، تجد في هذه النَّماذج الهمز في أحد الجذور اللغوية تقابلها الواو في الجذور الأخرىٰ أو الياء مع فروق دلالية واضحة المعالم والسمات لا يبدو فيها أي نوع من التَّقارب أو التَّشابه تجد ذلك واضحًا علىٰ لسان وقلم ابن مالك.

**المثال الأول: بين الهمزة والواو**

أ- يقول ابن مالك: «الأناة: التَّمهُّل، والفعل منه: تأنَّىٰ يتأنَّىٰ تأنِّيًا، والوناة هنا: واحدة الوَنَىٰ، وهو اللؤلؤ، ذكر ذلك الأزهري»[1].

في النص السَّابق تجد نفسك أمام لفظتين لكل لفظة منهما جذرها اللغوي الخاصّ بها، فالأناة تجدها في (أ. ن. ي) باب الهمزة، والوناة تجدها في (و. ن. ي) باب الواو في البحث الألفبائي المعروف، والأولىٰ تتجه دلالتها نحو التَّمهُّل أو التؤدة كما ذكر الأزهري[2]، في حين قال العباس عن الوناة بالواو أن الونىٰ واحدته ونية وهي اللؤلؤة، في حين ذكر الأزهري أن واحدته الونىٰ وناة لا ونية[3]، وعلىٰ ذلك فلا تشابه ولا تقارب بين الدَّلالتين، وفي هذا دلالة علىٰ أن كل حرف في العربية في صورته اللفظية له سحره الدَّلالي الخاص به أينما توجهه مع حروف أخرىٰ تجد له دلالات أخرىٰ وأينما تعاقب بينه وبين حرف آخر تجد له دلالات أخرىٰ فهو يدور مع الدَّلالة حيث دارت.

(1) شرح القول الأوجز ص44.

(2) تهذيب اللغة 15/ 397. وينظر: لسان العرب 1/ 161.

(3) تهذيب اللغة 1/ 398، 399. وينظر: لسان العرب 6/ 4929، وتاج العروس 40/ 261.

ب- يقول ابن مالك: «الهَجْأُ: مصدر هَجَأَ الطعام: أكله، حكاه أبوعبيد عن أبي عمرو. وقال غيره: هَجَأَ الجوع: سكن. والهَجْو هنا: الحفظ. يقال: ما هجوت منه شيئًا، وما حجوت منه شيئًا، أي: ماحفظته، عن الكسائي»(1).

هذا نموذج آخر من تلك النَّماذج التي تلحظ فيها الفروق الدَّلالية ولكن في هذه الصورة ترىٰ صوت الهمزة في نهاية الكلمة من خلال الجذر اللغوي (هـ. ج. أ) باب الهاء، في حين ترىٰ في الكلمة الأخرىٰ صورة الواو وفي الموضع نفسه في جذرها اللغوي (هـ. ج. و) باب الهاء أيضًا ولكن مع اختلاف الترتيب الدَّاخلي، فقد تظنُّ لأول وهلة أن هذا التَّشابه ربما يكون له تأثير في اتِّفاق الدَّلالة بينهما ولكن مع المعاجم العربية وأقوال أئمة اللغة ترىٰ خلاف ذلك، فقد ذكر «أبوعبيدة عن أبي عمرو: هَجَأت الطعام: أكلته ... قال أبو العباس: الهَجَأ يقصر ويهمز وهو كل ما كنت فيه فانقطع عنك ... ثعلب عن ابن الأعرابي قال الهَجَأ: الشبع من الطعام»(2).

ويقال: هجأ الجوع: سكن والطعام سكنه هجأ(3).

هذا بالنسبة لعالم الهمزة في دلالة الكلمة، أما مع عالم الواو فتلحظ دلالة أخرىٰ تسمىٰ بالحفظ، حيث «قال الكسائي: ما حَجَوْت منه شيئًا وما هَجَوْت منه شيئًا، أي ما حَفِظْت منه شيئًا»(4).

لذلك تجد ابن فارس دقيقًا عندما يؤصِّل لهذه الدَّلالات فيقول: «ومما شذَّ من هذا القياس هِجاء الحروف، يقال تَهَجَّيت. وإذا همز تغيَّر المعنىٰ، يقولون: هَجَأَ الطعام: أكلَه»(5).

---

(1) شرح القول الأوجز ص95.

(2) تهذيب اللغة 6/ 185. وينظر: تاج العروس1/ 503.

(3) الأفعال. أبو القاسم السعدي 3/ 360 - عالم الكتب - بيروت - الطبعة الأولىٰ 1403هـ-1983م. وينظر: لسان العرب (هـ. ج. أ) 6/ 4614، وتاج العروس 1/ 503.

(4) تهذيب اللغة 5/ 86. وينظر: لسان العرب (ح. ج. و) 2/ 793.

(5) مقاييس اللغة لابن فارس 6/ 38، 39.

**المثال الآخر: بين الهمزة والياء**

أ- يقول ابن مالك: «حلأه وجلأه بالحاء والجيم: صرعه، ذكرهما الأزهري. وحلَىٰ بالشيء يحلَىٰ به: أي ظفر. وتُقْضِئُ بالهمز بمعنىٰ تُطْعِم، وقَضِئْتُ الشيء: أكلته. ويُقضي بلاهمز: يميت. وقضىٰ فلان: مات، ذكرهما الفراء»[1].

تبدو تصريحات الأزهري الدَّلالية في بداية النَّصِّ في حين تبدو التَّصريحات الأخرىٰ للفراء في نهايته، فيذكر الأول وفي مادة (ج. ل. أ) بالجيم علىٰ لسان أبي زيد: «جلأت بالرجل أجل به جلأ: إذا صرعته»[2]، وعلىٰ لسانه أيضًا وفي مادة (ح. ل. أ) بالحاء ذكر: «حَلأته بالسوط حلأ: إذا جلدته. وحلأته بالسيف حلأ: إذا ضربته»[3].

فالمادتان بالجيم والحاء تبدو الدَّلالة فيهما واحدة أو متقاربة ولكن ليس هذا محل الشَّاهد، فمحل الشَّاهد هنا هو تلك الدَّلالة التي تأتي فيها المادة بالحاء والياء علىٰ الوجه المقابل للحاء والهمزة، حيث ذكر في لسان العرب وفي مادة (ح. ل. أ) بالياء أنها تعني الظَّفر بالشيء: «ويقال: ما حَلِيتُ منه حَلْيًا: أي ما أصبت. وحَلِيَٰ منه بخير وحَلا: أصاب منه خيرًا. قال ابن بَرِّيِّ: وقولهم لم يَحَلْ بطائل: أي لم يظفر، ولم يستفد منها كبير فائدة، لا يتكلم به إلا مع الجحد، وما حَلِيت بطائل لا يستعمل إلا في النفي، وهو من معنىٰ الحَلْي والحِلْيَة، وهو من الياء، لأنَّ النَّفْس تعتد الحِلْيَة ظفرًا، وليس هو من حَلِي بعيني بدليل قولهم حلي بعيني حلاوة فهذا من الواو والأول من الياء لاغير»[4].

وأما عن المثال الآخر في النَّصِّ نفسه والذي ترىٰ فيه وجه الاختلاف بين الهمزة والياء أيضًا في نهاية الكلمة، فالكلمة الأولىٰ جذرها اللغوي (ق. ض. أ)

---

(1) شرح القول الأوجز ص78.

(2) تهذيب اللغة 11/ 129. وينظر: لسان العرب 1/ 647.

(3) تهذيب اللغة 5/ 154. وينظر: لسان العرب 2/ 955.

(4) لسان العرب 2/ 983.

والأخرىٰ (ق. ض. ي) كلاهما في باب القاف ولكن الأولىٰ مع الضَّاد والهمزة والأخرىٰ مع الضَّاد والياء ولكن الدَّلالة تختلف، حيث يقال: «وقَضِىء الشيء يَقْضَؤُهُ قَضُا، ساكنة عن كراع: أكله. وأَقَضَأَ الرَّجَل: أطعمه، وقيل: إنما هي أفضأه، بالفاء»[1].

وذكر «أبوعبيد عن الأصمعي في باب الهمز: أَفْضَأَت الرَّجَل: أطعمته. قال أبو منصور: أنكر شَمِر هذا الحرف؛ قال: وحَقَّ له أن ينكره لأن الصواب أقْضَأته، بالقاف، إذا أطعمته»[2].

وأما قضي بالياء فهي تتَّجه إلىٰ دلالة أخرىٰ تختلف تمامًا عن الأولىٰ، حيث ذكر الفراء: «وقوله: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ **[يونس: 71]** وقد قرأها بعضهم: (ثم أفضوا إليَّ) بالفاء[3]. فأما قوله: (ثم اقضوا إليَّ) فمعناه: امضوا إليَّ، كما يقال قد قضىٰ فلان، يراد: قد مات ومضىٰ. وأما الإفضاء فكأنَّه قال: ثُمَّ توجَّهوا إليَّ حتىٰ تصلوا، كما تقول: قد أفضت إليَّ الخلافة والوجع، وما أشبهه»[4].

وعلىٰ ذلك فالإفضاء يعني الإسراع، وذلك محمول علىٰ دلالة «أسرعوا إليَّ، وهو أَفعلْت من الفَضاء، وذلك أنَّه إذا صار إلىٰ الفضاء تمكن من الإسراع، ولوكان في ضيق لم يقدر من الإسراع علىٰ ما يقدر عليه من السعة. ولام أَفْضيت والفَضاء وما تصرف منهما واو لقولهم: فَضا الشيء يفْضو فُضُوًا: إذا اتسع. فقولهم أَفْضيت: صرت إلىٰ الفَضاء، كقولهم: أَعْرق الرجل إذا صار إلىٰ العراق، وأَعمن الرجل: إذا صار إلىٰ عُمان، وأَنجد: أَتىٰ نجدًا، ونحو ذلك»[5].

---

(1) السابق 5/ 3659.

(2) السابق 5/ 3425.

(3) وهي قراءه السّرِّي بن يَنعْم. المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإفصاح عنها لابن جني. تحقيق. علي النجدي ناصف وآخرين 1/ 315 - المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية - القاهرة 1415هـ-1994م.

(4) معاني القرآن للفراء. تحقيق. أحمد يوسف نجاتي، محمد علي النجار 1/ 474 - 1955م.

(5) المحتسب 1/ 316، 315.

إذًا «قضي نحبه قضاء: مات ... وقضىٰ في اللغة علىٰ ضروب كلها ترجع إلىٰ معنىٰ انقطاع الشيء وتمامه»[1].

وبهذا تتضح قيمة الصَّوت الصَّامت وأثره في تحويل الدَّلالة، ليس معنىٰ ذلك أنها كانت ثم حولت ولكن المعنىٰ أنه قد يظَنُّ بها معني ما ولكن الحقيقة تفرض لها معنىٰ آخر، ترىٰ ذلك جليًّا في مصَنَّفَات المعاجم العربية وعرضها لأقوال أئمة اللغة.

(1) لسان العرب 5/ 3666.

## المبحث الثالث

# اختلاف الحركة والدَّلالة في إكمال الإعلام بتثليث الكلام

لم يكن ابن مالك رائدًا في مجال الكتابة في دراسة الصَّوامت فقط بما قدَّمه من مصَنَّفَات خاصَّة بها وإنما كان رائدًا في مجال الصَّوائت أيضًا، حيث قدَّم في كتابه (إكمال الإعلام بتثليث الكلام) ألفين وثلاثمائة واثنتين وثلاثين كلمة (2332)، منها إحدىٰ ومائتي كلمة (201)، خاصة بالتَّثليث الحركي مع اتِّفاق الدَّلالة، والأخرىٰ مع اختلاف الدَّلالة في ألفين ومائة وإحدىٰ وثلاثين كلمة (2131)، وفي وضع هذه المادة اللغوية الوفيرة إدراك كامل من ابن مالك بقيمة الصَّوت الصَّائت وأهميته في تنويع الدَّلالة وخاصة في مجال الصَّوائت القصيرة، فالحركات «بما تمتاز به من خصائص فسيولوجية وفيزيائية وإدراكية هي روح الكلام التي تمنحه الحيويَّة والنَّشاط وهي وسيلة طيِّعة في يد المتكلم لكي يلون كلامه كيفما يشاء ووفق مقتضيات الموقف الكلامي»(1).

وباب التَّثليث الذي يقصده ابن مالك هنا هو عبارة عن مجموعة من ثلاث مفردات، مركبة من الحروف نفسها، وهذه الحروف تتفق في ترتيبها وفي تعاقب الحركة والسكون عليها. والتَّثليث يكون بتحريك حرف أوحرفين بالفتح في المفردة الأولىٰ، ونفس الحرف أو الحرفين يحركان (بالكسر) في المفردة الثانية وفي المفردة الثالثة بالضَّمِّ(2).

وقد استشهد ابن مالك في كتابه هذا بكافَّة الأشكال اللغوية التي يحتج بها ولكنِّي سوف أقتصر فقط في هذه الصَّفحات علىٰ المثل العربي وما يرشد إليه

(1) علم الصوتيات ص165.

(2) إكمال الإعلام بتثليث الكلام لابن مالك. تحقيق. سعد بن حمدان الغامدي1/ 46 – قسم الدراسة – جامعة أم القرىٰ – مكة المكرمة – المملكة العربية السعودية – الطبعة الأولىٰ 1404هـ–1984م.

من توجيه الدَّلالة اللغوية بأوجز عبارة وأفصح أسلوب بغية الوصول إلىٰ المضمون بالبيان والتَّوضيح عن طريق كلمات جامعة تعبر عن موقف ما يؤخذ بالقياس علىٰ ما يشابهه من مواقف أخرىٰ تعبيرًا عن حالة المجتمعات والأعراف السائدة بينها، فالمثل العربي هو: «الكلام البليغ الشَّائع الحسن، المشتمل إما علىٰ تشبيه بلا شبيه، أو استعارة رائقة، أو حكمة وموعظة نافعة، أو كتابة بديعة، أو نظم من جوامع الكلم المعجز»[1].

«والأمثال لا تبدو أهميتها وفائدتها من خلال اللغة فحسب، بل هي وطيدة الصِّلة بجوانب كبيرة من حياة المجتمعات والشُّعوب، فالأمثال جزء معبر عن الحياة الاجتماعية بأعرافها وعاداتها، كما أنها ترسم ظلال التَّاريخ عبر حقبه وأزمانه المختلفة، ولها أيضًا صلة بالدِّين ومبادئ الأخلاق، وهي مع كل ذلك تحمل دلالات علىٰ الذَّكاء والفطنة، وعلاقات علىٰ الخبرة والحكمة، ولا تخلو كذلك من طرافة وملاحة»[2].

فالأمثال العربية من الشَّواهد الأصيلة التي تضع دلالة الألفاظ في دائرتها الخاصَّة بها «إذ إنَّها من أقرب الأصول علىٰ واقع اللغة. فإذا كان القرآن المثل الأعلىٰ للغة في الفصاحة والبلاغة، وكان الشِّعْر خاصًّا بطبقة عليا من الناس لها قدرات رفيعة، فإن الأمثال تنبثق من عامَّة العرب، معتمدين علىٰ السَّليقة التي يتمتعون بها، مع الخلو من قيود الشِّعْر -غالبًا-، مما يجعلها مرآة حقيقية للغة العربية الشَّائعة»[3].

---

(1) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي1/ 163 - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(2) معجم المصطلحات والتراكيب والأمثال المتداولة د. محمد بن حسن الشريف ص3، 4 - دار الأندلس الخضراء - جدة - الطبعة الأولىٰ 1419هـ-1999م.

(3) الأمثال العربية القديمة التي خالفت القواعد النَّحوية والتَّصريفية. عصام بن عبد العزيز الخطيب ص3 - رسالة علمية أجيزت سنة 1421هـ.

وبإيجاز أعرض في هذا المقام بعض النَّماذج الخاصَّة بالأمثال والتي استشهد بها ابن مالك علىٰ توجيه الدَّلالة اللغوية اعترافًا منه بأهميتها وقيمتها في مجال الاحتجاج اللغوي.

## النَّموذج الأول: (وقعوا في حَيْصَ بَيْصَ)

يقول ابن مالك: «البَوْص: اللون، ومصدر باصَهُ: تقدَّمه، وأيضًا استعجله. وبَيْص: من قولهم: «وقعوا في حَيْصَ بَيْصَ» (بالكسر والفتح): أي فيما لامخلص منه. والبُوص: العجيزة، واللون أيضًا»[1].

هذا مثل من الأمثال العربية القديمة أسكنه أهل اللغة في دائرة الاستشهاد والاحتجاج لتخرج الكلمة العربيَّة من خلاله من دائرة ضيِّقة تقتصر علىٰ بعض الدَّلالات إلىٰ دائرة أوسع وأشمل فتحتوي علىٰ مجموعة كبيرة منها.

وهذا هو ابن مالك يرسم حدود هذه الصورة في دلالات أربع في النَّص السَّابق، منها ثلاثة للبوص بفتح الباء وواحدة بكسرها ودلالتين لمضمومها نصَّ عليها أهل اللغة وأضافوا إليها دلالات أخرىٰ، فما ذكره ابن مالك إيجازًا نصَّ عليه أهل اللغة تفصيلاً بالشواهد والأمثلة[2] ولكن ما يعنيني في هذا المقام هو المثل ودلالته وتوجيه الاستشهاد به.

فإذا كان البَوْص قد تحركت باؤه بالفتح والضم لدلالات مختلفة يأتي المثل بكسر الباء واردًا فيه لغة الفتح أيضًا للتعبير عن دلالة ما، وبضم الكلمتين في دائرة واحدة تخرج لنا دلالة المثل، فإذا عرفنا أن الحَيْص الفرار والبَوْص الفوت وحيص من بنات الياء وبيص من بنات الواو فصيرت الواو ياء ليزدوجا يضرب لمن وقع في أمر ما لا مخلص له منه فرارًا أو فوتًا[3].

---

(1) إكمال الإعلام بتثليث الكلام 1/ 79رقم 132.

(2) لسان العرب (ب. و. ص) 1/ 386. وينظر: الصحاح 3/ 1031.

(3) مجمع الأمثال للميداني. تحقيق. محمد محيي الدين عبد الحميد 1/ 127 - دار المعرفة - بيروت.

لذلك ذكر الجوهري: «يقال: وقعوا في حَيْص بَيْص، أي في اختلاط من أمرهم لا مخرج لهم منه. ويقال في ضيق وشدة. وهما اسمان جعلا اسمًا واحدًا وبنيا علىٰ الفتح، مثل جارِي بَيْتَ بَيْتَ ... وزعم بعضهم أيضًا أنهما اسمان من حَيْص وبَوْص جعلا واحدا وأُخرج البوص علىٰ لفظ الحيص ليزدوجا»[1].

**النَّموذج الثَّاني: (باتت فلانة بليلة حُرَّة وبليلة شيباء)**

يقول ابن مالك: «الحَرَّة: أرض ذات حجارة مُحْرَقَةٍ، والظُّلمة الكثيرة، وبَثْرَة صغيرة. والحِرَّة: حرارة العطش. والحُرَّة: خلاف الأَمَة، والسَّحابة الكثيرة المطر، والرَّمْلة لا طين فيها، ومجال القُرْط، وباتت فلانة بليلة حُرَّة: إذا لم تُفْتَضَّ، وبليلة شيباء: إذا افْتُضَّتْ»[2].

ليس من باب العيب أو الانتقاص من قدر اللغة أن تجد الكلمة العربية في كثير من الدَّوائر الدَّلالية المختلفة وكأنَّها تقتطف زهرة من كل بستان ولكنَّها سمة تتميَّز وتتفوَّق بها مادام السياق يأخذ بأيديها ويسكنها في الدَّائرة الخاصَّة بها، وكأنَّ ابن مالك يريد أن يبين هذا الملحظ الدقيق، حيث لم يكن همُّه جمع جميع الدَّلالات التي تتصل بالكلمة العربية بل يشير إلىٰ بعضها كعلامة أو سمة أو إشارة وكأنَّه يريد أن يقول من أراد المزيد فليطالع معاجم اللغة، فما أورده من دلالات هو بعينه بعض ما نَصَّ عليه أهل اللغة[3]، حيث اقتصر ابن مالك علىٰ ثلاث دلالات علىٰ الحَرَّة -بفتح الحاء-، ثم دلالة بكسرها، ثم خمس دلالات بضمِّها، ثم يأتي المثل العربي توضيحًا لتلك الدَّلالة الأخيرة، حيث قيل: «وقولهم: باتت

---

(1) الصحاح (ح. ي. ص) 3/ 1035.

وينظر: إصلاح المنطق لابن السكيت. تحقيق. أحمد محمد شاكر، عبد السلام محمد هارون 1/ 31 – دار المعارف – القاهرة – الطبعة الرابعة، والإتباع والمزاوجة لابن فارس. تحقيق. كمال مصطفىٰ ص51 – مكتبة الخانجي – القاهرة، والأصول في النحو لابن السراج. تحقيق. عبد السلام الفتلي 2/ 140 – مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة الثالثة 1408هـ-1988م، ولسان العرب (ب. ي. ص) 1/ 396.

(2) إكمال الإعلام بتثليث الكلام 1/ 143 رقم 302.

(3) ينظر: الصحاح (ح. ر. ر) 2/ 626: 628، ولسان العرب 2/ 827: 831.

فلانة بليلة حُرَّة، إذا لم يقدر بعلها علىٰ افتضاضها ... فإن افتضها فهي بليلة شَيْباء»[1].

وبعبارة أخرىٰ قيل: «وباتت فلانة بليلة حُرَّة: إذا لم تُفْتَض ليلة زفافها ولم يقدر بعلها علىٰ افتضاضها ... الليث: يقال لليلة التي تُزَف فيها المرأة إلىٰ زوجها فلا يقدر فيها علىٰ افتضاضها ليلة حُرَّة؛ يقال: باتت فلانة بليلة حُرَّة؛ وقال غير الليث: فإن افتضها زوجها في الليلة التي زفَّت فيها فهي بليلة شيباء»[2].

## النَّموذج الثَّالث: (هو أشجع من فارس خَضَافِ)

يقول ابن مالك: «خَضَاف معدول عن خاضِفَةٍ: بمعنىٰ ضَارِطَة، وهو أيضًا اسم فرس في قولهم: «هو أشجع من فارس خَضَافِ»، وهذا غير خَصَاف (بالصاد المهملة) في قولهم: «أجرأ من خاصي خَصَافِ». والخِضَاف: البِطِّيح الصغير (والخُضَاف): الضُّرَاطُ»[3].

فرَّق ابن مالك بالحركات الثلاث بين دلالات مختلفة[4] مستشهدًا بالمثل العربي: «هو أشجع من فارس خَضَافِ» -بفتح الخاء والضاد- للدلالة علىٰ اسم فرس قيل عنه بأنه لـ «رجل من غسان وكان من أجبن أهل زمانه يقف في آخر الصف وينهزم أول منهزم فبينا هو ذات يوم واقف جاء سهم فوقع بين يديه فرآه يهتز فتأمَّله فإذا هو قد أصاب يربوعًا في جحر بين يديه فقال أترىٰ هذا اليربوع وظنَّ أن السهم لا يصيبه وهو في جحره (لا الإنسان في شيء ولا اليربوع) فأرسلها مثلاً ثم استقدم فكان من أشدِّ الناس»[5].

---

(1) الصحاح 2/ 628.

(2) لسان العرب 2/ 830.

(3) إكمال الإعلام بتثليث الكلام 1/ 187، 188 رقم 420.

(4) ينظر هذه الدلالات في: لسان العرب 2/ 1189. وأما اسم فرس فقد ذكرها ابن منظور خطأ في مادة (خ. ص. ف) 2/ 1175.

(5) وقيل: هو سمير بن ربيعة في حكاية عنه. جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري 1/ 298 - دار الفكر - بيروت - 1408هـ-1988م.

وفي الوقت نفسه انتهز ابن مالك الفرصة وأزاح الستار عن الوهم الشَّائع والمشهور من خلط بعض الأمثال نتيجة التَّشابه بين بعض الحروف بالإعجام والإهمال فنبَّه إلىٰ أنَّ هذا المثل يغاير المثل الآخر: «هو أجرأ من خاصي خَصَافِ» -بالخاء والصَّاد-: «وهو فرس طلبه بعض الملوك فخصاه صاحبه فتمثَّل به لاجترائه علىٰ الملك»[1].

إذًا فهذا مثل وما قبله مثل آخر ولكل مناسبته وموطنه من حيث الاستشهاد به.

### النَّموذج الرَّابع: (هو العبد زُلْمَة)

يقول ابن مالك: «الزَّلْمَةُ: المَرَّة من زَلَمَ الحوض: ملأه، والعطاء: قَلَّلَه، والقِدْح: حَسَّن بَرْيَه وقَدَّه. والزِّلمة: الهيئة منهما. والزُّلْمَة: من قولهم: «هو العبد زُلْمَة» أي حَقًّا. وقيل معناه: قَدُّه قَدُّ العبد»[2].

إذا أردت أن تتعرف علىٰ أسرار الدَّلالات فأعد النُّطق مرات ومرات، تارة بفتح الحرف وتارة بكسره وأخرىٰ بضمِّه وتأمَّل مايهبه كل منها من دقائق وغايات، وابن مالك في هذا المثال قد سطَّر خمس دلالات، للمفتوح ثلاثة ولكل من المكسور والمضموم دلالة واحدة[3]، ثم استشهد علىٰ المضموم بهذا المثل العربي «هو العبد زُلْمَة»، وهذا «يضرب مثلاً للئيم ومعناه أنه زلم تزليم العبد أي قَدَّ قَدَّهُم فإذا نظر إليه المفترس عرف اللؤم فيه»[4].

### النَّموذج الخامس: (أصنع من سُرْفَة)

يقول ابن مالك: «السَّرْفَةُ: المَرَّة من سُرِفَتُ الشجرة: أُصيبت بالسُّرْفَة،

(1) السابق 1/ 298.

وينظر: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء. أبو القاسم الأصفاني. تحقيق. عمر الطباع 2/ 198 - دار القلم - بيروت 1420هـ-1999م، ولسان العرب (خ. ص. ف) 2/ 1175.

(2) إكمال الإعلام بتثليث الكلام 1/ 282 رقم 670.

(3) تنظر هذه الدلالات وغيرها في: الصحاح (ز. ل. م) 5/ 1943، 1944، لسان العرب 3/ 1857، 1858.

(4) جمهرة الأمثال 2/ 357 رقم 1826.

وينظر: إصلاح المنطق ص114، ومجمع الأمثال 2/ 383، والصحاح 5/ 1943، ولسان العرب 3/ 1858.

ومن سَرِف الشيء: جَهِله، وأيضًا: أغفله، والماء: ذهب في الأرض بغير نفع، والسِّرْفَة: الهيئة منه. والسُّرْفَة: دويبة تأكل ورق الشجر وتصنع بيتًا محكمًا فيقال: «أصنع من سُرْفَةٍ»[1].

ينتقل بنا ابن مالك إلىٰ مثل عربي آخر يجعله عنوانًا للتأكيد علىٰ تلك الدَّلالة الخاصَّة بلفظة (السُّرْفَة) -بضم السِّين- وذلك في باب ما أوله سين من المثلث المختلف المعاني، وذلك بعد أن يذكر لهذه الكلمة بحركاتها الثلاث ست دلالات نصَّ عليها أهل اللغة، فالسَّرْفة -بفتح السين- اجتمعت فيها أربع دلالات مع الاكتفاء بدلالة واحدة لحالة النطق بكسر السين وضمِّها[2].

وأما عن المثل ودلالته فقد عنون له صاحب جمهرة الأمثال تحت فهرست الأمثال المضروبة في التَّناهي والمبالغة الواقعة في أوائل أصولها الصاد فقال: «أصنع من سُرْفَة: وهي دويبة مثل العدسة تثقب شجرًا وتعمل فيه بيتًا من عيدان مثل غزل العنكبوت مقوم الزوايا وتدخل أطراف العيدان بعضها في بعض وتجعل فيها بابًا مربعًا. ويقال إنَّ الناس أخذوا عمل النواويس من ذلك. ويقال سرفت الشجرة: إذا أكلتها السرفة»[3].

## النَّموذج السَّادس: (لقيته كَفَّة كَفَّة)

يقول ابن مالك: «الكَفَّةُ: المَرَّة من كَفَّ الشيء: صرفه، وعنه: تركه، والثوب: عطف خياطته علىٰ أخرىٰ، والعَيْبَة: أَشْرَجَها، والناقة: سقطت أسنانها هَرَمًا، فهي كَفُوف، والزَّنْد: صَوَّتَتْ ناره عند خروجها. والكَفَّةُ أيضًا: المَرَّة من كُفَّ بصره: عَمِيَ. ولَقِيته كَفَّةَ كَفَّةَ، وكَفَّةً لِكَفَّةٍ، وعن كَفَّةٍ (بالفتح أيضًا): أي

(1) إكمال الإعلام بتثليث الكلام 2/ 303 رقم 723.

(2) ينظر: الصحاح (س. ر. ف) 4/ 1373، ولسان العرب 3/ 1997.

(3) جمهرة الأمثال1/ 567، 583 رقم 1087.

وينظر: أدب الكاتب لابن قتيبة. تحقيق. محمد محيي الدين عبد الحميد 1/ 165 – الطبعة الرابعة 1963م بمصر، ومجمع الأمثال 1/ 411، والصحاح 4/ 1373، ولسان العرب بالتفصيل 3/ 1997.

متكافَّيْن. والكِفَّةُ بالكسر: كِفَّةُ المِيزان، وحِبَالة الصَّائد ودَارَة الوَشْم، وحُفْرَة يجتمع فيها الماء. والكُفَّةُ (بالضَّمِّ): كل ما استطال كحاشية الثَّوْب والرَّمْل والسَّحاب وما انحدر من اللثة علىٰ الأسنان»[1].

أطال ابن مالك النَّفَس في ذكر الدَّلالات الخاصة بالكَفَّة -بفتح الكاف- فعرض لها دلالات ثمانية في حين ذكر لمكسور الكاف أربعة واكتفىٰ باثنتين لمضمومها، وهذا يعني أنَّه ليس له مقياس في ذكر الدَّلالات فتارة يطنب وتارة يوجز، فما يعنيه في المقام الأول والأخير الفروق الدَّلالية بغض النظر عن كمِّيتها وعددها، وماذكره جزء من كل نصَّ عليه أهل اللغة[2].

والشَّاهد في هذا المقام يعود إلىٰ الكَفَّة -بفتح الكاف- والمثل الشهير: (لقيته كَفَّة كَفَّة): «والمعنىٰ كَفَّة منِّي وكَفَّة منه وذلك أن المتلاقين إذا تلاقيا فقد كفَّ كل واحد منهما صاحبه عن مجاوزته إلىٰ غيره في دفعة التقائهما فهما مصدران وضعا موضع الحال كأنَّك قلت لقيته متكافئين مثل لقيته قائمين. ويروىٰ كَفَّة لكَفَّة وكَفَّة علىٰ كَفَّة وكَفَّة عن كَفَّة»[3].

وقيل بعبارة أخرىٰ: «وقولهم: لقيته كَفَّة كَفَّة -بفتح الكاف-: أي كفافًا، وذلك إذا استقبلته مواجهة. وهما اسمان جعلا واحدًا وبنيا علىٰ الفتح مثل خمسة عشر»[4].

وعلىٰ ذلك فدلالة الحركة لاتقل بحال من الأحوال عن دلالة الحرف، والمثل كذلك لا يقل عن غيره أهمية في ضرورة الاستشهاد وتوضيح غوامض وخفي الدَّلالات، استطاع ابن مالك أن يفرز هذه الحقيقة ويضعها موضع المُسَلَّمَات، وهذا ما أنتجته الدِّراسات اللغوية وأجمعت عليه قديمًا وحديثًا.

---

(1) إكمال الإعلام بتثليث الكلام 2/ 547 رقم 1376.

(2) ينظر: الصحاح (ك. ف. ف) 4/ 1422، 1423، ولسان العرب 5/ 3903، 3904.

(3) المستقصىٰ في أمثال العرب 2/ 289، 290 رقم 1017.

(4) الصحاح 4/ 1422. وينظر: لسان العرب 5/ 3903.

# الخاتمة

مع عنوان الخاتمة ومن خلال سطور موجزة يسجِّل الباحث أهم النتائج التي توصَّل إليها في بحثه الموسوم بـ «**الفروق الدَّلاليَّة في مُصَنَّفَات ابن مالك الصَّوتيَّة**» والتي يمكن أن تقدم في صفحات ولكن اختصرها الباحث في عدة نقاط وهي:

1- امتلاك ناصية البيان ليس قاصرًا علىٰ مجال الإبداع في الدِّراسات النَّحْوية بل قد يكون في مجال الأصوات والدَّلالات فاللغة وحدة واحدة متكاملة الأركان.

2- توثيق الدَّلالات اللغوية بجميع وسائل الاحتجاج ظاهر بوضوح في تلك المُصَنَّفات.

3- الفكرة في هذه المُصَنَّفات بيان الفروق الدَّلالية وليس حصر وحشد الدَّلالات.

4- قيمة الصَّوت اللغوي وتأثيره الدَّلالي من أسباب عظمة هذه اللغة، ليس فقط من خلال الصَّوامت بل مع الصَّوائت أيضًا.

5- قد يُظَنُّ التَّعاقب في باب الظَّاء والضَّاء أو في ما يهمز وما لا يهمز في جميع الأحيان من قبيل اتِّفاق الدَّلالات فتأتي الحقيقة لتنفي وتؤكِّد الاختلاف وذلك تحت عنوان اختلاف المادة والدَّلالة.

6- تتشابه الصَّوامت فيذهب الذِّهن إلىٰ اختلاف اللهجات ولكن مع تغاير الحركات يأتي تغاير الدَّلالات وذلك مع اختلاف الحركة والدَّلالة.

7- الثَّروة اللغوية وتطويعها في مجال التعبير والأساليب دليل الحفظ والإجادة والإتقان ولكن إدراك الأسرار دليل البراعة والتَّفوق والإبداع.

8- تقرأ الصَّفحات عند ابن مالك وكأنَّك قد قرأت عند غيره المُصَنَّفات وذلك لأسلوبه الفريد وتعبيراته الدقيقة في إيصال الفكرة بأوجز الأساليب.

9- في هذه المُصَنَّفات تحذير من ابن مالك من الخلط بين اتِّفاق واختلاف الدَّلالات وذلك لا يكون إلا مع غزارة المادة اللغوية وبراعة الاستنتاج.

10- معيار التقدم ليس فقط في ابتكار الأفكار ولكن قد يكون في التَّطوير وطريقة العرض والتَّقديم.

وبعد، فقبل أن يخطَّ الباحث هذه الصَّفحات وكلما انتهىٰ من فكرة بحثيَّة مع الإمام ابن مالك يجد فكرة أخرىٰ لا تقل أهمية عن الأولىٰ، وذلك لغزارة انتاجه وتنوعه في كثير من المجالات فيبقىٰ دائمًا الامام الموسوعة رائدًا وإن أنتج عصره كثيرًا من العلماء، ويظل بدرًا مهما تغايرت معه الأيام، فأدعو الله ﷻ لهذا البحث القبول وأن يكتبه في ميزان الحسنات ويغفر لي مافيه من زلل أو خطأ أو تقصير، فسبحانه وتعالى المتفضِّل بالنِّعم والإحسان.

﴿تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾ **[البقرة: 286]**.

# فهرس المصادر والمراجع


## القرآن الكريم

1- الإتباع والمزاوجة لابن فارس. تحقيق. كمال مصطفىٰ - مكتبة الخانجي - القاهرة.

2- أدب الكاتب لابن قتيبة. تحقيق. محمد محيي الدين عبد الحميد - مصر - الطبعة الرابعة 1963م.

3- أساس البلاغة للزمخشري - دار الفكر 1399هـ-1979م.

4- إصلاح المنطق لابن السكيت. تحقيق. أحمد محمد شاكر، عبد السلام محمد هارون - دار المعارف - القاهرة - الطبعة الرابعة.

5- الأصوات اللغوية د. إبراهيم أنيس - دار الأنجلو المصرية 2007م.

6- الأصول في النحو لابن السراج. تحقيق. عبد السلام الفتلي - مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الثالثة 1408هـ-1988م.

7- الاعتماد في نظائر الظاء والضاد لابن مالك. حققه د. ناصر حسين علي - المطبعة التعاونية بدمشق - الطبعة الأولىٰ 1409هـ-1989م.

8- إعجاز القرآن الكريم والبلاغة العربية للرافعي - دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان - الطبعة الثالثة.

9- الأفعال. أبو القاسم السعدي. عالم الكتب - بيروت - الطبعة الأولىٰ 1403هـ-1983م.

10- إكمال الإعلام بتثليث الكلام لابن مالك. تحقيق. سعد بن حمدان الغامدي - جامعة أم القرىٰ - مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية - الطبعة الأولىٰ 1404هـ-1984م.

11- الأمثال العربية القديمة التي خالفت القواعد النحوية والتصريفية. عصام بن عبد العزيز الخطيب - رسالة علمية أجيزت سنة 1421هـ.

12- بحر العلوم. نصر بن محمد السمرقندي. تحقيق د. محمود مطرحي - دار الفكر - بيروت.

13- تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي. تحقيق. مجموعة من المحققين - دار الهداية.

14- تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري. تحقيق د. أحمد عبد الغفور عطار - دار العلم للملايين - الطبعة الثالثة 1404هـ-1984م.

15- التحرير والتنوير. محمد الطاهر بن عاشور - دار سحنون - تونس 1997م.

16- التسهيل لعلوم التنزيل. محمد بن أحمد الغرناطي الكلبي - دار الكتاب العربي - لبنان - الطبعة الرابعة 1403هـ-1982م.

17- تفسير السمعاني. تحقيق. ياسر بن إبراهيم، غنيم بن عباس بن غنيم - دار الوطن - السعودية - الرياض 1418هـ-1997م.

18- تفسير مقاتل بن سليمان. تحقيق. أحمد فريد - دار الكتب العلمية - لبنان - بيروت - 1424هـ-2003م.

19- تهذيب اللغة للأزهري. تحقيق. محمد عوض مرعب - دار إحياء التراث العربي - الطبعة الأولىٰ 2001م.

20- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي. حققه. عبد الرحمن بن معلا اللويحق - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولىٰ 1420هـ-2000م.

21- جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري. حققه. أحمد محمد شاكر - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولىٰ 1420هـ-2000م.

22- الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي). حققه. هشام سمير البخاري - دار عالم الكتب - الرياض - المملكة العربية السعودية - 1423هـ-2003م.

23- جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري - دار الفكر - بيروت - 1408هـ-1988م.

24- الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي. حققه. بدر الدين قهوجي، وبشير جويجاتي - دار المأمون للتراث - الطبعة الثانية1413هـ-1993م.

25- دراسات في فقه اللغة د. صبحي الصالح - دار العلم للملايين - الطبعة الحادية عشرة 1379هـ-1960م.

26- دراسة الصوت اللغوي د. أحمد مختار عمر - عالم الكتب - 1411هـ-1991م.

27- الدلالة اللغوية عند العرب د. عبد الكريم مجاهد د. ت.

28- ديوان الأعشي الكبير. محمد حسين - رسالة ماجستير 1950م.

29- ديوان النابغة الذبياني. شرح وتقديم د. عباس عبد السَّاتر - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الثالثة 1416هـ-1996م.

30- ديوان جرير - دار بيروت - 1406هـ-1986م.

31- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

32- السبعة في القراءات لابن مجاهد. تحقيق د. شوقي ضيف - دار المعارف - القاهرة1400هـ.

33- سر صناعة الإعراب لابن جني. تحقيق. مصطفىٰ السقا وآخرين - مصطفىٰ الحلبي - الطبعة الأولىٰ - 1374هـ-1954م.

34- سرالفصاحة لابن سنان الخفاجي - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولىٰ 1402هـ-1982م.

35- السنة قبل التدوين. محمد عجاج الخطيب - القاهرة - الطبعة الأولىٰ 1383هـ-1963م.

36- شرح التسهيل لابن مالك. تحقيق د. عبد الرحمن السيد، د. محمد بدوي المختون - دار هجر للطباعة والنشر - الطبعة الأولىٰ 1410هـ-1990م.

37- شرح النظم الأوجز في مايهمز وما لايهمز لابن مالك. تحقيق د. علي حسين البواب - دار العلوم - الرياض - المملكة العربية السعودية - الطبعة الأولىٰ 1405هـ-1984م.

38- صحيح مسلم - دار الجيل - بيروت.

39- علم الصوتيات د. عبد الله ربيع، د. عبد العزيز علام - المكتبة التوفيقية.

40- علم اللغة العام (القسم الثاني «الأصوات» ) د. كمال محمد بشر - دار المعارف بمصر 1969م.

41- علم اللغة مقدمة للقارئ العربي د. محمود السعران - دار الفكر العربي - القاهرة 1412هـ-1992م.

42- العين. الخليل بن أحمد الفراهيدي. تحقيق. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي - مكتبة الهلال.

43- غريب الحديث لابن الجوزي. تحقيق د. عبد المعطي أمين - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولىٰ 1405هـ-1985م.

44- غريب الحديث لابن سلام. تحقيق د. محمد عبد المعيد خان - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الأولىٰ - 1396هـ.

45- غريب الحديث لابن قتيبة. تحقيق د. عبد الله الجبوري - مطبعة العاني - بغداد - الطبعة الأولىٰ 1397هـ.

46- الفائق في غريب الحديث للزمخشري. تحقيق. علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعرفة - لبنان - الطبعة الثانية.

47- فصول في فقه العربية د. رمضان عبد التواب - مكتبة الخانجي بالقاهرة - الطبعة السادسة 1420هـ-1999م.

48- فقه اللغة د. علي عبد الواحد وافي - دار نهضة مصر.

49- القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث د. عبد الصبور شاهين - مكتبة الخانجي بالقاهرة 1966م.

50- كتاب سيبويه. تحقيق. عبد السلام محمد هارون - دار الجيل - بيروت - الطبعة الأولىٰ 1400هـ-1991م.

51- الكشاف عما في القراءات العشر من خلاف. د. أحمد محمد إسماعيل البيلي - الدار السودانية للكتب - الطبعة الأولىٰ 1419هـ-1998م.

52- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري - دار الكتاب العربي.

53- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال. علاء الدين الهندي. تحقيق. محمود عمر الدمياطي - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولىٰ 1419هـ-1998م.

54- لسان العرب لابن منظور. حققه. علي عبد الله الكبير وآخرون - دار المعارف - القاهرة.

55- اللهجات العربية نشأة وتطورًا د. عبد الغفار حامد هلال - الطبعة الثانية 1410هـ-1990م.

56- مجمع الأمثال للميداني. تحقيق. محمد محيي الدين عبد الحميد - دار المعرفة - بيروت.

57- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء. أبو القاسم الأصفاني. تحقيق. عمر الطباع - دار القلم - بيروت 1420هـ-1999م

58- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإفصاح عنها لابن جني. تحقيق. علي النجدي ناصف وآخرين - المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية - القاهرة 1415هـ-1994م.

59- مسند الإمام أحمد بن حنبل - مؤسسة قرطبة - القاهرة.

60- معاني القرآن للفراء. تحقيق. أحمد يوسف نجاتي، محمد علي النجار - 1955م.

61- معجم المصطلحات والتراكيب والأمثال المتداولة د. محمد بن حسن بن عقيل موسىٰ الشريف - دار الأندلس الخضراء - جدة - الطبعة الأولىٰ 1419هـ-1999م.

62- مقاييس اللغة لابن فارس. تحقيق. عبد السلام محمد هارون - دار الجيل - بيروت - الطبعة الأولىٰ 1411هـ-1991م.

63- مناهج البحث في اللغة د. تمام حسان - دار الثقافة - الدار البيضاء - المغرب 1400هـ-1979م.

64- موطأ مالك بن أنس. المحقق. محمد مصطفىٰ الأعظمي - مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان - الطبعة الأولىٰ - 1425هـ-2004م.

65- ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي. تحقيق. علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولىٰ 1995م.

66- النشر في القراءات العشر لابن الجزري - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

67- النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الجزري. تحقيق. أحمد طاهر الزاوي، محمود محمد طناحي - المكتبة العلمية - بيروت - 1399هـ-1979م.

# فهرس الموضوعات

**المقدمة** ........ **189**

التمهيد: ابن مالك: (تعريف وتصنيف ودلالة) ........ 193

**المبحث الأول:** اختلاف المادة والدلالة الاعتماد في نظائر الظاء والضاد ........ 195

**النموذج الأول:** حرف الهمزة ........ 199

**النموذج الآخر:** حرف العين المهملة ........ 204

**المبحث الثاني:** اختلاف المادة والدلالة في شرح القول الأوجز في ما يهمز وما لا يهمز ........ 209

**النموذج الأول:** من الشعر العربي ........ 214

**النموذج الآخر:** أقوال أئمة اللغة ........ 218

**المبحث الثالث:** اختلاف الحركة والدلالة في إكمال الإعلام بتثليث الكلام ........ 223

**النَّموذج الأول:** (وقعوا في حَيْصَ بَيْصَ) ........ 225

**النَّموذج الثَّاني:** (باتت فلانة بليلة حُرَّة وبليلة شيباء) ........ 226

**النَّموذج الثَّالث:** (هو أشجع من فارس خَضَافِ) ........ 227

**النَّموذج الرَّابع:** (هو العبد زُلْمَة) ........ 228

**النَّموذج الخامس:** (أصنع من سُرْفَة) ........ 228

**النَّموذج السَّادس:** (لقيته كَفَّة كَفَّة) ........ 229

**الخاتمة** ........ **231**

**فهرس المصادر والمراجع** ........ **233**